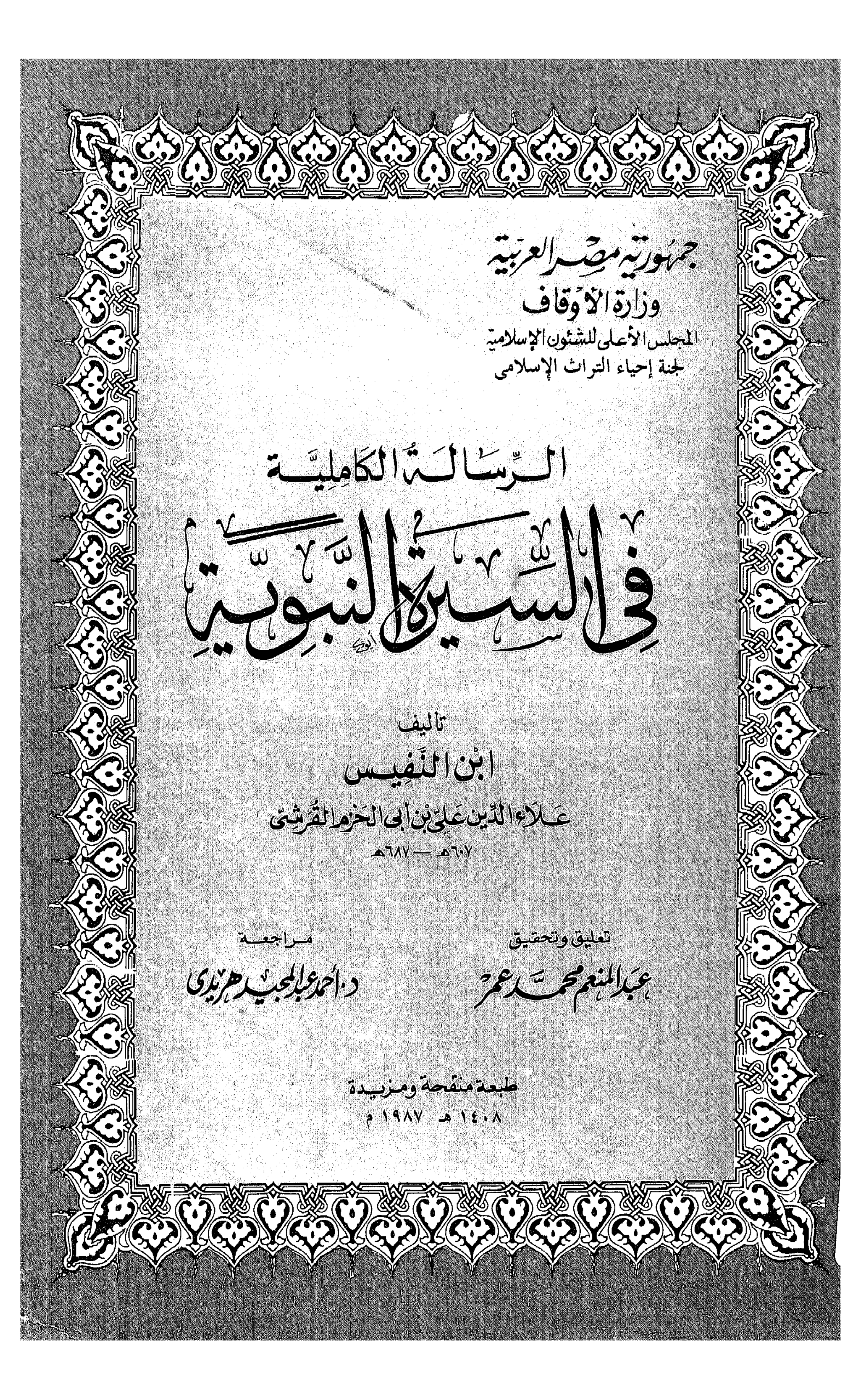


جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

الرسالة الكاملية
في السيرة النبوية

تأليف
ابن النفيس
علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي
٦٠٧ هـ — ٦٨٧ هـ

تعليق وتحقيق
عبد المنعم محمد عمر

مراجعة
د. أحمد عبد المجيد هريدي

طبعة منقحة ومزيدة
١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

الرسالة الكاملية في السيرة النبوية

تأليف

ابن النفيس
علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي
٦٠٧هـ — ٦٨٧هـ

تعليق وتحقيق
عبد المنعم محمد عمر

مراجعة
د. أحمد عبد المجيد هريدي

طبعة منقحة ومزيدة
١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٨٥ م
الطبعـــــة الثـانية ١٩٨٧ م

بســـم الله الرحمن الرحـــيم

﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِـــيم ﴾

(قرآن كريم)

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

تقديم لجنة إحياء التراث الإسلامى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين ، أما بعد فهذا هو الكتاب الثانى الذى تخرجه لجنة إحياء التراث الإسلامى ، لابن النفيس ، بعد كتاب : «الموجز فى الطب» الذى حققه الأستاذ عبدالكريم العزباوى ، ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى عام ١٩٨٦م .

وقد اشتهر «ابن النفيس» ببحوثه الطبية ، بعد أن وفق فى أثناء تجاربه العلمية إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى ، المعروفة بدورة الدم فى الرئة ، مخالفا بذلك آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء ، فقدم بذلك للطب وطرق العلاج أجل الخدمات .

ولم يقتصر جهد ابن النفيس على التأليف فى علم الطب ،بل شارك كذلك بالتأليف فى فروع مختلفة من العلوم العربية ، فله فى الحديث مخطوط بعنوان : «مختصر فى علم أصول الحديث» ، كما ألف كتبا أخرى لم تصل إلينا ، ككتابه فى الفقه الذى شرح به : «التنبيه» للشيرازى ، وكتابه : «طريق الفصاحة» ، كما شرح كتابين فى الفلسفة لابن سينا ، وهما : «الإشارات» و«الهداية فى الحكمة» .

ويعد كتابه : «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» الذى تقدمه اللجنة اليوم إلى قراء العربية ، نمطا خاصا فى كتابة السيرة النبوية ممزوجة بمنهج المتكلمين ، فقد نهج فيه نهجا حاكى فيه رسالة «حى بن يقظان» للرئيس ابن سينا ، إذ تصور قصة يحكيها من سماه : «فاضل بن ناطق» عن الرجل المسمى بكامل ، فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن الشرعية على طريق الإجمال .

ويقص علينا «ابن النفيس» فى أربعة فصول : كيفية تكوّن هذا الإنسان المسمى بكامل ، ووصوله بالفطرة إلى تعرّف العلوم والنبوات ، وكيفية وصوله إلى تعرف السيرة النبوية ، وكيفية وصوله إلى تعرف السنن الشرعية ، ثم كيفية وصوله إلى معرفة الحوادث التى حدثت بعد انتقال خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وهنا يتحدث الكتاب كذلك عن أهم الحوادث التى مرت بالعالم الإسلام فى زمن «ابن النفيس» ويذكر الكثير من عادات حكام مصر والشام وأخلاقهم .

وقد حقق هذا الكتاب العالم الفاضل الأستاذ عبدالمنعم محمد عمر رئيس اللجنة ، تحقيق الخبير الباحث المدقق ، وأسندت اللجنة أمر مراجعة الكتاب إلى السيد الدكتور أحمد عبدالمجيد هريدى ، عضو اللجنة ، فلم يضن عليه بوقت أو جهد ، حتى خرج الكتاب بالصورة التى تليق به .

واللجنة إذ تقدم اليوم هذا الكتاب لجمهور قراء العربية ، لترجو أن يجد فيه عشاق التراث العربى بغيتهم ومطلبهم ، والباحثون فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، ماينشدون من قيم ومثل عليا ، تنير لهذا الجيل والأجيال القادمة من شباب الإسلام طريقهم إلى مستقبل أفضل . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

٢١ من شعبان سنة ١٤٠٧هـ	مقرر اللجنة
١٩ من أبريل سنة ١٩٨٧م	أ.د. رمضان عبدالتواب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى يسر إصدار الطبعة الثانية من كتاب « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » ؛ والفضل فى ذلك لله ، فهو سبحانه « وتعالى لكرمه لا يمنع مستحقًا مُستَحقَّه ، ويعطى كل مستعد ما يَسْتَعِدُّ له »[١] : فالكتاب دفاع عن العقيدة الإسلامية ، وعن الشريعة التى أوصى بها الله الواحد الأحد إلى نبيه محمد المصطفى ﷺ كما شهد المؤرخون وكبار المفكرين ، ونكتفى هنا بذكر نبذة مما أورده المؤرخ الصفدى[٢] عن هذا الكتاب ، فقد قال عنه :- « انتصر فيه لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع ، والبعث الجسمانى وخراب العالم . ولعمرى لقد أبدع فيها ودل على قدرته وصحة ذهنه ، وتمكنه من العلوم العقلية » .

وهذا الغرض السامى الذى دفع « ابن النفيس » إلى تأليف هذا الكتاب هو نفسه الذى حدا بالأزهر الشريف أن يصدر الطبعة الأولى منه بمناسبة الاحتفال بعقد المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية الشريفة الذى عقد فى رحاب الأزهر الشريف إبتداء من يوم الجمعة ١٨ من شهر صفر سنة ١٤٠٦ هجرية الموافق الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٦ ميلادية ، وهو المؤتمر الذى شارك فيه نخبة ممتازة من علماء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

ورغبة من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر فى تيسير نشر هذا الكتاب بين المسلمين لدراسته والانتفاع بما ورد فيه من آراء وبحوث ، فقد تفضل فضيلته بالسماح لنا بإصدار الطبعة الثانية منه ، فله منا عظيم الشكر راجين أن يديم الله عليه نعمة التوفيق فى خدمة الإسلام والمسلمين .

ولما كان ابن النفيس قد اعتمد فى تأليف الفنون الثلاثة الأولى من هذا الكتاب على التعاليم الإسلامية التى أنزلها الله سبحانه فى « كتابه العزيز » ، وعلى التوجيهات النبوية الكريمة فى أحاديثه وسنَّته ، لذلك رأينا أن ندعِّم تعليقاتنا على آراء « ابن النفيس » بذكر

---

(١) من كلام « ابن النفيس فى الفصل الأول من الفن الأول من الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

(٢) ت ٧٦٤ هـ . والنبذة من ترجمته « لابن النفيس » .

بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، لأنها مثيلاتها هي المنبع الذى استقى منه آراءه ومعارضاته لبعض الفلاسفة وبعض المتصوفين ، وكان يقصد من وراء ذلك أن يُبيّن للناس أن اتباع تعاليم الإسلام هو الذى يكفل سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا والآخرة

ورغبة فى الانتفاع بما تحويه « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » على الوجه الأكمل ، رأينا أن نتوسع فى التعليق على الفن الرابع الذى تكلم فيه ابن النفيس عن أهم الحوادث التى مرت بالعالم الإسلامى فى زمانه ، ذاكراً الكثير من عادات حكام مصر والشام وأخلاقهم ، كما تحدث عن أهل هذين القطرين وما قاسَوْه على يد هؤلاء الحكام . ولاشك أن رأى ابن النفيس فيما حدث فى عصره له قيمته ؛ فهو معاصر مهدت له زعامته فى مهنة الطب الاتصال بالحكام ، وبكثير من رجالات عصره ، كما يسرت له الاتصال بجماهير الشعب

ونحب أن نذكر بوضوح أننا فى تعليقنا على الفن الرابع من هذه الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لم نتفق مع ابن النفيس فى موضع أو موضعين من تفسيره لأسباب بعض الظواهر الاجتماعية التى تكلم عنها ؛ وقد دعمنا رأينا بالأدلة التي تنقض ما ذهب إليه ، معتمدين فى ذلك على الكتاب العزيز . والسنة النبوية الشريفة ، ووقائع التاريخ الإسلامى من مصادرها الصحيحة ، وعلى ما توصلت إليه حضارتنا المعاصرة من آراء عن الحياة الاجتماعية .

ويسعدنا أن يرى هذا الكتاب النور فى عهد الأستاذ الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والله ولى التوفيق ،،،،

١٩٨٦/١٢/٢٠ عبد المنعم محمد عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد المولى – تبارك وتعالى – وأصلى وأسلم على خير من بعثه الله رحمة للعالمين ، سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الكرام البررة ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين

وبعـــد

فبمناسبة الاحتفال بالمؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية الشريفة (المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية) فى رحاب الأزهر الشريف ، الذى يبدأ – بمشيئة الله تعالى – يوم الجمعة ١٨ من شهر صفر سنة ١٤٠٦ هـ الموافق الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٨٥ م ويترقبه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويهتمون به اهتماما كبيرا ويولونه اهتمامهم ، ولا غرو فهو حول سيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وسنته النبوية الشريفة ، ولأهمية هذا المؤتمر يشارك فيه عدد كبير من علماء المسلمين المتخصصين فى التاريخ الإسلامى ولا سيما السيرة النبوية

والسنة ، وصداه كبير ومبارك فى مشارق الأرض ومغاربها ، لانعقاده فى رحاب الأزهر – قلعة العلم والايمان – ولذا أولاه المسئولون فى جمهورية مصر العربية اهتمامهم وعلى رأسهم السيد الرئيس محمد حسنى مبارك ، رئيس جمهورية مصر العربية الذى تشرف بتوجيهاته الكريمة ؛ لإبراز هذا الاحتفال العظيم بما يتناسب وجلال السيرة والسنة النبوية ، وجلال الأزهر الشريف ، ومكانته العلمية وما أداه من خدمات جليلة للعالم الإسلامى .

ومن هذا المنطلق فقد شكلت لجنة عليا برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر للإعداد لهذا الإحتفال ، وشكلت أمانة عامة للمؤتمر ثم أمانة فنية ، وأمانة مالية وإدارية ، وكل من الأمانتين شكلت لجانا مختلفة ، للعمل فى شتى النواحى ، ومن بينها لجنة التحضير للمؤتمر ، وقد وقع اختيارها على طبع عدة مطبوعات تقدم هدايا للمدعوين فى هذه المناسبة .

وكان من بين ما تقدمه من مطبوعات كتاب « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس » تحقيق وتعليق الأستاذ عبد المنعم محمد عمر وكيل وزارة الثقافة سابقا ورئيس لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد عُهد إلى مجموعة من الأساتذة الفضلاء لإعداد هذا الكتاب إعدادًا فنيًا وعلميًا ؛ ولإخراجه إخراجًا يليق بموضوعه .

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة إلا أن أسدى خالص الشكر ، وعظيم التقدير ، لكل من أسهم فى هذا العمل الجليل ، خدمة لديننا ، وأمتنا ، وأزهرنا العتيد .

والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه ، وأن يجزى الجميع خير الجزاء ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

دكتور الحسينى عبد المجيد هاشم
وكيل الأزهر الشريف
و
الأمين العام
للمؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة
النبوية الشريفة



بسم الله الرحمن الرحيم

المدخــــــل

عنى العلاء بن النفيس فى كتابه « الموجز فى الطب » بتلخيص آراء ابن سينا فى كتاب « القانون » عدا ما كان منها خاصًا بالتشريح ووظائف الأعضاء ، وقامت « لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية » بنشره ١٩٨٦ م . وبينما كنت أعد لكتابة تقديم لهذا الكتاب ، رأيت أن أطلع على قائمة بعناوين الكتب التى ألفها ابن النفيس ، فوجدت من بينها مخطوطة عن السيرة النبوية الشريفة بعنوان « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » فتاقت نفسى إلى الاطلاع على منهج هذا العالم المتطبب ، وأسلوبه فى كتابة السيرة النبوية الشريفة ، وبخاصة لأنى أصدرت كتابا يؤرخ لفترة كبيرة من حياة الرسول الكريم بعنوان : « خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : نظرات فى إشراق فجر الاسلام »[1] .

ولما شرعت فى البحث عن أصول هذه الرسالة المخطوطة ، علمت أنه يوجد منها فى العالم نسختان مخطوطتان : إحداهما فى « دار الكتب والوثائق القومية »[2] بالقاهرة ، والثانية فى إحدى مكتبات « استانبول » العامرة بكنوز المخطوطات العربية فى مختلف العلوم والفنون .

ولما شرعت فى دراسة ماكتب فى المصادر المختلفة ، التى كتبت عن هذه الرسالة قابلتنى عدة مفاجآت ، وما أكثر ما يقابل المشتغلون بتحقيق التراث العربى من تلك المفاجآت ، وسأحاول أن أذكر باختصار أهمها فيما يأتى :

---

(١) نشرته الهيئة العامة للكتاب سنة ١٤٠٢ هـ = سنة ١٩٨٢ م .

(٢) يوجد فى هذه الدار نسختان إحداهما منسوخة عن الأخرى .

المفاجأة الأولى : أن ابن النفيس كان يرمى من وراء كتابة هذه الرسالة كما نقل المؤرخ الكبير «الصفدى» إلى : الإنتصار «لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع ، والبعث الجسمانى وخراب العالم»[1] وأنه كان يرمى إلى معارضة «رسالة حىّ بن يقظان تأليف الرئيس ابن سينا» ولذلك فقد أصبح لزاما علىّ أن أتصفح رسالة «الرئيس ابن سينا» لأتبين الصلة بين الرسالتين ، وأقف على مدى صحة حكم «الصفدى» فى وصفه رسالة «ابن النفيس» بقوله : «ولعمرى لقد أبدع فيه ، ودل ذلك على قدرته ، وصحة ذهنه ، وتمكنه فى العلوم العقلية» .

المفاجأة الثانية : كان من المعروف فى الأوساط المهتمة بالتراث العربى المخطوط أن «الرئيس الشيخ ابن سينا» كتب رسالة صغيرة بعنوان : «حىّ بن يقظان» «بعبارة مغلقة غامضة»[2] ولذلك قام تلميذه أبو منصور الحسين بن زيلة بشرحها ، كما قام الفقيه أبو عبيد الجوزجانى بعمل شرح آخر لها ، ولكن المفاجأة كانت أن «ابن سينا» كتب بنفسه شرحا لها ، وأن أصول هذا الشرح محفوظة فى مخطوطة بإحدى مكتبات انجلترا ، فأصبح من الواجب الإطلاع عليها ، ولكن من حسن الحظ أننا وفقنا بعد البحث إلى معرفة أن الأستاذ «محمد صغير حسن المعصومى» الأستاذ بقسم العلوم الإسلامية بدمشق قد توفر على دراسة تلك المخطوطة ، وقام بتحقيقها ونشرها فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ، وقد يسّر هذا التحقيق مهمتنا فى هذا البحث .

---

(١) نقلا عن ترجمة ابن النفيس فى الوافى بالوفيات للصفدى . ومسالك الأبصار للعمرى .
(٢) أحمد أمين : حىّ بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى .

المفاجأة الثالثة : قرأت فى كتاب «الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين «تأليف سارتون»[1]أن المستشرق يوسف شاخت يعمل على نشر : «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» وفى عمل ترجمة جزئية لها باللغة الانجليزية ، وبالبحث اتضح أن هذا المستشرق تعاون مع زميله ماكس مايرهوف ـــ الذى عاش فى القاهرة زمناً طويلاً ـــ على نشر الكتاب ، وقد صدر بعد وفاة مايرهوف[2] .

ولما كنت أعلم أن «ماكس مايرهوف» بذل جهودا كثيرة محاولًا نفى فضل اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية[3] ، لذلك رأيت أن أتابع بحث هذا الموضوع ـــ ودراسة كتابهما ـــ بحثًا علميًا بعيدًا عن تعصب مايرهوف .

وكان من أهم ما استلفت نظرى فى تعليقاتهما قولهما : إنه ليس من المعقول أن يكون ابن النفيس قد أراد برسالته هذه معارضة الشيخ «الرئيس ابن سينا» كما قال «الصفدى» وكذلك قولهما إنه ليس بين هاتين الرسالتين أية صلة[4] ، وقد ذهبا إلى أنه يوجد تشابه كبير بين رسالة «ابن النفيس» وبين رسالة «حىّ بن يقظان» تأليف الفيلسوف المتطبب «ابن طفيل»[5] ، ولذلك فقد اهتما بالمقارنة بين هاتين الرسالتين ، ولم يذكرا شيئا عن صلة رسالة «ابن طفيل» برسالة «ابن سينا[6] .

---

(١) الترجمة العربية ص ٤٩

(٢) نشر فى جامعة اكسفورد ١٩٦٨ ، وقد توفى مايرهوف فى ٢٠ أبريل ١٩٤٥ م .

(٣) انظر حياة ابن النفيس فى هذا البحث .

(٤) ص ٢٠ من المقدمة الانجليزية وما بعدها .

(٥) توفى سنة ٥٨١ هـ .

(٦) انظر ص ٢٠ من المقدمة الانجليزية التى كتبها المحققان والصفحات التى تليها .

المفاجأة الرابعة : اتضح بعد الدراسة المتأنية أنه يوجد فى التراث العربى رسالة ثالثة كتبها « شهاب الدين يحيى بن حبش المعروف بالسهروردى المقتول سنة ٥٧٨ هـ » بعنوان « الغريبة الغربية » أثنى فيها صاحبها على رسالة « حىّ بن يقظان للرئيس ابن سينا » وذكر ما فيها « من عجائب الكلمات الروحانية ، والإشارات العميقة مُعْترية .[1] ... مما يترتب عليه مقامات الصوفية ، وأصحاب المكاشفات » ، ولم يشر المستشرقان إلى هذه الرسالة برغم صلتها الوثيقة بالموضوع .

ومن المهم أن نلاحظ : أن المستشرقين تجاهلا ما ذكره المؤرخ الكبير « الصفدى » وهو أن الغرض الذى وضعه « ابن النفيس » نصب عينيه لم يكن فقط كتابة السيرة النبوية الشريفة على منهج جديد ، ولكنه أراد معارضة الشيخ الرئيس ابن سينا دفاعا عن العقيدة الإسلامية الصحيحة وسنحاول أن نشرح ذلك عند مقارنة هذه الرسالة بالرسائل الثلاث الأخرى التى أشرنا إليها ، ويتضح لنا من ذلك أنه يجب علينا ألا نعتمد فى دراسة وتحقيق تراثنا على ما يبذله المستشرقون من جهود ، وأنه يجب علينا أن نعنى بتأدية هذا الواجب بأنفسنا ، معتمدين على معرفتنا بأصول ديننا ، وعلى ذوقنا فى فهم اللغة العربية ؛ لغة أبائنا وأجدادنا .

المفاجأة الخامسة : عندما وصلت إلينا مصورة مخطوطة « استانبول » بفضل المعونة المخلصة التى قدمها العالم الأستاذ الدكتور « أكمل الدين إحسان أوغلى » مدير « مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول » اتضح أن هذه النسخة تتضمن « أربعة فنون » ، فهى بذلك تزيد فنا كاملًا عن نسخة دار الكتب بالقاهرة ، وقد

---

(١) معترية = عارية وانظر أحمد أمين : حىّ بن يقظان لابن سينا ، وابن طفيل والسهروردى ، نشر دار المعارف .

وجدنا أن هذا الفن الرابع يزيد من قيمة هذه الرسالة زيادة كبيرة من الناحيتين التاريخية والاجتماعية ، فقد درس هذا العالم المتطبب التاريخ الإسلامى دراسة واعية ، كما درس تطور الحياة الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ، بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم عبّر فى هذا الفن الرابع عن رأيه فى الأسباب التى أدت إلى ما آلت إليه حالة الشعوب الإسلامية ، من الضعف والتفكك ، حتى طمع فيهم الصليبيون ، وانتصر عليهم المغول واجتاحوا ودمروا الكثير من البلاد الإسلامية .

المفاجأة السادسة : ورد فى مصادر البحث القديمة أن العلاء بن النفيس ألف رسالتين :

الرسالة الأولى بعنوان : فاضل بن ناطق

الرسالة الثانية بعنوان : الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية

وقد اتضح لنا بعد البحث : أن هذين العنوانين هما لكتاب واحد ، يروى فيه « فاضل بن ناطق » قصة المدعو « كامل » ، فهو يذكر كيف خُلق كامل ، وكيف نما وعاش وتعلّم ، بواسطة الحواس ، والقوى المختلفة ، التى أنشأها الله فيه ، ثم كيف توصل إلى معرفة الله سبحانه ، ومعرفة النبوات ، ومعرفة السيرة النبوية الشريفة ، وكذلك معرفة الحياة الأخرى والبعث الجسمانى وغير ذلك مما تقول به الشريعة الإسلامية .

ويقصد ابن النفيس من وراء تسمية راوى القصة باسم : « فاضل ابن ناطق » إلى أن هذا الراوية رجل فاضل ومفكر ، ورث التفكير المنطقى عن أبيه « ناطق » . أما تسمية بطل القصة باسم « كامل » فإن

ابن النفيس يرمز بذلك إلى أنه إنسان كمَّله الله بالصفات الحميدة ، والعقل الراجح ، وليس فى هذه الرسالة غير ذلك شيء آخر من الرمز ولا شيء من المصطلحات الصوفية .

ونلاحظ أن ابن النفيس يؤمن أن « التكوين الذاتى » لأعضاء جسم الإنسان لا يمكن أن يخلق إنسانًا ، ولكن الله – سبحانه – هو الذى خلق من تلك الأجزاء إنسانا هو « كامل » بطل هذه القصة ، ولذلك نرى أن « ابن النفيس » يقول : « ولذلك كانت هذه الأجزاء [التى تكونت بالتكوين الذاتى][1] مستعدة لأن يتكون منها أعضاء إنسان . والله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقًا مستحقَّه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له ، فلذلك خلق من تلك الأجزاء أعضاء إنسان » .

المفاجأة السابعة : انتهز « ابن النفيس » فرصة كتابته رسالة عن خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله عليه وسلم – وما كان يرجوه لها من ذيوع بين الناس ، وكتب شرحا للدورة الدموية الرئوية ، ضمن الفن الأول من هذه الرسالة ، فما هو المنهج الذى يسَّر له ذلك حتى جعله يبدو طبيعيًا ؟

وبعد : فإنه ليسعدنى أن أنوه بفضل الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر الذى تفضل بتوجيهاته نحو نشر هذه الرسالة ضمن مطبوعات المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية الكريمة ، الذى سيعقد فى القاهرة فى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م كما يسرنى أن أقدم شكرى وتقديرى لفضيلة الدكتور الحسينى هاشم وكيل الأزهر على

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لتوضيح المعنى .

تشجيعه الطيب لإخراج هذه الرسالة إلى حيز الوجود ، وأشكر كل من أسهم فى التصحيح والمراجعة وأخص بالذكر فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الحميد الجزار ، وفضيلة الأستاذ الشيخ فتح الله يس جزر .. سائلًا المولى أن يجزى الجميع خير الجزاء .

«رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ»

٢ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٥ م .

عبد المنعم محمد عمر .



المبحث الأول

ابن النفيس

والعصر الذى عاش فيه وإنتاجه الفكرى

حياة ابن النفيس

هو علاء الدين بن أبى الحزم[1] القرشى[2] الملقب بابن النفيس ، عالم جليل ضرب بسهم وافر فى كثير من العلوم ، وطبيب من أكبر أطباء العرب المسلمين ، فى القرن السابع الهجرى ، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى . ولد فى دمشق ، أو بالقرب منها حوالى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢٠٧ م وانتقل الى القاهرة حيث طابت له الإقامة حتى بلغ الثمانين من عمره ، وتوفى بها سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م .

ويؤسفنا أن نقرر : أننا لم نجد فى كتب التراجم ما يهدينا الى الاحاطة بأخبار حياته الخاصة ، ولا أخبار الأسرة التى نشأ فيها ، ولا موعد انتقاله للإقامة بالقاهرة ، ولكنها كلها عنيت بوصف المستوى الثقافى والعلمى الرفيع ، الذى وصل إليه ، والإشادة بأفضاله العلمية ، وبمؤلفاته مع ذكر نبذة قصيرة عن حياته الخاصة . وأهم المصادر التى يمكن أن نستقى منها أخباره هى :

١ - ترجمة قصيرة لابن النفيس فى مخطوطة من كتاب « عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء » تأليف زميله ومعاصره الطبيب المؤرخ ابن أبى أصيبعة[3] ويرجع الفضل فى الكشف عنها إلى عالم سورى تخصص فى علوم

---

(١) ذكر اسمه فى بعض المراجع « ابن أبى الحرم » براء مهملة كما فى النجوم الزاهرة فى وفيات سنة ٦٨٧ هـ وقد أخذنا برأى ابن فضل الله العمرى والسيوطى فى حسن المحاضرة وغيرهما .

(٢) نسبة الى قريش ، وقد أخذنا برأى العمرى حيث وصف نسبه بقوله : إلى حسب غير مرعوس ، وحسب مثل جناح الطاووس .

(٣) عاش ٦٠٠ - ٦٦٨ هـ / ١٢٠٣ - ١٢٧٠ وهو زميل ابن النفيس فى تعلم الطب على أستاذ واحد . والنسخة المطبوعة من هذا الكتاب ليس فيها ذكر لابن النفيس .

المكتبات هو : الأستاذ يوسف العش[1] فقد اكتشف وجودها بين المخطوطات المجهولة الأصل فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم (٤٨٨٣) وقد أثبت نصها الدكتور بول غليونجى فى كتابه « ابن النفيس » بفضل مساعدة الأستاذ سامى حمارنه[2] . ولعل سبب قصر هذه الترجمة يرجع الى أن المؤلف توفى قبل زميله ابن النفيس بحوالى ثمانية عشر عاما ، أنتج فيها ابن النفيس الكثير من مؤلفاته ، وبخاصة الطبية ، لأنه تعلم الطب واشتغل به على كبر .

وقد وصف ابن أبى أصيبعة زميله بقوله : « كان شيخا فاضلًا كالبحر الخضم ، والطود الأشم للعلوم ، ولم يكن منفردا بفن من الفنون ، ولو لم يكن له غير شرح غوامض « القانون » لكفى دليلًا على غزارة فضله ، ونزارة مثله ، وله كذلك تصانيف كثيرة فى جميع الأنواع ، مقبولة عند المحققين فى أكثر البقاع ، مشتملة على حقائق الأنظار ، ودقائق الأفكار ، ولطائف الإشارات ، وطرائف العبارات.... » ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الترجمة كانت مصدرا من من المصادر التى استقى منها ابن فضل الله العمرى بعض ما ذكره عن ابن النفيس .

٢ - ومن أهم المصادر التى ترجمت له كتاب « تاريخ الإسلام » للمؤرخ الكبير شمس الدين الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م) ، وترجع أهمية هذه الترجمة إلى أن الذهبى ولد قبل وفاة ابن النفيس بحوالى أربعة عشر عاما ، وقد استقى معلوماته من العلماء الذين

---

(١) أحد أمناء المكتبة الظاهرية ، وقد تعاون مع نظرائه فى دار الكتب بالقاهرة على إنشاء الادارة العامة للثقافة ، ومعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية .

(٢) هو الآن أستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

عاصروا ابن النفيس وكانت تربطهم به روابط علمية وصداقة شخصية مثل أبي حيان الأندلسي الذى زار مصر وعاش فيها فترة طويلة بعد وفاة ابن النفيس وكان صديقا حميما له وتلقى عنه بعض العلوم[1] . ونحن نقتبس ما يأتى من ترجمة الذهبى له : « على بن أبى الحرم العلامة علاء الدين بن النفيس القرشى الدمشقى الطبيب شيخ الأطباء فى عصره ... انتهت إليه رياسة الطب بالديار المصرية ... ولم يخلف بعده مثله . وقد كتب إلينا الإمام أبو حيان الأندلسى أن العلاء بن النفيس كان إماما فى علم الطب أوحد ، لا يضاهى فى ذلك ولا يبارى ، ولا يدانى ، استحضارًا واستنباطا ... ولشيخنا علاء الدين معرفة بالمنطق وقد صنف فيه مختصرًا ، وقرأت عليه من كتاب الهداية لابن سينا فى المنطق جملة . » وقد عاصر الذهبى القاضى جمال الدين بن واصل ، أبو عبد الله بن عمر (٦٠٤ – ٦٩٧ هـ) = ١٢٠٧ – ١٢٩٨ م وكان صديقًا حميمًا لابن النفيس ، وهو مؤلف كتاب « مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب » .

وقد كتب عن ابن النفيس كذلك لفيف من المؤرخين الذين ولدوا بعد موته بزمن قصير وتلقوا معلوماتهم من العلماء والمؤرخين الذين عاصروا ابن النفيس وهم :

٣ – الصفدى ؛ أبو الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك (٦٩٦ – ٧٦٤ هـ = ١٢٩٧ – ١٣٦٣ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بتسعة أعوام ، وكان معاصرا للذهبى وصديقا له ، وقد ترجم لابن النفيس فى كتابه : « الوافى بالوفيات » .

٤ – ابن كثير ؛ اسماعيل بن عمر (٧٠١ – ٧٧٤ هـ = ١٣٠١ – ١٣٧٣ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بحوالى أربعة عشر عاما، وقد كتب نبذة قصيرة عن ابن النفيس فى كتابه: «البداية والنهاية».

---

(١) كان من أعلم أهل عصره فى النحو (٦٥٤ – ٧٤٥ هـ = ١٢٥٦ – ١٣٤٤ م)

٥ – ابن فضل الله العمرى ؛ شهاب الدين أحمد (٧٠٠– ٧٤٩ هـ = ١٣٠٠ – ١٣٨٤ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بحوالى اثنى عشر عاما ، وقد ذكر عن ابن النفيس ترجمة طويلة تعتبر أوفى المصادر الموثوق بها ونقل جلها عن الصفدى ، وقد أثبتها كاملة الدكتور أحمد بك عيسى المتوفى سنة ١٩٤٦ فى كتابه : « معجم الأطباء » ؛ ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ٢٩٢ – ٢٩٦ »[1] .

وقد استقى كتاب التراجم الذين أتوا بعد هؤلاء الخمسة معلوماتهم عن ابن النفيس من المصادر السابق ذكرها ، ومن أهم المراجع التى كتبت عنه : طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ، وروضات الجنَّات للخوانسارى . أما الكتاب المعاصرون فقد كتب عن ابن النفيس الكثيرون نذكر من بينهم : كتاب « طبقات الأطباء » لأحمد بك عيسى وكتاب « ابن النفيس » للدكتور الطبيب بول غليونجى و« أعلام الطب العربى » بقلم أبى الفتوح التوانسى ، و« فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية » تأليف دكتور عز الدين فراج ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨ .

وتجمع كل هذه المصادر على أن ابن النفيس نشأ فى دمشق وتعلم فى صباه أكثر علوم عصره ، وتعلم الطب على كبر ، ثم انتقل الى القاهرة حيث طابت له الإقامة ، وعاش فى كنف النهضة الحضارية الإسلامية العربية الثانية ، التى ألممنا إلمامة سريعة ومختصرة ببعض نواحيها ، وعاصر طوال حياته المديدة المباركة الكثير من شيوخ علماء مصر والشام الذين نبغوا فى مختلف العلوم والفنون . ويصفه المؤرخون بالذكاء المفرط ،

---

(١) كذلك ذيل بول غليونجى كتابه « ابن النفيس » بنص هذه الترجمة . ص ٧٣ – ٧٤

والذاكرة القوية والاطلاع الواسع ، والطاقة الكبيرة على الإستيعاب والنقد البنّاء ، ولاشك أنه تعلم الكثير من العلماء الذين عاصروه ، واستفاد من مؤلفاتهم التى اقتناها بالقاهرة فى مكتبته الخاصة العامرة بذخائر المخطوطات ، كما استفادوا من مؤلفاته .

وكان ابن النفيس ذا مروءة لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلًا ولا نهاراً ، فأصبحت له فى المجتمع مكانة مرموقة ، ومنزلة اجتماعية كبيرة ، ولذلك فقد كان يفد على مجلسه — فى داره التى أنشأها بالقاهرة ، وفرشها بالرخام حتى إيوانها — نخبة ممتازة من معاصريه يتقدمهم جماعة من أمراء المماليك ، وكبار العلماء والأطباء ، ونخبة من تلاميذه ومن أعيان مصر ، وكان الناس يجلسون فى طبقاتهم ، وكان من بينهم لفيف من أصدقائه من أقباط مصر .

وقد كان لنشأة ابن النفيس ، وللبيئة التى عاش فيها أثر كبير فى تنوع إنتاجه الفكرى حتى شمل الكثير من العلوم والفنون ، ولذلك يصفه التاج السبكى[1] صاحب طبقات الشافعية الكبرى بقوله : « علاء الدين ابن النفيس الطبيب المصرى صاحب التصانيف الفائقة .... كان فقيها على مذهب الشافعى .... صنف فى أصول الفقه ، والمنطق ، وبالجملة كان مشاركا فى فنون » وقال ابن العماد فى شذرات الذهب : « ابن النفيس شيخ الطب فى الديار المصرية ، وصاحب التصانيف ، ومن انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط ، والذهن الخارق ، والمشار إليه فى الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق .... » وعن الأسنوى : « إمام وقته فى فنه شرقا وغربا بلا موافقة ، أعجوبة دهره ، صنف فى الفقه وأصوله ، وفى العربية والجدل والبيان ، وانتشرت عنه التلامذة »[2] .

---

(١) ٧٢٧ – ٧٧١ هـ = ٣٢٩ – ١٣٦٩ . وقد تتلمذ على المؤرخ الإسلامى الكبير « الذهبى » .
(٢) « شذرات الذهب »

وجاء فى الوافى بالوفيات أن السديد الدمياطى الحكيم بالقاهرة ، وهو من تلاميذ ابن النفيس ، روى أن أستاذه ظل يتباحث مع القاضى جمال الدين بن واصل[1] ليلةً بطولها فى مختلف العلوم والفنون ، فلما أصبح الصباح قال ابن واصل : « نحن عندنا مسائل ونكت ، وأما أنت ياشيخ علاء فعندك خزاين علوم » ، وجاء أيضا فى مسالك الأبصار أن أحد معاصرى ابن النفيس من العلماء وهو بهاء الدين بن النحاس كان يقول « لا أرضى بكلام أحد فى القاهرة فى النحو غير كلام ابن النفيس »[2] .

وقد جلس ابن النفيس فى المدرسة المسرورية يدرّس الفقه الشافعى وشرح أول كتاب التنبيه إلى باب السهو .

وقد شهد أصحاب كتب التراجم أن علاء الدين بن النفيس كان ورعاً يخشى الله « حتى إنه فى علته الأخيرة التى توفى فيها أشار عليه بعض أصدقائه الأطباء أن يتناول شيئا من الخمر ، إذ كانت علّته تناسب أن يتداوى بها ــ على ما زعموا ــ فأبى أن يتناول شيئا من ذلك وقال : لا ألقى الله تعالى وفى باطنى شىء من الخمر »[3] .

ولم يتزوج ابن النفيس طوال حياته ، ومات سنة ٦٨٧ هـ بالقاهرة[4] بعد أن أوقف داره وأمواله الطائلة ومكتبته على البيمارستان المنصورى ، وقال الصفدى نقلًا عن أبى حيان : «أنشدنى أبو الفتح بن يوحنا بن موهوب النصرانى لنفسه . يرثى علاء الدين بن النفيس :

ومُسائـــلٍ هل عالم أو فاضل أو ذو محلٍّ فى العُلى بعد العَلا ؟
فأجبت والنيران تضرم فى الحشا أقْصِرْ فمذ مات العَلا مات العُلى

---

(١) مؤلف كتاب : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب وصل فيه الى سنة ١٢٦٢م.

(٢) نقلا عن الوافى بالوفيات ومسائل الأبصار .

(٣) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات ، ومعجم الأطباء .

(٤) مسالك الأبصار ، ورقة رقم ٢٢٥ – ٢٢٦ . وقد أثبتها أحمد بك عيسى فى كتابه « معجم الأطباء ص ٢٩٢ – ٢٩٦ . وانظر أيضا البداية والنهاية لابن كثير ص ٣١٣ وكذلك روضات الجنات للخوانسارى ، باب العين . ودائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١ .

الحياة السياسية والاجتماعية
زمن ابن النفيس

كان الشرق الأدنى قد ابتلى بالحروب الصليبية قبل مولد ابن النفيس بأكثر من قرن ، وامتد الكفاح ضدها دون هوادة طول حياته ، فقد بدأت هذه الحروب المضنية بتحريض من البابا إيريان سنة ١٠٩٥ م بحجة تخليص القبر المقدس من المسلمين ، وانتهز ملوك الفرنجة وأمراؤهم وغيرهم من المغامرين الفرصة طمعا فى الإستيلاء على نصيب فى الشرق الأدنى ولتنشيط التجارة ، وتمكنت الحملة الصليبية الأولى من هزيمة السلاجقة ، واستولت على نيقية ، وانطاكية ، وعسقلان ، وعلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م حيث أسسوا مملكة القدس اللاتينية بعد أن خربوا المدن ونهبوها ، وقتلوا الآلاف من غير المحاربين من الرجال والنساء والأطفال .

وتوالت موجات من الحملات الصليبية على فلسطين وسوريا ومصر والمغرب ، وجاهد المسلمون بقيادة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبى فى صراع مرير الى أن انتصر صلاح الدين فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ م ثم استعاد بيت المقدس ، وطرد الصلبيين من أكثر المواقع التى سبق لهم احتلالها ، ولم يبق لهم إلا شريط على الساحل الشرقى للبحر المتوسط .

وقاد الإمبراطور فردريك الحملة الصليبية السادسة ، وتمكن من عقد صلح مع السلطان الكامل الأيوبى صاحب مصر والشام ، استعاد بمقتضاه بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، وصيدا دون قتال بل أخذها لقمة سائغة دون عناء ، ثم دخل بيت المقدس ، وتوج نفسه

امبراطوراً فى كنيسة القيامة فى سنة ٦٢٦هـ مارس/ سنة ١٢٢٨م ، وضاع بذلك كل ما بذله صلاح الدين ورجاله من جهود ، وضاعت دماء الضحايا والمجاهدين .

وهبت موجة من التذمر والسخط فى الشرق الأوسط كله ، وبدأ صراع عنيف من جديد لإسترداد بيت المقدس وطرد الصليبيين من البلاد المحتلة بقيادة الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ، وكان ابن النفيس فى بداية هذه الفترة الحزينة شابا يتعلم فى دمشق علوم عصره ومن بينها الطب ، ويعمل فى البيمارستان النورى ، واستمرت الحروب الطاحنة حتى استعاد المسلمون بيت المقدس للمرة الثانية سنة ٦٠٤٢ هـ / ١٢٤٤ م (١١ يوليه) ، وكان ابن النفيس يعمل فى ذلك الوقت طبيبا فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة .

ورأى لويس التاسع ملك فرنسا أن الصليبيين لن ينجحوا مادامت مصر تقود النضال ضدهم ، فهاجمها على رأس الحملة الصليبية السابعة ، واستولى على دمياط سنة ٦٤٧ هـ / يونية ١٢٤٩ م . وحاصر المنصورة ثم زحف إلى القاهرة ، وتوفى أثناء ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر موته حفاظا على الروح المعنوية للجيش المناضل ، واستدعت ابنه توران شاه من سوريا على عجل ، وحملت هى عبء رياسة الدفاع إلى أن عاد توران شاه ، وبرز فى هذه الحرب الأمير بيبرس البندقدارى بانتصاره فى المنصورة ثم هزمت الجيوش الصليبية أثناء تقهقرها شر هزيمة فلم ينج من القتل منهم إلا من وقع فى الأسر ، وكان الملك لويس التاسع أحد أولئك الأسرى .

وأثناء عودة توران شاه منتصرا للقاهرة قتله المماليك . وبذلك عاصر ابن النفيس نهاية دولة الأيوبيين ، ودسائس شجرة الدر ، وتوليها

عرش مصر ثمانين يوما ، ثم تنازلها عن الحكم لزوجها المعزّ أيبك التركمانى سنة ٦٤٨ هـ/ ١١٥٠ م ، وبقى حاكما الى أن قتلته زوجته شجرة الدر سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م ، فهجم عليها مماليكه وقتلوها .

وكان المغول قبيل هذه الحوادث قد داهموا المشرق الإسلامى بقيادة « هولاكو » واجتاح طوفانهم البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان ، وإيران ، وخربوا المدن ، وقتلوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، ثم اجتاحوا العراق ، واستولوا على بغداد ، ودمروا الكثير من معالمها ، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم ، وقتلوا الخليفة العباسى « المعتصم بالله » هو والكثير من رجاله ، سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ، ثم زحفوا إلى الشام ، وأخذوا يدمرون كل ما كان يقابلهم ، واستولوا بسرعة على حلب ، ودمشق ، وعاثوا فى الأرض والبلاد فساداً ونهباً وقتلًا وتخريباً .

وعمّ الفزع الشرق الأوسط كله ، وتخاذل بعض حكام بنى أيوب فى الشام وبعض أمراء المماليك هناك ، وتمكن قطز من الاستيلاء على السلطة ، وجمع بعد جهد كلمة أمراء مماليك مصر فعينوه سلطانا ولقب بسيف الدين سنة ٦٥٧ هـ ، فاستعد على الفور لحرب المغول ، وقد عاصره ابن النفيس وهو يزحف بجيش كبير من مصر إلى الشام حيث انتصر نصراً عزيزاً فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م ، وأنقذ هذا النصر الكبير مصر والشام من خطر المغول واضطرهم إلى التقهقر إلى حدود العراق الغربية بعد أن استرد قُطزُ منهم دمشق وحلب وسائر بلاد الشام .

وتنفّس الناس الصعداء ، وعمّ الفرح بلاد الشرق الأوسط ، ولكنها فرحة لم تدم طويلًا ، فقد قتل المماليك البحرية السلطان قطز أثناء عودته لمصر سنة ٦٥٨ هـ = أكتوبر سنة ١٢٦٠ م ، وتولى قاتله الظاهر بيبرس السلطنة ، وقد عاصره ابن النفيس وهو يخضع مصر والشام لحكمه

بالحيلة تارة ، وبالمؤامرات حينا ، وبالجبروت والعنف أحيانا أخرى ،واستمر قابضا على السلطة بيد من حديد حوالى سبعة عشر عاما استطاع فيها أن يحمى الشام من توغل الصليبيين ، فقد استولى منهم على أنطاكيا فى مايو سنة ١٢٦٨ م ، وعلى عكا وكذلك حصن الاكراد والقرين سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١ م ، كما قضى على الحشيشية حلفاء الصليبيين واستولى على حصونهم ؛ واستطاع أن يهزم المغول وأنصارهم سلاجقة الروم فى موقعة « ابلستين » ، ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٦ م ، وتمكن من تأمين حدود مصر الجنوبية فأخضع ملك النوبة المسيحى ، وقبل منه الجزية سنة ١٢٧٦م . ولذلك نجد أن ابن النفيس يخصص فى الفن الرابع من « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » فصلين كاملين للحديث عن السلطان بيبرس يتحدث فيهما عنه وعن أخلاقه ، فيقول فى الفصل السابع بعنوان : « فى كيفية تعرف كامل بحال سلطان البلاد التى تبقى لهذه الملة مجاورة لما ينتهى إليه ملك أولئك الكفار » يقول : « لو لم يكن هذا السلطان شديد البأس جدا حتى يكون وحده فى مقاتلة جيش كثير لم يتمكن من مقاومة هؤلاء الكفار ومنعهم من الإستيلاء على بلاده ... ولا يكفى أن يكون كذلك فى نفسه فقط بل لابد وأن يكون عند الناس كذلك بهذه الصفة ، وإنما يكون ذلك إذا كان قد اشتهر عنه أنه جرىء مقدام شجاع سمى الأخلاق ، وإنما يكون ذلك إذا عرفت منه جراءة شديدة جدا كالجرأة على الملوك والاقدام على قتل أكابرهم ... » ويصف فى هذا الفصل أيضا بعض أوصافه الجسمانية ، ونحن نقتبس منها قوله : « ولابد وأن يكون مزاجه إلى حرارة وإلا لم يكن شديد الجرأة فلابد وأن يكون لونه أحمر إلى السمرة ، وشعره ليس بقليل جدا بل يكثر شعره ، ولا يحدث له صلع ... » ونحن نقتبس أيضا وصف ابن النفيس لبيبرس فى

الفصل الثامن من الفن الرابع قوله عن هذا الملك : «إنه لابد وأن يكون عند الناس مشهورا بالشهامة والسطوة والقدرة ، فلابد وأن يكون عند جميع الناس مهيبا مخوفا ، فلذلك لابد وأن يكون جميع هؤلاء حسنى الطاعة له ، والانقياد لأوامره ، خائفين من سطوته ، فلذلك لابد وأن تكون معاملتهم فى الظاهر على أجود الوجوه وأتمها» .

ويشعر الباحث الذى يمعن فى فهم هذين الفصلين أن ابن النفيس كان هو الطبيب الخاص الذى يشرف على علاج هذا الملك ولذلك أتيحت له الفرصة لمعرفته عن قرب ، أما علمه بأخلاق كبار أمرائه فإن الجملة الأخيرة من الفقرة التى اقتبسناها هنا توضح معرفته الوثيقة بهم وبأخلاقهم .

وقد امتد الأجل بابن النفيس بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م فعاصر تنازع كبار أمراء المماليك ودسائسهم للإستيلاء على الملك من أسرة بيبرس ، ذلك النزاع الذى استمر عامين استطاع فى نهايتهما الأمير قلاوون أن يكبح جماح هؤلاء الأمراء . ويستولى على الملك بيد من حديد ، ويلقب نفسه بالملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م ثم أخذ يستعد إلى لقاء المغول الذين انتهزوا فرصة هذا النزاع الداخلى فأخذوا يغيرون على الشام «بجيوش جرارة لم يطرق الشام قبل ذلك مثلها»(١) وقد تمكن من هزيمتهم هم وحلفاؤهم من الصليبيين فى موقعة حمص ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م ثم استولى على حصن المرقب من الصليبيين ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، و «كان حصنا منيعا لم يجسر أحد من سلاطين المسلمين قبله مثل صلاح الدين على

---

(١) كتاب «المختصر فى أخبار البشر تأليف أبى الفدا ، عماد الدين إسماعيل وهو المؤرخ الذى عاصر تلك الحروب ، جـ ٤ ص ٢٣ — ٢٤

التعرض له »(1) واستولى بعده على اللاذقية ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م . وكان هذا آخر نصر أحرزه قلاوون فى حياة ابن النفيس ؛ وقد فرح المسلمون بذلك فرحا عظيما .

ولابد لنا أن نذكر أن ابن النفيس رأى فى أخلاق قلاوون وصفاته الكثير من أخلاق بيبرس ، ولذلك يدرك الباحث أن كثيرا من الصفات والعادات والأخلاق التى وصف بها الظاهر بيبرس فى الفصلين السابع والثامن من الفن الرابع فى « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » تنطبق أيضا على الملك المنصور سيف الدين قلاوون .

ولعله من المفيد أن نذكر هنا أيضا أن الحروب الصليبية التى تحدثنا عنها فى هذا البحث استمرت على ضراوتها ضد مصر والشام حتى استطاع المسلمون طرد الصليبيين من بلادهم بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م ، وكان ذلك بعد وفاة الفقيه المتطبب ابن النفيس بحوالى ثلاث سنوات .

---

(1) المرجع السابق .

مراجع هذه الفترة :

١ – النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٦ – ٧ .
٢ – مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ .
٣ – السلوك للمقريزى ج ١ .
٤ – المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ج ٢ – ٣ .
٥ – تاريخ الخلفاء للسيوطى .
٦ – المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار للمقريزى .
٧ – النهج السعيد لمفضل بن أبى الفضايل .
٨ – بدائع الزهور لابن اياس ج ١ .
٩ – الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام لسعيد عبد الفتاح عاشور .
١٠ – دولة بنى قلاوون فى مصر تأليف محمد جمال الدين سرور .

الحياة العلمية والثقافية
أيام ابن النفيس

بالرغم من الحروب الطاحنة ، والفتن والقلاقل التى عانت منها مصر والشام فى عصر سلاطين المماليك الذين ورثوا ملك البطل العظيم صلاح الدين ومن جاء بعدهم من المماليك البحرية ، إلا أنه كان لهذا العهد نواح أخرى مشرقة ، مما كان له أكبر الأثر فى تكوين العلاء بن النفيس وغيره من علماء ذلك العصر ، وذلك لأنه كان امتدادا للعصر الفاطمى من الناحية الحضارية ، فقد عنوا جميعا بتشجيع العلم والعلماء والأدباء ، ولم يدخروا وسعا فى ذلك ، وكما بنى الفاطميون الأزهر وغيره من المساجد لنشر التعاليم الفاطمية وغيرها من العلوم ، فقد عنى الأيوبيون والمماليك ببناء البيمارستانات والمساجد التى لا تزال شاهدة على ما بذل بسخاء فى تشييدها وعلى النهضة المعمارية والذوق الفنى الرائع ، وأقاموا المدارس التى كانت تشبه الجامعات فى عصرنا هذا ، وكان يقوم بالتدريس فيها صفوة المتخصصين من الشيوخ فى العلوم الدينية وغير الدينية ، وكان بعضها يقتصر على تدريس أحد مذاهب أهل السنة ومن أمثلتها المدرسة المسروية التى جلس فيها العلاء بن النفيس يدرس الفقه الشافعى ، وكانت المذاهب الأربعة لأهل السنة تدرس فى بعض المدارس الأخرى مثل المدرسة الصالحية التى افتتحها نجم الدين أيوب بالقاهرة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) ، وكانوا يوقفون الأوقاف الكثيرة على كل هذه المساجد والمعاهد العلمية حتى يضمنوا لها الاستمرار فى أداء رسالتها ، وكانت كلها بما فيها الأزهر ، تبذل أقصى الجهود للقضاء على التشيع والتعاليم الفاطمية ، ونشطت لذلك كله الحياة الفكرية والأدبية

والعلمية ، وقامت فى القاهرة ودمشق وغيرهما من المدن نهضة عظيمة هى النهضة الثانية فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .

وكانت الحروب والكوارث التى ابتليت بها البلاد الإسلامية فى هذين القرنين على أيدى الصليبيين فى سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقية ، وما كان منها على أيدى المغول شرقى بلاد المسلمين ، كانت تلك الحروب والكوارث سببا فى شعور كثيرين من علماء المسلمين وأتقيائهم بعقدة الذنب ، ولذلك اعتقد الكثيرون منهم ، ومن بينهم ابن النفيس أن ما حلّ بالمسلمين من ذلك كان بسبب غضب الله سبحانه عليهم لعدم تمسكهم بالدين الإسلامى الحنيف ، وعدم التزامهم بشريعته التى تحض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولإغراقهم فى الملذات التى نهى الله عنها ، وقد خصص ابن النفيس لشرح هذا الشعور الفصل الثالث من الفن الرابع من « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » تحت عنوان « فى كيفية تعرف كامل المعاصى التى لابدّ وأن تقع لملّة هذا النبى عليه الصلاة والسلام » ، كما خصص الفصل الرابع من هذا الفن لبيان : « كيفية تعرف كامل لما يحدث لملّة هذا النبى لأجل عصيانهم من العقوبة » .

وانتشر الشعور بعقدة الذنب أيضا فى هذين القرنين بين جميع الناس من جميع الطبقات فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان لنشاط دعاة المتصوفين أثره الكبير فى ذلك ، وقد اكتسب الكثيرون من هؤلاء الدعاة شعبية كبيرة ، ولكن بعض غلاة هؤلاء الدعاة أسرفوا فى الدعوة لنظريات بعيدة عن ظاهر الشرع الحنيف والسنة[1] ، فقد دعا بعضهم إلى نبذ الحياة الدنيوية ، والتفرغ للعبادة والإنصراف عن العمل لكسب الرزق وقد تصدى لهم الكثيرون من الفقهاء والحفّاظ الذين عارضوا هذه الدعاوى ،

(١) ضربنا أمثلة لذلك عند مقارنة رسالة « حى بن يقظان » « بالرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

التى تؤدى إلى خراب العالم الإسلامى إذا انتشرت بين الناس ، وكان من الذين عارضوا ذلك ابن النفيس فهو يقرر أن الإنسان مدنىّ بطبعه ، ويجب أن يعيش فى جماعة يتعاون أفرادها كما يذكر أن « كامل » « علم أن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعى واحتياجه إلى غذاء صناعى ، وملبس صناعى ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه بل لابد وأن يكون مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم أن يزرع ، وللآخر أن يخبز ، وللآخر أن ينقل المادّة وللآخر أن يخيط الثوب ونحو ذلك »[1] ، وعندما يتكلم ابن النفيس عن : « المعاملات التى يشرعها النبى صلى الله عليه وسلم » يدافع عن مبدأ العمل لكسب الرزق ، وأن النبى يجب أن يفرض ذلك فيقول إن النبى : « يجب أن ينهى عن الظلم وأخذ المال بغير حق وبالباطل ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، [وعن] كل أمر يؤدى إلى الاستغناء عن نفع الناس وإلى القناعة بالبطالة ، فيجب أن يكون اجتماع الناس على وجه يكون لكل واحد نفع ، فلا يكون فيهم من لا نفع له إلا أن يكون عاجزا بمرض ... »[2] .

ومن الجدير بالذكر أن الصوفية التى انتشرت فى مصر ابتعدت عن العناصر غير الإسلامية التى اختلطت بالتصوّف فى البلاد الإسلامية الأخرى ، فلم تنتشر فيها نظرية وحدة الوجود ولا مبدأ الحلول أو الاتحاد ، فقد عنى التصوف المصرى بالجانب العملى الخلقى ، ولم يرض المصريون عن المتصوفين الذين غالوا فى تصوفهم وأسرفوا فى الدعوة لنظريات أثير حولها بعض الشبهات[3] ، ولذلك أعرضوا عن محيى الدين بن عربى[4]

---

(١) الفصل الثالث من الفن الأول من « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

(٢) الفصل الثانى من الباب الثانى من الفن الثالث من الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية .

(٣) انظر ابن عطاء الله السكندرى تأليف أبى الوفا التفتازانى ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) القاموس الإسلامى جـ ١ ، ص ٤٩٥ .

(ت ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠م) وعن عفيف الدين سليمان التلمساني[١] (ت ٦٩٠ هـ = ١٢٩١م) الذى دعا إلى طريقة شيخه جلال الدين قونوى المشهور باسم جلال الدين الرومى (٦٧٢ هـ = ١٢٧٣م).

وقد عاصر ابن النفيس الكثير من كبار المتصوفين وأقطابهم الذين وفدوا على مصر أو نشأوا بها، وكان لهم أثرهم الكبير فى تطوير التصوف ونشره فى مصر، ففى عصره وفد على مصر السيد أحمد البدوى[٢] (ت ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦م) صاحب الطريقة الأحمدية، ونشأ فى مصر فى زمنه السيد ابراهيم الدسوقى القرشى (ت ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧م) صاحب الطريقة البرهامية، وكذلك وفد على مصر فى مستهل القرن السابع الهجرى الشيخ أبو الفتح الواسطى ودعا إلى الطريقة الرفاعية، والشيخ أبو الحسن الشاذلى[٣] (ت ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م) صاحب الطريقة الشاذلية ومريده أبو العباس المرسى[٤] الذى أذاع الطريقة الشاذلية بمصر، وابن عطاء الله السكندرى[٥] الذى ألّف الكتب فى آداب الطريقة الشاذلية. وقد انتشرت طرق هؤلاء الأقطاب ودخل فيها بعض سلاطين المماليك وأمرائهم وكثير من الأعيان والأثرياء.

وقد كان من أثر محاولة نشر الآراء المسرفة فى الدعوة لنظريات فلسفية تصوفية مبنية على أسس ومبادىء غير إسلامية خارج مصر وبخاصة فى الشام حيث أقبل عليها كثير من الشباب هناك، ـــ كان من أثر

---

(١) فوات الوفيات للكتبى جـ ١ ص ١٧٨ والقاموس الإسلامى جـ ١ ص ٦٢١، ومفتاح السعادة جـ ٢ ص ٢٨٥.

(٢) سعيد عاشور: السيد أحمد البدوى.

(٣) القاموس الإسلامى جـ ٤ ص ٥ – ٧، وعبد الحليم محمود: أبو الحسن الشاذلى.

(٤) القاموس الإسلامى جـ ٥ ص ٦٦ – ٦٨ وانظر أبو الوفا التفتازانى: ابن عطاء الله السكندرى ص ٦٣.

(٥) القاموس الإسلامى جـ ٥ ص ٤٠٥، وانظر أبو الوفا التفتازانى: ابن عطاء الله السكندرى.

ذلك ــ أن هبّ كثير من الفقهاء والمحدثين فتصدوا لأصحاب تلك الآراء ، وهاجموهم هجوما يتسم بعضه بالعنف الشديد ، ويمتاز بعضه بالهدوء والمنطق الذى يتحلى به الشيوخ الراسخون فى العلم ، وكان ابن تيمية[1] (٦٦١ - ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) على رأس الذين اتخذوا العنف فى مهاجمة غلاة المتصوفين وشطحات بعض أصحاب الطرق الصوفية وتعاليمهم ، ولاقى فى سبيل ذلك الكثير من الاضطهاد ، فقد بدأ يدافع عن السنة وآراء السلف الصالح منذ باكورة شبابه بأدلة لم يسبق إليها ، ومن أمثلة عنفه تلك الخصومة بينه وبين عطاء الله السكندرى مع ما هو معروف عن هذا المتصوف من الالتزام بالشرع الحنيف[2] .

وكان من الفقهاء الذين دعوا للتمسك بالدين الإسلامى وشريعته فى سماحة ، « المزى ، يوسف بن عبد الرحمن الكلبى[3] (٦٥٤ - ٧٤٢ هـ) إمام الحُفّاظ وحامل راية السنة والجماعة وشيخه النابلسى ، عبد المنعم بن يحيى مفتى وخطيب المسجد الأقصى (ت ٦٨٧ هـ) ، وكان على رأس الفريق الداعى إلى اتباع الشريعة الإسلامية وتطبيقها فى الحياة الاجتماعية الإمام الناسك سلطان العلماء العز بن عبد السلام (٥٧٨ - ٦٦٠ هـ = - ١٢٨٨ م) « شيخ الإسلام علما وعملا ، وورعا وزهدا ، وتصانيف وتلاميذ[4] وقد « بلغ مرتبة الاجتهاد وقصده الطلبة من البلاد ، وتخرج به أئمة ، وله الفتاوى السديدة »[5] وقد عاصر

---

(١) تقى الدين أبو العباس ، انظر ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ط بولاق جـ ١ ص ٣٥ ، والسبكى : الطبقات ط القاهرة ١٣٢٤ هـ جـ ٥ ص ١٨١ - ٢١٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله ص ٦٧ - ٦٩ .

(٣) مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) طبقات الشافعية تأليف جمال الدين عبد الرحيم الأسنوى ت ٧٧٢ هـ تحقيق عبد الله الجبورى ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٥) فوات الوفيات .

هذا الإمام أواخر الدولة الأيوبية وحُكم أربعة من سلاطين المماليك كان آخرهم الظاهر بيبرس ، وكان لا يخشى فى فتاواه السلاطين والأمراء ولذلك كانت له مواقفه فى دفع الظلم ومحاربته ، ومن أمثلة ذلك ثورته على الصالح اسماعيل الأيوبى حاكم دمشق عندما تحالف مع الصليبيين ضد أخيه الملك الصالح أيوب وتنازل لهم سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م عن القدس وطبرية وعسقلان ، فقد اعتلى سلطان العلماء منبر المسجد الأموى وشرح هذه الخيانة التى أملاها الحقد والطمع ، وكان نصيبه السجن ، ولما أفرج عنه ذهب إلى القاهرة فرحب به الملك الصالح أيوب وأكرمه ، وولاه الخطابة فى المسجد العتيق والقضاء بمصر والوجه القبلى فقام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولم يمنعه هذا الإكرام لشخصه من أن يغلظ للسلطان عندما كثر ظلم مماليكه للشعب « فلما خرج من عنده قيل له ألم تخفْ من أذاه لك ؟ فقال : استحضرت عظمة الله تعالى فصار قدامى أحقر من قط »[1] .

عاصر ابن النفيس سلطان العلماء نحوا من ٢٨ عاما عاشها شيخ الإسلام فى القاهرة ، ورآه عندما تغالى أمراء المماليك فى جمع الأموال من الشعب لمحاربة التتار (سنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م) زمن السلطان « قطز » فقد تصدى لهم شيخ الإسلام وأفتى أنه لا يجوز لهم أن يجمعوا المال من الشعب إلا إذا نفد كل ما هو موجود فى بيت المال ، وأن يبيع أمراء المماليك كل ما يملكون من آلات الزينة الذهبية التى يحلون بها أنفسهم وآلاتهم وخيولهم ويقتصر كل واحد منهم على ما يلزمه من سلاح وما يركب من دابة ، وبذلك يتساوى عامة الشعب مع السلطان والأمراء فى الإنفاق لدفع خطر الغزاة عن بلاد المسلمين »[2] .

---

(١) الأسنوى : طبقات الشافعية السابق ذكره .

(٢) القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله جـ ٥ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

وعاصر ابن النفيس سلطان العلماء وهو « يدافع عن احكام الشريعة بالنسبة للشروط الواجب توافرها فى تولية أولى الأمر ، فقد امتنع عن مبايعة الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م لأنه رقيق من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى ، فمن ثم لا تجوز ولايته ، ولم يبايع حتى ثبت له أن البندقدارى باع بيبرس إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أعتقه بعد ذلك »[1] .

ومع شدّته مع السلاطين وأمراء المماليك كان شيخ فقهاء عصر ابن النفيس متواضعا للعلماء والمتصوفين الذين يلتزمون باتباع تعاليم الإسلام ، ومن ذلك أنه عندما عاد الشيخ أبو الحسن الشاذلى من الحجاز قابله العز بن عبد السلام « فى موضع يقال له البركة يبعد عن القاهرة بستة أميال »[2] . ولهذا الإمام الناسك عدة مؤلفات طبع بعضها فى الفقه والتصوف وعلوم القرآن .

ولا شك أن ابن النفيس تأثر كثيرا بسلطان العلماء ، فقد كان لابن النفيس من الطبّ رزق وفير ، ومركز مرموق ، ولكنه لم يكتف بذلك وجلس لتدريس الفقه الشافعى بنفس الهمة والغيرة التى يعلم الناس بها الطب ، ثم كتب « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » دفاعا عن العقيدة الإسلامية وما تدعو إليه من المبادىء معارضا فى ذلك شيخ فلاسفة المسلمين « ابن سينا » ، والفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » والمتصوف المغرق فى تصوفه السهروردى المقتول ، وكلّ من سار على دربهم من الفلاسفة والمتصوفين .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٤٣ .

وأكثر الوعاظ والمتصوفون من توجيه اللوم إلى الشعب ، وغالوا فى بيان غضب الله على المسلمين لإبتعادهم عن تعاليم الدين الإسلامى ، وبالغوا فى تصوير إسراف الأغنياء فى اللهو والترف ، وكان لذلك أثره فى الحياة الاجتماعية فقد أقبل الناس من مختلف طبقات الشعب على الانضمام إلى الطرق الصوفية المختلفة ، وقد كان الفاطمون عندما أرادوا أن يتقربوا إلى الشعب قد أكثروا من الاحتفالات والمواكب فى المناسبات الدينية فكانوا يمدون الموائد ويقدمون فيها أنواعا كثيرة من الحلوى فى مناسبات كثيرة مثل رأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، وفى ذكرى المولد النبوى ، وقد حذا ملوك بنى أيوب حذوهم فى إحياء هذه الحفلات ، وورث ذلك عنهم سلاطين المماليك وقلدهم أمراؤهم وكثير من كبار الحكام ومن الأثرياء ، واشترك رجال الطرق الصوفية اشتراكا فعالا فيها ، فكانوا يقيمون حلقات الذكر ، وكان الأغنياء يتبرعون لهم بالذبائح التى تنحر فى تلك المناسبات حتى أصبح الشعب يعتقد أن ذلك لازم لاظهار محبتهم وولائهم للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته .

وكان لهذا التطور فى الحياة الاجتماعية أثره الكبير على الأدب العربى شعره ونثره ، وتألق كثير من الشعراء فى نظم القصائد الغرّاء فى مدح الرسول الكريم ، نذكر منهم على سبيل المثال : « ابن دحية » . الذى ألف سنة ٦٠٤ هـ لمظهر الدين كوكبرى صاحب مدينة إربل كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » وختمه بقصيدة عصماء فى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأجازه مظهر الدين بألف دينار ذهبا[1] ، وعاصر « ابن النفيس » من هؤلاء الشعراء المجيدين الكثيرين ، نذكر من بينهم

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٢٩ ، «والمدائح النبوية فى الأدب العربى لزكى مبارك» ص ٢٤٤ .

«علم الدين على بن محمد الهمذانى السخاوى النحوى»[1] (ت ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) صاحب القصائد السبع فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، والشاعر الكبير البوصيرى[2] (ت ٦٩٤هـ = ١٢٩٦م)صاحب قصيدة «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية» المشهورة باسم البردة لأنها تعارض قصيدة كعب بن زهير ، كما انتشر فى ذلك العصر شعر الزاهد الرقيق «عمر بن الفارض»[3] (ت ٦٣٢هـ = ١٢٣٥م) وكذلك انتشر شعر صديقه الزاهد ابن الخيمى[4] ، محمد عبد المنعم الأنصارى (٦٨٥هـ = ١٢٨٥م) ، وبلغ من حب المتصوفين لشعر ابن الفارض أن أقبلوا على شرح قصائده ، وكان من بين الشارحين المتصوف المشهور ابن عربى (ت ٦٣٨هـ) الذى قام بشرح تائية ابن الفارض[5] .

وازدان عصر ابن النفيس بنخبة ممتازة من اللغويين من أمثال «الجيانى ، جمال الدين محمد بن مالك الطائى[6] . (٦٠٠ - ٦٧٢هـ = ١٢٠٣ - ١٢٧٤م) إمام اللغويين فى عصره، وابن الحاجب جمال الدين أبو عمر[7] الفقيه اللغوى الذى تجرأ وامتنع عن ذكر إسماعيل الصالح الأيوبى فى الخطبة فى الجامع الكبير بدمشق عندما تنازل للصليبيين عن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ ٥ ص ١٢٦ ، وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٩ وبروكلمان جـ ٥ ص ٨١ - وحسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٥ ص ١٤٩ - ١٥٣ ، وبروكلمان ج ٥ ص ٦٧ - ٧٧ .
(٤) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٥) بروكلمان جـ ٥ ص ٧١ .
(٦) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٢٧ وطبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ٢٨ .
(٧) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٧ ، وبغية الوعاة ٣٣٣ .

صفد وقلعة شقيف (ت ٦٤٦هـ= ١٢٤٩م) ؛ كما عاصر اللغوى والأديب الكبير ابن منظور المصرى[١] ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ = ١٣١١م) صاحب أكبر المعاجم العربية ، وهو الذى اختصر كثيرا من أمهات كتب الأدب مثل كتاب الأغانى وكتاب العقد الفريد ؛ وكذلك عاصر الشاعر الرقيق « بهاء الدين زهير »[٢] (ت ٦٥٦ هـ= ١٢٥٦م) الذى تعلق بحب مصر ، وله قصائد غنائية رقيقة وأخرى فى المزاح وقد تحرر شعره من كثير من قيود الشعر القديم .

وعاصر ابن النفيس الكثير من كبار المؤرخين وكتاب التراجم نذكر من بينهم : سبط ابن الجوزى ،[٣] (ت ٦٥٤ هـ= ١٢٥٦م) شمس الدين ، وقد توفر على التاريخ والسير . ومن أشهر مؤلفاته « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » وكتاب « منتهى السول فى تاريخ الرسول » . أما الفقيه المؤرخ « شهاب الدين أبو شامة[٤] (ت ٦٦٥ هـ= ١٢٦٧م) فهو صاحب كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين» وكتاب «الذيل على الروضتين »[٤] ، والأديب المؤرخ القفطى ، على بن يوسف الشيبانى[٥] (ت ٦٤٨ هـ= ١٢٤٨م) وهو الذى تولى الوزارة زمن الملكين : العزيز والناصر ، وقد ألف عدة كتب نذكر منها فى تراجم العلماء «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» وكذلك كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » وله أيضا «أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين» ، وعاصر

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة والمدخل للدراسات العربية جـ ٢ ص ١١٤ - ١١٥ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣) القاموس الإسلامى جـ ١ ص ٦٥٨ - كتاب الروضتين مطبوع وكذلك ذيل الروضتين ، وانظر الموسوعة العربية الميسرة .

(٤) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٥ .

(٥) انظر مقدمة إنباه الرواة طبع دار الكتب ، وكذلك الموسوعة العربية الميسرة .

كذلك القاضى ابن خلكان[1] قاضى قضاة دمشق (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) صاحب كتاب «وفيات الأعيان» ، والقاضى المؤرخ ابن واصل[2] مؤلف كتاب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» وهو جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٨ م) وله أيضا كتاب «تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى» ، وكذلك مؤلف كتاب «تحرير الأحكام فى تدبير الإسلام» وهو ابن جماعة[3] ، بدر الدين الكنانى الحموى (ت ٦٣٩ - ٧٣٣ هـ = ١٢٤١ - ١٣٣٠ م) .

---

(١) انظر مقدمة وفيات الأعيان ، ودائرة المعارف الإسلامية والموسوعة العربية الميسرة .

(٢) الموسوعة العربية ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) القاموس الإسلامى جـ ١ ص٦٢٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

ما وصل إلينا من مؤلفات ابن النفيس في العلوم والفنون ما عدا الطب

١ - كتاب « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية » في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو هذا الكتاب الذى نقدمه بين يديك محققاً ومعلقاً عليه ، وكما سنبين فيما بعد ، فإن الكتاب عرف بعنوان آخر هو « فاضل بن ناطق » . والكتاب يشبه أن يكون رسالة فى علم الكلام قال عنها المؤرخ الصفدى : « وقد رأيت له كتابا صغيرا عارض به رسالة « حيّ بن يقظان لابن سينا » ووَسَمَه بكتاب « فاضل بن ناطق » انتصر فيه لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع والبعث الجسمانى وخراب العالم . ولعمرى لقد أبدع فيها ودلّ على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه فى العلوم العقلية »[1] ولعل هذا الدفاع عن مذهب أهل الإسلام هو السبب الذى جعل بعض المستشرقين يقدحون فى هذه الرسالة وفى مؤلفها ، حتى وصفه « سارتون » فى كتابه : الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين بقوله : « ونتج عن ذلك أن بعض هؤلاء ظلوا يقبلون على علاتها قصة خيالية كتبها على بن أبى الحزم بن النفيس وجعل عنوانها : « فاضل بن ناطق » تقليدا لقصة « حيّ بن يقظان لابن طفيل » . وكتب ابن طفيل قصته المعقولة فى وقت كان الإسلام لا يزال سائداً سياسياً أما ابن النفيس الذى توفى بعد قرن من وفاة ابن طفيل ، فإنه كان طليعة من طلائع التقهقر حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم

---

(١) نقلا عن ترجمة ابن النفيس فى مسالك الأبصار للعمرى (ت ١٣٨٤ م) .

بالنمو ... »[1] ثم قال فى نهاية هذا النقد أن المستشرق يوسف شاخت عثر على نسخة من هذا الكتاب فى مكتبة خاصة فى استانبول ، وأنه يعمل فى طبعه مع ترجمة موجزة له بالانجليزية .

٢ - كتاب فى أصول الحديث بعنوان : « مختصر فى علم أصول الحديث » وهو مخطوط ، برقم ٢٠٩ مجاميع فى دار الكتب بالقاهرة..

وهناك كتب أخرى ورسائل ذكرتها بعض كتاب التراجم ، ولكنها لم تصل إلينا ، ولعل العناية بالبحث عن المخطوطات العربية وإعادة دراسة الموجود منها يمهّد لنا سُبُل العثور على بعضها ، ونحن نذكر منها على سبيل المثال :

(ا) ذكرت بعض المصادر أن ابن النفيس ألف كتابا فى الفقه شرحا على أول كتاب « التنبيه فى الفقه الشافعى للشيرازى » ولكنه لم يصل إلينا .

(ب) ذكرت بعض المصادر أنه صنف فى الفلسفة شرحا لكتاب : « الإشارات » وكتابا آخر شرح فيه كتاب « الهداية فى الحكمة » وكلاهما من تأليف ابن سينا ، ولكنا لم نهتد إليهما بعد .

(جـ) كتاب « طريق الفصاحة » ذكره البغدادى فى كتاب « هدية العارفين فى أسماء المؤلفين » كما ذكر كتاب التنبيه ، ولعله رآهما فى استانبول .

---

(١) ص ٤٩ من الترجمة العربية وانظر ابن النفيس لبول غليونجى ص ١٠٦ .

الطب فى عصر ابن النفيس

كان للنهضة الحضارية العربية الاسلامية الثانية التى تكلمنا عنها ، وهى التى ورثها الأيوبيون والمماليك عن العصر الفاطمى ، كان لها أثرها الكبير فى ازدهار الطب فى مصر والشام ونبوغ الكثيرين من الأطباء وبخاصة فى القاهرة ودمشق ، وكان من مظاهرها إنشاء البيمارستانات مثل البيمارستان « النورى » الذى أنشأه نور الدين محمود بدمشق فى القرن السادس الهجرى والمكتبة العامرة التى ألحقها به ، والبيمارستان الناصرى الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة سنة ١١٨١ م ، وكانت هذه البيمارستانات مستشفيات يعالج فيها المرضى ، وتصرف لهم الأدوية ، وتجرى عليهم الأرزاق ، وكان بعضها يصرف لهم الثياب ، كما كانت أماكن لتعليم الطب وتدريب الأطباء .

وكان فى دمشق عند نشأة ابن النفيس نخبة ممتازة من الأطباء نذكر من بينهم الرحبى ، رضى الدين (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) صاحب كتاب « خلق الانسان وهيئة أعضائه[١] .

وتلميذه الدخوار ، مهذب الدين عبد الرحيم بن على (٥٦٥ - ٦٢٨ هـ / ١١٧٠ - ١٢٣٠ م) الذى انتهت إليه صناعة الطب ومعرفتها فى زمانه ، وولاه السلطان الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين رياسة أطباء مصر بأسرها وأطباء الشام[٢] ، وكانت له رياسة البيمارستان النورى بدمشق وينسب إليه شرح كتاب : « تقدمة المعرفة فى

---

(١) القاموس الاسلامى لأحمد عطية الله ، جـ ٢ ص ٥٠٦ وكتاب « ابن النفيس لغليونجى ص ٧٩ - ٨٠

(٢) ابن أبى أصيبعة جـ ٣ ، ص ٣٩٠ .

الطب » من كتب أبقراط المنقولة الى العربية ، وله مختصر كتاب « الحاوى فى الطب لأبى زكريا الرازى »[1] .

ونبغ فى الشام أيضا « عمران الإسرائيلى » الذى كان يزاول مع الدخوار العمل فى البيمارستان النورى (٥٦١ – ٦٣٧ هـ = ١١٦٥ – ١٢٣٩ م) ، وكان من أبرع أطباء عصره ، وشفى على يديه كثير من الأمراء والمرضى الذين أصيبوا بأمراض مستعصية[2] .

تعلّم ابن النفيس الطب على كِبر على يد هؤلاء الفحول من الأطباء ، ومارس الطب تحت إشرافهم فى البيمارستان النورىّ ، وكان أكثرهم تأثيرا فيه أستاذه « ابن الدخوار » ، ثم انتقل الى مصر هو وبعض معاصريه من الأطباء السوريين نذكر من بينهم زميله ومعاصره ابن أبى أصيبعة . وفى القاهرة عمل فى البيمارستان الناصرى الذى كان قد أنشأه صلاح الدين الأيوبى سنة ١٢٧١ م ، واستمر يعمل فيه حتى أسس « ابن قلاوون » البيمارستان المنصورى سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٤م وأدخل فيه كل مبتكر ، وقد وصفه المقريزى وصفا رائعا ، كما وصفه ابن بطوطة وبقى قائما الى أيام حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ م[3] ، وقد رأى المنصور قلاوون أن يسند رياسة هذا البيمارستان الى ابن النفيس ثقة منه فى كفايته وقدرته على النهوض به ، فقام بتأدية هذه المهمة على خير وجه وأوقف عليه مكتبته العظيمة وقصره الكبير .

وعاصر ابن النفيس فى مصر الكثيرين من الأطباء المشهورين نذكر من بينهم شيخ العشابين ابن البيطار ، أبو محمد ضياء الدين عبد الله

---

(١) القاموس الإسلامى جـ ٢ ص ٣٥ .
(٢) ابن النفيس تأليف د. بول غليونجى ص ٧٩ – ٨٣ .
(٣) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة بيمارستان .

(٥٧٥ – ٦٤٦ هـ/ ١١٩٧ – ١٢٤٨ م) الذى بنى طريقته فى ممارسة الطب على دراسة أعشاب شمال أفريقية ومصر وسوريا وآسيا الصغرى ومعرفة خواصها ، وتجربة استعمالها فى مداواة جميع أنواع الأمراض وتغذية المرضى[١] ، وقد توجه إلى القاهرة فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ – ١٢٤٩ م) وعينه رئيسا لجميع العشابين ، وقد ألف ابن البيطار كتابه : «جامع مفردات الأدوية والأغذية» المعروف أيضا باسم «الجامع الكبير» وأهداه إلى الملك الصالح ، وهو مجموعة من العلاجات البسيطة المستخلصة من النباتات والحيوانات أو المعادن[٢] ؛ وقد بقى هذا الكتاب مرجعا هاما اعتمد عليه العشابون والأطباء وامتدحوه ، وطبع أكثر من مرة من بينها طبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ ، وقد اختُصر هذا الكتاب وعلق عليه وترجم إلى اللاتينية فكان له أثره فى تقدم الطب وطرق المعالجة فى أوربا فى نهاية العصور الوسطى[٣] ، كما ترجم بعد ذلك فى العصر الحديث إلى التركية والألمانية والفرنسية ، وقد عمل ابن البيطار فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة زميلا لابن النفيس .

وكذلك عاصر ابن النفيس «كوهين العطار الاسرائيلى الهارونى» الذي ألف سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م فى القاهرة كتاب : «منهاج الدكان ودستور الأعيان» قدم فيه إلى الصيادلة كتابا أوسع من الدستور البيمارستانى لداود بن البيان الذى كان يستعمل فى مستشفيات مصر والشام والعراق ، وقد طبع فى القاهرة مرارا ، ولا يزال متداولا لدى عطارى الشرق الأوسط[٤] .

---

(١) موجز تاريخ الصيدلة إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جـ ٢ ص ٤١٤ – ٤١٧ .

(٢) تاريخ الصيدلة والطب العربى منذ نشأته حتى العصور الحديثة لسامى خلف حمارنة القاهرة ١٩٦٧ ، جـ ١ ص ٣٨ – ٤١ جـ ١

(٣) د. سامى خلف حمارنه : المرجع السابق .

(٤) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، جـ ٢ ص ٤١٨ .

وعاصر كذلك السديد الإسرائيلي : سديد الدين أبو الفضل داود ابن سليمان بن اسرائيل (٥٥٦ – ٦٣٦ هـ/ ١١٦٠ – ١٢٣٨ م) الذى برع فى تركيب الأدوية ومعرفة مقاديرها وأوزانها ، ودخل فى خدمة السلطان العادل وله كتاب : «الأقرباذين فى الأدوية المركبة»[1] وقد خدم مع ابن النفيس فى البيمارستان الناصرى .

وعاصر ابن النفيس فى القاهرة من أصدقائه وزملائه الكثير من الأطباء النابهين نذكر من بينهم المهذب رشيد الدين بن أبى حليقة أحد رؤساء الأطباء بمصر (٥٩١ – ٦٦٠ هـ/ ١١٩٥ – ١٢٦٢ م) مؤلف كتاب : «المختار فى ألف عقار»[1] ، وكذلك عاصر شرف الدين بن صغير[2] .

---

(١) القاموس الإسلامى : جـ ٣ ص ٢٨٦ (١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤١ .
(٢) ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء المعروف باسم معجم الأطباء لأحمد بك عيسى ص ٢٩٥ .

فضل العلاء بن النفيس فى تطوير الطب وطرق العلاج

كان للبيئة العلمية التى أظلت ابن النفيس ، ولأساتذته وزملائه من الأطباء النابهين الذين كانوا يبذلون أقصى ما يستطيعون لمداواة المرضى والحدّ مما يعانونه من آلام وأوجاع عن طريق البحث فى تركيب الأدوية ، وتقديم الأغذية ، واستعمال الأعشاب فى تطبيب المرضى ، ومحاولة الوصول إلى أحسن طرق العلاج والتغذية ، كان لذلك أثره الواضح فى ابن النفيس ، ولكن أكثر أطباء عصره كانوا يحصرون بحوثهم ومحاولاتهم فى دائرة محدودة لا يتخطونها وهى آراء الطبيب اليونانى القديم جالينوس صاحب المؤلفات العديدة[1] وكذلك آراء كبار الأطباء المسلمين الذين اتبعوه بعد ترجمة مؤلفاته إلى العربية وعلى رأسهم الرئيس الفيلسوف ابن سينا . أما ابن النفيس فقد كان واسع الاطلاع ، قوى الذاكرة ، يهتم بنقد ما يقرأ من كتب الأقدمين ، ولذلك كان مستقل التفكير ، وكان يعتمد فى ممارسة الطب على بحث ما خلّفه الأقدمون بعد نقده نقدا مبنيا على التجربة العملية والملاحظة المباشرة لمرضاه ، وعلى علم التشريح الذى كان يباشره سرا ، ولذلك توصل إلى آراء ونظريات سديدة خالف فيها آراء جالينوس حتى وصفه بالعىّ والاسهاب الذى ليس تحته طائل ، وكان فى الوقت نفسه يحترم آراء بقراط[2] ولذلك اهتم بشرح كتبه كلها وعمل

(١) طبيب يونانى (١٣٠ - ٢٠٠ م) درس فى بلاد اليونان ، وآسيا الصغرى والاسكندرية وينسب إليه حوالى ٥٠٠ مؤلف فى الطب والفلسفة ، وبقى منها ثلاثة وثمانون فى الطب ، وظل حتى القرن السادس عشر الميلادى مرجعا مسلّما به لا يجرؤ أحد على مخالفته مما أعاق تقدم الطب (الموسوعة العربية الميسرة) وكان ابن النفيس من أوائل الذين خالفوه فى القرن الثالث عشر الميلادى .

(٢) طبيب يونانى (٤٦٠ - ٣٧٠ ق. م) فصل الطب عن الغيبيات والخرافات ، وأقامه على أساس علمى ولذلك يعرف بأبى الطب . تُرجمت كتبه إلى شتى اللغات . ونُقل كثير منها إلى اللغة العربية وأضافوا إليها شروحا وتفاسير فى بداية عصر الترجمة (الموسوعة العربية الميسرة) .

لأكثرها شرحين مطول ومختصر[1] ولعله كان متأثرا فى ذلك برأى أستاذه عبد الرحيم الدخوار فقد عنى ابن النفيس بشرح كتاب «تقدمة المعرفة فى الطب من كتب بقراط» وكان هذا شرحا لشرح الدخوار ، ويتضح موقف ابن النفيس فى هذا المجال إذا قارنّا بين مسلكه وبين مسلك زميل آخر له كان من أكبر أطباء عصره وهو العماد النابلسى وعلى يديه هو وابن النفيس تخرج أكثر أطباء مصر والقاهرة ، فقد كان العماد النابلسى ، على عكس زميله ابن النفيس ، يعظم جالينوس ويحث تلاميذه على قراءة مؤلفاته والعمل بما جاء فيها[2] .

وقد نبغ الكثيرون من تلاميذ ابن النفيس نذكر من بينهم بدر الدين حسن أحد رؤساء الأطباء بمصر ، وأمين الدولة ابن القف صاحب كتاب فى الجراحة[3] وكذلك الطبيب السديد الدمياطى الحكيم ، أبى الفرج السكندرى ، وأبى الفرج ومن تلاميذه كذلك أبو الفرج بن صغير[4] .

وقد عنى ابن النفيس بشرح كتاب فى الطب من تأليف حنين بن اسحق فأحيى بذلك تراث طبيب من أوائل العرب النساطرة الذين حذقوا الطب والفلسفة فألف فيهما الكتب والمقالات ، وترجم الكثير من الكتب اليونانية القديمة ، وكانت له مدرسة عين له فيها الخليفة المتوكل مترجمين يترجمون من اليونانية ، وكان حنين يراجع ترجماتهم[5] .

واهتم ابن النفيس بشرح الكثير من مؤلفات الرئيس ابن سينا واعتبرها أحسن كتب الطب «وكان لا يشير على مشتغل بغير كتاب

---

(١) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات للخوانسارى .

(٢) مسالك الأبصار للعمرى .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن النفيس .

(٤) مسالك الأبصار ، وذيل عيون الأنباء السابق ذكرهما .

(٥) حنين بن اسحق ١٩٤ – ٢٦٠ هـ/ ٨١٠ – ٨٧٦ م فى بداية عصر الترجمة .

القانون ، وهو الذى جسَّر الناس على هذا الكتاب» . وقالت بعض المصادر إنه شرحه فى عشرين مجلدة شرحا حل فيه المواضع الحكمية ، ورتب فيه القياسات المنطقية ، والاشكالات الطبية ، ولم يسبق إلى هذا الشرح[1] ولكن لم يمنعه هذا الاكبار والتعظيم من نقد هذه المؤلفات ، وتصحيح ما جاء بها من أخطاء نشأت عن اتباعه لآراء جالينوس ، وكان نقده مبنيا على ملاحظاته أثناء ممارسة الطب ومدواة المرضى أكثر من أربعين عاما ، وعلى ما اكتشفه أثناء اهتمامه بتشريح جسم الحيوان والإنسان سرا[2] .

لقد انفق ابن النفيس جزءا كبيرا من حياته فى شرح كثير من أمهات الكتب بلغة واضحة وأسلوب هو السهل الممتنع ، وأعانه على ذلك اتقانه لكثير من العلوم ، وإجادته لفنون اللغة العربية ، وقد ذكرنا من قبل بعض ما قام بشرحه فى العلوم غير الطبية ، وقد ضرب بسهم وافر فى إتقان شرح كتب الطب شرحا بسَّط فيه الآراء والنظريات العلمية بحيث أصبحت واضحة أملم زملائه من الأطباء ، كما قرَّبها إلى الأطباء الناشئين ، وبذلك أعانهم على مزاولة مهنة الطب حيث أصبحت خيرمرشد لهم وبخاصة بعد قيامه بتصحيح ما جاء بها من أخطاء ، ولذلك انتشر الانتفاع بالكثير منها وامتد إلى عصرنا هذا ، إذ اهتم الممارسون بطبع بعضها وعم نفعها فى الشرق والغرب ، وكان ابن النفيس يدرك القيمة العلمية لمؤلفاته ، ولذلك أثر عنه قوله : «لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى بعدى عشرة آلاف سنة ما وضعتها»[3] ولعل هذا أحد الأسباب

---

(١) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات للخوانسارى ، وذيل عيون الأنباء لأحمد بك عيسى .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية «مادة ابن النفيس ، وكتاب» ابن النفيس تأليف بول غليونجى .

(٣) مسالك الأبصار للعمرى ، وروضات الجنات للخونسارى ، وذيل عيون الأخبار لأحمد عيسى .

التى جعلت مؤلفى كتب التراجم وجامعى الببليوغرافيا يذكرون : «أنه لم يكن على وجه الأرض مثله ، قيل ولا جاء بعد ابن سينا مثله ، وقالوا : كان فى العلاج أعظم من ابن سينا »(١) .

وقدم ابن النفيس للطب خدمة جليلة أخرى ، فقد كان أحد الأطباء الأفذاذ الذين هدتهم مطالعاتهم وتجاربهم إلى أن تنظيم غذاء المرضى أفيد لهم من الاعتماد فقط على تعاطى الأدوية ، ولذلك فقد كان من المعروف عنه أنه كان « لا يصف لمرضاه دواء ما استطاع أن يصف غذاء ، ولعله كان فى ذلك متأثراً بأحد أعلام أطباء المسلمين الذين قدموا للإنسانية أجل الخدمات وهو : أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (٢٤٠ - ٣٢٠ هـ / ٨٥٤ - ٩٣٢ م) صاحب كتاب « منافع الأغذية ودفع مضارها »(٢) فقد كان يعالج بعض الأمراض بالأغذية دون الأدوية اعتقادا منه أن نقصها كان السبب فى حدوث الأمراض(٣) كما يؤثر عنه قوله :

«إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة(٤) .

وهذه الطريقة فى علاج المرضى ومداواتهم بتنظيم تغذيتهم والاقلال من تعاطيهم الأدوية كلما أمكن ذلك ، فإنها ، وإن قبلها وارتاح إليها العلماء والمثقفون ، إلا أنها كانت لا تزال غريبة على عامة الناس فى عهد

---

(١) المراجع السابقة ، وكتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ ٥ ؛ وكذلك كتاب : مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ، طبعة القاهرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ .

(٢) القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ، جـ ٢ ، ص ٤٦٥ .

(٣) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، جـ ٢ ، ص ٣٩٨

(٤) المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٣٩٩ .

بن النفيس ، كما كانت سببا فى ثورة العشابين[1] عليه وعداوتهم له ، فقد كانوا هم الذين يحضرون الأدوية التى يصفها الأطباء ، وكان فى انتشار هذه الطريقة خطر كبير على أرباحهم الطائلة ولذلك نشطوا فى محاربته ، وأشاعوا عنه أنه بالرغم من علمه الوافر فإنه لا يحسن طرق العلاج ولا مداواة المرضى ، وانتشرت هذه الدعاية ضده حتى اعتقد بها بعض المتعلمين الذين كانوا قد اعتادوا تعاطى الكثير من الأدوية ، ويؤمنون بأثرها الفعال فى علاج الأمراض ، ولذلك رددوا هذه الشائعات ووردت فى بعض المراجع[2] ولكن المؤرخين أنصفوه فقد وصفه صاحب كتاب حسن المحاضرة[3] بقوله : العلامة علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى ، شيخ الطب بالديار المصرية ، وصاحب التصانيف الموجزة ... وأحد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط ، والذهن الحاذق بالمشاركة فى الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق » .

وجاء عنه فى النجوم الزاهرة : « الشيخ الطبيب علاء الدين المعروف بابن النفيس الحكيم الفاضل العلامة فى فنه ، لم يكن فى عصره من يضاهيه فى الطب والعلاج ... وانتهت إليه رياسة فنه فى زمانه ، وهو صاحب التصانيف المفيدة »[4] .

---

(١) العشابون هم المعروفون فى زماننا بالعطارين .

(٢) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات ، وذيل عيون الانباء .

(٣) السيوطى .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى وفيات سنة ٦٨٧ هـ .



مؤلفات ابن النفيس فى الطب

ما وصل إلينا منها وأماكن وجودها

١ - رسالة فى منافع الأعضاء ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة ضمن مجموعة برقم ٢١٧٣٣ ل .

٢ - كتاب « الشامل فى الطب » أجمعت كل مصادر البحث على أن ابن النفيس كان يعتزم تأليف كتاب شامل فى الطب فى ٣٠٠ سفر ، ولكنه لم يبيض منها سوى ٨٠ سفرا فقط أودعها فى مكتبته الخاصة التى أهداها للبيمارستان المنصورى بالقاهرة ، ولكنا لم نعثر عليها ، ويقول الزركلى فى كتاب الأعلام أنها موجودة الآن فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، ولا يوجد منها بدار الكتب بالقاهرة سوى قطع مخطوطة ، الأولى منها برقم ٦٨١ طب فى ١٣٨ ورقة ، والثانية برقم ٦٠٥٧ ل فى ١٩٢ ورقة ، والثالثة برقم ٢٠٩ طب ، والرابعة مصورة برقم ٤٢٣ طب تيمور فى ١٣٩ لوحة . وتوجد منه أجزاء فى مكتبة البودليانا برقم ٥٣٦ - ٥٣٩ .

٣ - « المهذب فى الكحل » وهو كتاب فى أمراض العين لا يزال مخطوطا ، وتوجد منه نسخة فى مكتبة الفاتيكان (Arabo 307) .

٤ - « شرح لمبادىء أبقراط » ويوجد مخطوطا فى كثير من مكتبات العالم ، كما توجد منه نسخة مطبوعة فى بلاد فارس سنة ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨١م .

٥ - « شرح تقدمة المعرفة لأبقراط » وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٩٦ طب .

٦ - « شرح فصول أبقراط » توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٦٥ طب .

٧ – الشروح الموسعة «لقانون ابن سينا فى الطب» مخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى .

٨ – «شرح تشريح القانون لابن سينا» وهو الكتاب الذى شرح فيه «ابن النفيس» الدورة الدموية الرئوية المسماة بالدورة الدموية الصغرى ، وكان بذلك أول من اهتدى إلى اكتشاف هذه الدورة الدموية .

٩ – «فصول مختارة من شرح تشريح القانون لابن سينا» وهو مطبوع وتوجد منه نسخة بدار الكتب برقم ١٨٧٠ طب .

١٠ – «موجز القانون لابن سينا» وهو أشهر كتب ابن النفيس وأكثرها تداولا منذ تأليفه ، فقد انتشر الانتفاع به فى بلاد المشرق كلها ، ولذلك عنى الكثيرون بكتابة شروح له أو حواش عليه ، وظل الأطباء فى الهند يعتمدون عليه إلى عهد قريب فطبع أول مرة سنة ١٨٢٨ ، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة فى شتى مكتبات العالم ، وتوجد منه فى دار الكتب بالقاهرة ثمانى نسخ مخطوطة ، ونسختان مطبوعتان برقم ١١٣٥ – ١١٣٦ طب ، وقامت لجنة احياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بنشره نشرة علمية محققة ، وقد صدر هذا عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م . وقد وصفه حاجى خليفة فى كشف الظنون بقوله : «كتاب معتبر مفيد ، هو خير ما صنف من المختصرات والمطولات ، إذ هو موجز فى الصورة لكنه كامل فى الصناعة ، منهاج للدراية ، حاو للذخائر النفسية ، شامل للقوانين الكلية والفوائد الجزئية جامع لأصول المسائل العملية والعلمية»[1] .

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ طبع الآستانة سنة ١٩٤٣ .

١١ - « شرح أوبئة أبقراط » مخطوط بمكتبة ايا صوفيا باستانبول برقم ٣٦٤٢ .

١٢ - شرح لكتاب « مسائل فى الطب » لحنين بن اسحق ، مخطوط محفوظ بمكتبة ليدن برقم ١٢٩٦ .

١٣ - رسالة فى منافع الأعضاء الإنسانية « مشتملة على معارف حقيقية ، ومعانى حكمية فى منافع الأعضاء الإنسانية ومواضعها ، وأوصاف بعضها من بعض ، وما يختص به الإنسان دون باقى ذوات الأنفس منها »[1] وهى مخطوطة فى ٢٨ ورقة مجموعة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٠٩ مجاميع..

---

(١) وجه الورقة الأولى من المخطوطة .



ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الرئوية

ذكرنا من قبل أن ابن النفيس كان يؤمن أن مؤلفات «الرئيس ابن سينا» هى أحسن كتب الطب ، وأنه كان لا يشير على ممارس الطب بغير كتاب «القانون» ، وأنه هو الذى جسَّر الناس على الانتفاع به فقد كان أكبر موسوعة طبية فى عصرها ، ولذلك أقبل «ابن النفيس» على كتابة علمة شروح لهذه الموسوعة ، منها شرح موسع نعرف أنه محفوظ بين مخطوطات مكتبة المتحف البريطانى بلندن . ولم يخصص «الرئيس ابن سينا» فى هذه الموسوعة قسما خاصا للتشريح ، ولذلك قام ابن النفيس بجمع الأجزاء التى تكلم فيها الشيخ الرئيس بن سينا عن التشريح فى كتاب واحد عنوانه «شرح تشريح القانون» وقال فى مقدمة هذا الشرح : «إن قصدنا الآن إبراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبى الحسن على بن عبد الله بن سينا ، رحمه الله فى التشريح فى جملة كتاب القانون ، وذلك بأن جمعنا ما قاله فى الكتاب الأول من كتاب القانون الى ما قاله فى الكتاب الثالث من هذه الكتب ، وذلك ليكون الكلام فى التشريح جميعه منظوما»[1] .

وكان كتاب القانون يحوى الكثير من آراء جالينوس وتعاليمه فى التشريح ، وكان الأطباء المسلمون حتى أيام «ابن النفيس» ينظرون الى آراء جالينوس التى أقرها الشيخ الرئيس ابن سينا على أنها مرجع أساسى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك ولا تجوز مناقشته ، كما أن تعاليم جالينوس ظلت كذلك تعتبر فى أوربا حتى القرن ١٦ الميلادى مرجعا مسلما به لا يجوز الشك فيما جاء فيه ، وقد أعاقت هذه النظرة تقدم الطب .

---

(١) كتاب ابن النفيس لبول غليونجى ص ١١٣ وكتاب «من أعلام الطب العربى لأبى الفتوح التوانسى ص ١٣٥

وصف الرئيس « ابن سينا » القلب ، كما وصفه من قبل جالينوس بأنه مكون من ثلاثة بطون بطنان كبيران وبطن كالوسط ليكون له مستودع غذاء يغتذى به ... ومعدن روح يتولد به ... ومعدن روح يتولد فيه ... ومجرى بينهما ، وذلك المجرى يتسع فيه عند تعرض القلب ، وينضم عند تطوله »[1] ثم يقول : « إن الدم يتولد فى الكبد ، ثم ينتقل منه إلى البطين الأيمن فى القلب ، ثم يسرى الدم فى العروق حتى يصل إلى مختلف أعضاء الجسم ليمدها بالغذاء والحياة ، فهما يقولان : إن بعض الدم يدخل فى البطين الأيسر عن طريق مسام موجودة فى الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذى يأتى من الرئتين ، ويطلقان على هذا المزيج « الروح الحيوى » الذى ينساب فى الشرايين إلى مختلف أجزاء الجسم ، ويؤيدان هذا ببعض الحقائق المشاهدة وهى عروق الموتى ترى عادة مملوءة بالدم فى حين أن الشرايين تكون خالية منه »[1] .

وكان ابن النفيس ، كما سبق أن ذكرنا ، يرفض التقليد ، ويهتم بنقد التعاليم والنظريات التى قررها من سبقه من الأطباء نقداً بناءً يرمي إلى الوصول إلى المعلومات الصحيحة ، وكان يبنى هذا النقد على تجاربه فى ممارسة الطب ، والملاحظة الدقيقة لمرضاه ومبلغ تأثرهم بطرق العلاج ، وما يقف عليه من نتائج عن طريق ممارسته للتشريح خفية ، فكان أن توصل بدقته النادرة فى البحث والتجربة والملاحظة ، وبعلمه الوافر ، وذكائه النادر إلى النظريات التالية :

أولا : « أخطأ ابن سينا فى قوله « إن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود فى تجويفه ، فقوله « ابن سينا » : ليكون له مستودع غذاء يتغذى به ، وجعله الدم الذى فى البطين الأيمن منه يتغذى

---

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جـ١/ ٨٩

القلب لا يصح ألبتة ، فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة فى جرمه»[1] وواضح أن ابن النفيس يشير بذلك إلى الشرايين الاكليلية « التاجية » وبذلك يكون ابن النفيس أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها[2] .

ثانيا : أن للقلب بطنين فقط ، أحدهما مملوء بمن الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين ألبتة ، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها ، والتشريح يكذب ما قالوه »[3] « والحاجز بينهما أشد كثافة من غيره ، لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح ، فقول من قال إن ذلك الموضع كثير التخلخل باطل لأن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطين الأيمن كما قررنا أولا »[4] .

ثالثا : وزاد ابن النفيس المعانى السابقة توضيحا بقوله : « إن الحاجز البطينى خال من المسام غير نضّاح ، وأن القلب لا يتغذى من الدم الذى تحويه تجاويفه بل من الأوعية الصغيرة المنبثة فى جوهره ، وأن الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويتصفى وينفذ إلى الشريان الوريدى ليصل إلى التجويف الأيسر من تجاويف القلب »[5] .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٩١

(٢) غليونجى : « ابن النفيس » ص ١٢٨ .

(٣) الموجز فى تاريخ الطب السابق : جـ ١ ص ٩٠ – ٩١ .

(٤) كتاب « من أعلام الطب العربى » لأبى الفتوح التوانسى ص ١٣٤ .

(٥) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الادارة الثقافية جـ ١ ص ٢٤٦ .

رابعا : ويتضح مما سبق أن ابن النفيس قد وصل إلى : «أن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء ، ثم ينتقل إلى البطين الأيسر» وبذلك أثبت أن الدم ينقى فى الرئتين ؛ وتلك هى الدورة الدموية الصغرى . وهذا الكشف العظيم الذى وصل إليه واستنبطه واضح فى كلامه عن تشريح الرئة والقلب ، فهو يقول فى تشريح الرئة : «وأما الرئة فهى مؤلفة من أجزاء أولها شعب القصبة ، الثانى شعب الشريان الوريدى ، والثالث شعب الوريد الشريانى»[1] .

وهكذا يذكر تاريخ الطب العربى لابن النفيس بالفخر والاعجاب كشفه للدورة الدموية الصغرى (الرئوية) ، فقد فطن ابن النفيس إلى أن اتجاه الدم ثابت ، وأن حركته ليست حركة مد وجزر كما كان يظن سابقا ، وقال بأن الدم يمرّ فى تجويف القلب الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ، ثم يعود من الرئة عن طريق الوريد الرئوى إلى التجويف الأيسر للقلب[2] ، وهذا هو أعظم اكتشاف فى فن التشريح أهداه العلماء العرب للحضارة الإنسانية .

وقد فوجئت الهيئات العلمية فى أوربا بما اثبته الطبيب المصرى الشاب ابراهيم التطاوى فى الرسالة التى قدمها لجامعة هايدلبرج بألمانيا ونال بها درجة الدكتوراه فى الطب سنة ١٩٢٤ ، فقد أثبت فضل ابن النفيس فى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية فى القرن السابع الهجرى

---

(١) من أعلام الطب العربى لأبى الفتوح التوانسى ص ١٣٢ .

(٢) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة الثقافة ، جـ١ ص ٢٤٦ .

الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك فى مؤلف بعنوان « شرح تشريح القانون » وأوضح أن هذا الكتاب موجود منه نسخ فى أكثر المكتبات الأوروبية الكبرى وفى كثير من المكتبات الكبرى المنتشرة فى أرجاء العالم ؛ ولكن بعض المستشرقين ، وكان أولهم الطبيب مايرهوف[1] ، الذى كان قد استوطن القاهرة ، نفوا علم الأطباء الأوربيين بما جاء فى الكتاب ، بدعوى أنه مخطوط مؤلف باللغة العربية ، وأنه لم يترجم إلى اللاتينية فى عصر النهضة الأوربية ، ورتبوا على ذلك أن ما وصل إليه الأطباء الأوربيون فى القرن السادس عشر الميلادى كان نتيجة للبحوث التى قاموا بها دون اطلاع على مخطوطة « شرح تشريح القانون » وعن غير استرشاد بآراء الطبيب العربى المسلم « ابن النفيس »[2] .

وقد تقدمت البحوث فى تاريخ الطب تقدما يسمح لنا أن نذكر أن ادعاء « مايرهوف » ومن تبعه من المستشرقين ليس صحيحا ، ونحن نوضح ذلك فيما يلى :

أولا : ثبت أن « أندريا ألباغو » *Andrea Alpgo* (١٤٥٠ – ١٥٢٢م) طاف فى الشرق الأدنى حوالى ثلاثين عاما ، أتقن فيها اللغة العربية وبعض العلوم الإسلامية ، وجمع بعض مخطوطات

---

(١) نلاحظ مع الأسف أن « مايرهوف » لم يكتف بنفى فضل ابن النفيس على الأوربيين فى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية ، ولكنه نزل عن المستوى الخلقى والعلمى الذى كان من الواجب أن يلتزم به ، فقد اخترع من خياله قصة حاول بها أن يحط من كرامة ابن النفيس ، فادعى أن « ابن النفيس » دس لزميله ومعاصره الطبيب « ابن أبى أصيبعه » حتى اضطره للهجرة من القاهرة ، ولذلك تعمد ابن أبى أصيبعه أن لا يذكره فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، وقد ثبت أن ذلك كان من خيال مايرهوف ، وأن ابن أبى أصيبعة ذكر زميله « ابن النفيس » فى نسخة مخطوطة غير النسخة التى طبع منها الكتاب بكل احترام واجلال . راجع كتاب « ابن النفيس لبول غليونجى ص ٧٠ – ٧٤

(٢) شرح د. غليونجى ذلك شرحا وافيا فى المرجع السابق وبخاصة فى الباب الثامن ص ١٤١ – ١٦١

التراث الإسلامى ، ولما عاد إلى إيطاليا قام بتدريس العلوم العربية بصفة عامة ، وفلسفة «ابن سينا» بصفة خاصة فى جامعة « بادوا » وقام بترجمة وتصحيح ما ترجم من قبل من أعمال « ابن سينا » إلى اللاتينية[1] ومن أهم ما ترجم من ذلك وقد نشر فى البندقية بعد وفاته :

١ - ترجمة مقالة «ابن سينا» فى النفس وتقاسيم الحكمة والعلوم ، ونشرت فى البندقية سنة ١٥٤٦[2] .

٢ - ترجم إلى اللاتينية كتاب «القانون لابن سينا» ونشر مطبوعات فى البندقية سنة ١٥٤٧ ، وتكرر طبع هذا الكتاب ونشره بعد أن أهملت ترجمة جيرار دى تريبونا لهذا الكتاب[3] وفى سنة ١٩٦٤ نشر hucpette ترجمة لحياة « الباغو » يقول الدكتور سامى حمارنة إنه : « يبدو لى من قراءة هذه الترجمة أن « الباغو » كان عارفا بكتابات وشروح ابن النفيس ومعجبا بها ، ولا شك أنه نقلها معه إلى إيطاليا ، وإلى نفس الجامعة التى تعلم فيها «وليم هارفى» قبل إعلانه المشهور عن الدورة الدموية سنة ١٦٢٢ م[4] .

ثانيا : بعد ست سنوات فقط من نشر الترجمة اللاتينية لكتاب « القانون لابن سينا» نشر « ميجيل سرفتوس» سنة ١٥٥٣ فى مجلة دينية

---

(١) اللغة اللاتينية هى اللغة التى ترجم إليها الكثير من الانتاج الفكرى الإسلامى مما كان سببا فى قيام النهضة الأوربية فى القرون الحديثة .

(٢) كتاب «المستشرقون» لنجيب العقيقى ، جـ ١ ص ٣٠٦ .

(٣) المرجع السابق

(٤) تاريخ الصيدلة والطب العربى منذ نشأته حتى العصور الحديثة لسامى حمارنه ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ ٢ ص ١٤ .

عن وجود مجار للدم بين القلب والرئتين[1] حيث ذكر أن « الشريان الرئوى يحمل الدم من بطين القلب الأيمن إلى الرئتين : والوريد الرئوى يحمله من الرئتين إلى أذين القلب الأيسر »[2].

ثالثا : فى سنة ١٥٤٠ عين « ريالدو كولومبو » أستاذا للجراحة فى جامعة بادوا[3] وهى نفس الجامعة التى كان يدرس فيها من قبل « أندريا الباجو » ، ثم كلف بتدريس التشريح فى هذه الجامعة ، وقام بعد ذلك بتدريس التشريح فى جامعة بيزا بإيطاليا (١٥٤٦ م) ، وانتقل منها إلى روما ، ونشر مؤلفه فى « التشريح » سنة ١٥٥٩ م ، أى بعد نشر ترجمة « الباجو » اللاتينية لكتاب « القانون لابن سينا » باثنى عشر عاما ، وقد وصف « كولومبو » فى كتابه ، وظيفة الصمامات وهى من دعائم نظرية الدورة الدموية ، كما وصف الدورة الرئوية وصفا صحيحاً[4] .

رابعا : فى سنة ١٥٩٧ رحل الطبيب الانجليزى هارفى *Harvey, W.* إلى « جامعة بادوا » حيث ظل يتعلم الطب حتى سنة ١٦٠٢ ، فلما عاد إلى انجلترا ألف كتابه عن حركة القلب والدم سنة ١٦٢٢ ، وادعى فيه أنه اكتشف الدورة الدموية .

يتضح من دراسة هؤلاء الثلاثة ، وهم أهمّ من تكلم عن الدورة الدموية الرئوية من ناحية أو أكثر ، يتضح أن هناك تسلسلا متصل الحلقات بين قيام « ألباجو » بالتدريس عن « ابن سينا » بعد عودته من

---

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة الثقافة جـ١ ص٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أنشئت حوالى سنة ١٢٢٢ . وكان بها كلية للطب والجراحة .

(٤) كتاب « ابن النفيس » د. بول غليونجى .

الشرق الأدنى فى جامعة بادوا وتصحيحه لما ترجم قبله من مؤلفات ابن سينا إلى اللغة اللاتينية ، ونشر ترجمة « ألباجو » لكتاب « القانون لابن سينا » فى عدة طبعات ابتداء من سنة ١٥٤٧ م بعد إهمال الترجمة السابقة التى قام بها ؛ « جيراردي تريبونا » ، وما ظهر حديثا من أن « ألباجو » كان عارفا بكتابات وشرح ابن النفيس ومعجبا بها ، وهناك تسلسل متصل الحلقات بين ذلك كله وبين اشتغال « ريالدو كولومبو » أستاذا للجراحة فى جامعة بادوا نفسها سنة ١٥٤٠ م ، ثم قيامه بتدريس التشريح فيها ، ثم تأليفه بعد ذلك كتاب « التشريح » وذلك بعد صدور الطبعة الأولى من ترجمة « الباجو » لكتاب القانون بإثنى عشر عاما : كما توجد صلة وثيقة بين ارتحال الطبيب الإنجليزى « هارفى » ليتعلم فى جامعة بادوا نفسها حيث تلقى الطب على أيدى الطبقة الثانية أو الثالثة من تلاميذ كل من « ألباجو » و « كولومبو » ، مما يدل دلالة قاطعة على أن كتابه عن « دراسة لحركة القلب والدم » لم يكن ما جاء فيه من اكتشافه وحده ، ولكنه كان مدينا لمن سبقه من هؤلاء وغيرهم ولأبحاثهم جميعا وعلى رأسهم المكتشف الأول للدورة الدموية الرئوية « العلاء بن النفيس » فى القرن السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى .

اكتشاف أن ابن النفيس
عنى بشرح الدورة الدموية الرئوية فى مخطوطة
عن السيرة النبوية الشريفة

عنيت لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بتحقيق كتاب « موجز القانون لابن سينا » وبينما كنت أعد لكتابة تقديم لهذا التحقيق ، رأيت أن أطلع على قائمة بعناوين الموجود فى دار الكتب بالقاهرة من مؤلفات « ابن النفيس » ، فوجدت من بينها مخطوطة عن السيرة النبوية الشريفة بعنوان : « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » فتاقت نفسى إلى الاطلاع على أسلوب « ابن النفيس » ومنهجه فى كتابة السيرة النبوية وبخاصة لأنى أصدرت سنة ١٩٨٢ كتابا يؤرخ لفترة من حياة الرسول الكريم بعنوان « السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : نظرات فى إشراق فجر الإسلام »[1] وقد اتضح لى بعد البحث أن « ابن النفيس » تخيل فى كتابه هذا أن إنسانا خلق فى جزيرة منعزلة عن العالم ، وقد أطلق عليه اسم : « كامل » ، فلما شب هذا الإنسان أخذ يتعرف على البيئة التى حوله ثم شرع فى دراستها ، فأدرك عن طريق حواسه المختلفة ما فيها من مناظر وعناصر ، ثم عرف أعضاء جسمه الخارجية وخواصّ كل منها ومنافعه ، ثم تاقت نفسه إلى معرفة ما فى داخل البطن والصدر من الأعضاء عن طريق تشريح ما أمسك به من الطير والحيوان أو تشريح جثث الحيوان الذى لم يستطع اقتناصه ، فعرف المعدة ، والأمعاء ، والكبد

---

(١) نشرته الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٢ م = سنة ١٤٠٢ هـ

ووظيفة كل منها ، وكيف يؤدى كل واحد منها هذه الوظيفة ، ثم عرف القلب فى الصدر وتكوينه من بُطَيْنَيْنِ ، وعرف الرئتين وكيف تعملان بالتعاون مع القلب ، وكيف يصل الهواء إليهما ، وكيف ينتقل منهما الدم إلى القلب ، ووصف ذلك كله بأسلوب هو السهل الممتنع ، وبدقة علمية ولكنها مبسطة تبسيطا كبيرا بحيث يستطيع متوسط الثقافة فهمه بيسر ، فهو يتحدث عن الرئتين وعملهما مع القلب بانسجام فى الدورة الدموية الرئوية بقوله :-

«وشاهد [كامل] القلب فى الصدر ، وبطنه الأيمن مملوء بالدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح فى الشرايين إلى الأعضاء ، ثم ينبسط فترجع تلك الروح فيه وحينئذ ينجذب إليه الهواء من الرئة وهي تجذب الهواء من خارج ، فينفذ بها من الأنف والفم مارّا فى الحنجرة وقصبة الرئة إلى تجاويف الرئة وذلك إذا انقبضت الرئة . وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك الحجاب وعضلات الصدر لها ، وذلك بأن ينقبض لذلك الصدر وينبسط وبذلك يتم النفس والصوت فعلم أن هذه هى منافع هذه الأعضاء» (١)

وهكذا عرف «كامل» أجزاء جسمه الخارجية والداخلية ، كما عرف خواصّ كل منها .

(١) مقتبس من الفصل الأول من الفن الأول من «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية»

المبحث الثانى

التعليق على
«الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية»



عنى الفلاسفة منذ القدم بالبحث فى العلاقة بين الفكر الفلسفى والدين ، وكان «أفلاطون» من أوائل الذين بذلوا فى هذا السبيل الكثير من الجهود ، وشغل هذا الموضوع تفكير الكثيرين من الفلاسفة المسلمين ، فقد بذل الكندى [ت ٢٥٦ هـ] والفارابى [ت ٣٣٩ هـ] و«ابن سينا» [ت ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م] وابن طفيل [ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م] جهودا عظيمة فى هذا السبيل ، وكان لكل منهم تفكيره ومنهجه ، والكلام عن جهود أىّ واحد منهم يحتاج إلى دراسات عميقة وطويلة ، وإلى ميادين أرحب من ميداننا الذى نحن بصدده ، إذ الحديث فى هذا البحث مقصور على تصدى ابن النفيس [ت ٦٨٧ هـ] . لمعارضة بعض الآراء الفلسفية والأفكار التصوفية التى كتبها الرئيس ابن سينا فى رسالته الصغيرة التى أسماها «حىّ بن يقظان» ، وكان الغرض من هذه المعارضة هو الدفاع عن تعاليم الإسلام بصفة عامة ، وعن النبوة ، والوحى وعن مسألة الحشر والنشور وحدوث العالم بصفة خاصة ؛ وقد ضمَّن ابن النفيس هذا الدفاع فى رسالة صغيرة موجزة بعنوان : «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» .

كتب الرئيس ابن سينا رسالة قصيرة بعنوان «حىّ بن يقظان» وهو سجين فى القلعة بالقرب من همذان بأمر «تاج الملك»[1] وقد سلك الشيخ فى كتابتها منهجا جديدا لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة المسلمين ، إذا اتخذ المنهاج القصصى وسيلة للتعبير عن بعض آرائه الفلسفية ، وعن تفكيره فى التصوف ؛ وقد اتّبع فى كتابتها أسلوب الرمز[2] ، وأغرق

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٢

(٢) نشرت هذه الرسالة فى مصر عدة مرات كان من بينها كتاب أحمد أمين بعنوان : حىّ بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى ، القاهرة ، دار المعارف .

فى ذلك حتى أصبح حل رموزها وإدراك معانيها الفلسفية عسيرا على تلاميذه أنفسهم ، فطلبوا منه أن يشرحها لهم ، ومازالوا به حتى استجاب لهم قائلًا : «إن إصراركم معشر إخوانى على اقتضائى شرح قصة حىّ بن يقظان هزم لجاجى فى الامتناع ، وحلّ عقدة عزمى فى المماطلة والدفاع ، فانقدت لمساعدتكم وبالله التوفيق[1] .

وقد رأينا أن نقتبس من مقدمة هذا التمهيد فقرة قصيرة كمثال نضربه للغموض والرمز والتعمق الذى التزمه الرئيس ابن سينا عند كتابته لهذه القصة القصيرة ، وسنضع المتن بين قوسين ثم نتبعه بشرح الشيخ لهذا المتن[2] .

«إنه قد تيسرت لى حين مقامى ببلادى برزة برفقائى إلى بعض المتنزهات المكتنفة لتلك البقعة» .

جاء فى الشرح : قوله (تيسرت) : دليل على أن الأمور كلها متعلقة بتيسير الله تعالى إياها ، وأنه ما لم يتيسر من الجنبة العالية شيء لم يخرج إلى الوجود . وقوله : (حين مقامى ببلادى) : أى وقت إقامتى ، وبلاده بدنه وأعضاؤه التى هى محلّ قواه ، ودلّ بذلك على الوقت الذى كان فيه مباشرا لأحوال البدن ، مقتصرا عليه لم ينبعث فيه إلى ملاحظة الأمور العقلية . وقوله : (برزة) أى نهضة وانبعاث نحو ما يذكره . وقوله : (برفقائى) : يريد بهم قواه التى هى له فى البدن ، وأراد ههنا ما يحتاج إلى الاستعانة به من جملتها خاصة فيما هو بصدده وذلك كالتخيّل والوهم وما قبلهما من القوى المدركة من الحواس الظاهرة والحس

---

(١) مقدمة الشرح وهو من تحقيق الأستاذ : «محمد صغير حسن المعصومى» الأستاذ بقسم العلوم العربية والإسلامية ؛ نشر بمجلة المجمع العلمى بدمشق .

(٢) مجلة المجمع العلمى بدمشق ص ٤١٦

المشترك . وقوله : (والمتنزهات) هى الأمور البعيدة عن الأحوال التى كانت فيها من قبل ، وهى مع ذلك تستلذّ تأملها والنظر إليها وفيها ، وهى من المتعلقات . وقوله : (المكتنفة لتلك البقعة) أراد قربها مع ذلك لقوة العقل ومتاخمتها إياها إذ المتعلقات مكتنفة بوجه بقوة .

وقد حظيت رسالة «حى بن يقظان» هذه بعناية الفلاسفة المسلمين ، فأقبلوا على دراستها ، وكتب لها بعضهم شرحا مثل : «ابن زيلة» تلميذ الشيخ الرئيس الذى كتب لها شرحين أحدهما مختصر والثانى مبسوط ، وأعجب بها بعض الفلاسفة المتصوفين مثل : «أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل» (ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) فكتب هو الآخر قصة أطول من قصة الرئيس ابن سينا بعنوان «حىّ بن يقظان» وهى قصة أدبية رائعة بأسلوب ومنهج آخر يختلفان عن منهج الشيخ الرئيسى وأسلوبه وقد ذاع صيتها بين المسلمين والفرنجة ولقيت إقبالًا عظيماً من حيث أنها تحوى جميع مقومات القصة المكتملة ، وأنها تُعنى بشرح الكثير من الآراء الفلسفية والأفكار الصوفية ، ولأنه كتبها بأسلوب يقلّ فيه الرمز واللجوء إلى تعمق المتصوفين والفلاسفة وحبهم للأسلوب الغامض .

وكذلك أقبل شهاب الدين يحيى بن حبش المعروف بالسهروردى المقتول ، وهو من زعماء المتصوفين الإشراقيين [ت ٥٨٧ هـ] ، أقبل على كتابة رسالة قصيرة بعنوان «قصة الغريبة الغربية» قال أنه كتبها بعد الاطلاع على «حىّ بن يقظان» للشيخ الرئيس ، وقد شرح السهروردى فى رسالته بأسلوب غامض أشد الغموض أسرف فيه بالاستعانة بالرمزحتى فاق فى ذلك غموض أسلوب الشيخ الرئيس وإسرافه فى

ستعمال الرمز ، وقد تغالى فى بيان رأيه فى نظرية الإشراق حتى كاد أن يصل إلى ما وصل إليه « الحلاج » من قبل وهو القول بنظرية الحلول وإن العالم والله شيء واحد ، تلك النظرية[1] التى كانت سبباً فى إفتاء فقهاء المسلمين بقتله كما قتل الحلاج من قبل .

(١) سبحان الله عما يصفون

معارضة ابن النفيس قصة « حى بن يقظان » للشيخ الرئيس « على بن سينا » (١)

خرج راوية هذه القصة إلى أحد المتنزهات القريبة فى برزة فى نفر من رفاقه ، فقابلوا هناك شيخا وقورا ، يرمز به ابن سينا إلى العقل الإنسانى ، فأخذوا يحاورونه ، ويوجهون إليه أسئلتهم ، والسؤال فى عرف الفلاسفة هو الطريق الموصل إلى العلم ، واستمروا فى جداله محاولين : « معرفة كنه حقيقته الذاتية »(٢) فأجابهم : إنه مشغوف بزيارة الأقاليم ، وتطواف الأرضين لتحصيل العلم ، ووجهه إلى أبيه الذى هو حىّ ، وسبحان الحىّ ، الذى لا يموت »(٣) وهذا السؤال وذلك الجدال الذى دار بينه وبين هؤلاء الرفاق إنما يرمز به ابن سينا إلى الصراع والجدال الذى يدور عادة بين عقل الإنسان وغرائزه وشهواته التى رُكبت فيه ؛ وقد استمرت تلك المحاورة الرمزية حتى انتهى ذلك الشيخ إلى شرح بعض آراء ابن سينا وتعاليمه الفلسفية ودراساته فى التصوف .

ولا يتسع المجال فى بحثنا هذا لمناقشة الآراء الفلسفية والتصوفية التى نادى بها الرئيس بن سينا فى قصة « حىّ بن يقظان » فمجال البحث عندنا محدود بمناقشة أهم الآراء الفلسفية والتصوفية التى عارضها الفقيه المتطبب ابن النفيس فى « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

وخلاصة تعاليم الرئيس ابن سينا فى قصة « حىّ بن يقظان » هى ما يمكن أن نطلق عليه شرح « فلسفته الصوفية » ، وأهم ما جاء بها أنها تقوم على مبدأين :

---

(١) يلاحظ ما سبق اقتباسه من شرح ابن سينا ص ٧٦ .
(٢) مقتبس من شرح ابن سينا .
(٣) المرجع السابق . .

المبدأ الأول : هو إيمانه بنظرية المعرفة الإشرافية التى تقرر أن العقل الإنسانى يستطيع أن يصل وحده إلى حضرة الحق سبحانه ، لأنه موهبة من الله ، الذى أفاضها على الأرواح الإنسانية ، ولذلك فإن العقل البشرى يستطيع وحده أن يصل إلى ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون ، فهو يستطيع أن يصل إلى معرفة الله سبحانه وما يتصف به من الكمال . فهل يستطيع العقل الإنسانى أن يصل وحده إلى ذلك كله؟ وهل العقل هو المصدر الوحيد الذى يؤدى إلى معرفة الله سبحانه؟

وإذا كان الرئيس « ابن سينا » يرمز بذلك إلى القول أن الأنبياء هم فريق من عباقرة المفكرين الذين توصلوا إلى ما يدعون إليه عن طريق العلم الذى أوصلهم إليه العقل ، ألا يهدم نظريته تلك أن خاتم الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ أميا بين شعب أمى لم يتعلم منهم القراءة والكتابة إلا نفر قليل ، ولم تكن لديهم مثل ما كان لدى جيرانهم من الفرس والروم مدارس ولا معاهد يتلقون فيها العلم ، ولم تنشأ فى بلادهم علوم فلسفية أو اجتماعية ، ولم يكن بينهم من يدعى العلم بشىء من ذلك ، ولم تكن عندهم كتب يدرسونها مثل ما كان موجودا عند اليهود والنصارى ؛ كما أنه صلى الله عليه وسلم لبث بين قومه الأميين أربعين عاما قبل أن تأتيه النبوة لم تتح له فيها فرصة للدراسة العلمية أو الفلسفية ، وصدق الله العظيم الذى وصفه بقوله : ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**﴾[1] كما بين الله حقيقة النبوة بقوله : ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ**﴾[2] .

---

(١) العنكبوت ٤٨ (٢) الشورى ٥٢ – ٥٣

وكذلك ألا يؤكد فساد تلك النظرية التى قال بها الرئيس « ابن سينا » وغيره من الفلاسفة أن محمدًا المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يكن داعية إلى أفكار أو نظريات استنبطها ، ولا إلى حقائق وصل إليها عن طريق التفكير العقلى ، ولا إلى خبرة اكتسبها عن طريق السياحة والتجربة ؛ ولكنه كان يدعو إلى تعاليم سامية أُنزلت إليه فى كتاب من رب العالمين ، وأُمر أن يَتَّبعها وأن يبلغها للناس كافة ، فكان رسولا شاهداً ومبشراً ونذيراً بما جاء فى هذا الكتاب : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا۟ مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] . وقد أُبلغ أن هذا الكتاب الذى أنزل إليه كتاب مقدس لا يجوز له ولا لغيره أن يُبدّل ما أنزل الله فيه : ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] وذلك لأنه : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

كانت هذه النظرية التى قال بها « الرئيس ابن سينا » مما عارضه الفقيه المتطبب « ابن النفيس » .

المبدأ الثانى : هو النظرية « الصوفية الفلسفية » التى قال بها « الرئيس ابن سينا » فى قصة « حىّ بن يقظان » ومفادها أن العقل إذا سيطر على الشهوات والغرائز والملكات الانسانية الأُخرى ، فأُلزم الانسان أن يتوغل فى الرياضة الروحية ومجاهدة النفس ، استطاع (العقل) وحده أن يرى المعارف ، واستطاع الكشف عن معميات ما وراء الطبيعة ، وتجلّت على نفسه المعانى التى تشرق عليها ، وذلك على أساس القول بنظرية

---

(١) آل عمران ١٦٤ (٢) يونس ١٥

(٣) يونس ٦٤

الاتصال بين النفس والعقل الفعّال ، وهو آخر العقول العشرة الذى ينتهى عنده الفيض .

وهذا « التصوف الفلسفى » المبنى على إيمان « الرئيس ابن سينا » بنظرية الفيض ، لم ينسه إيمانه الراسخ بنظرية المعرفة الاشراقية التى آمن بها ، واعتنقها مثله الكثيرون من الفلاسفة ، وذلك لأنه لم يكن فى مقدور « الرئيس ابن سينا » أن ينسى أنه فيلسوف لحما ودما ، وأن صفته الفلسفية تلازمه بحيث تطغى على أية صفة أخرى حتى ولو كانت تلك الصفة تصوفية[1] .

وقد نتج عن مزج هاتين النظريتين عند « الرئيس ابن سينا » أن قال إن النبوة والولاية كلاهما مرتبتان يمكن أن يصل إليهما ويكتسبهما من يستطيع أن يطوّر نفسه عن طريق المجاهدة والرياضة الروحية حتى يرتقى بها إلى أفق الملائكة ؛ وكان « الرئيس ابن سينا » يرمز بذلك إلى أن أية مرتبة من هاتين المرتبتين ليست اختيارا ولا اصطفاء من الله كما تقرر الأديان السماوية ، وكما عبر عنها القرآن الكريم بقوله : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** ﴾[2] ويرسلهم إلى من يشاء من عباده مبشرين ومنذرين .

وقد عارض ابن النفيس هذه النظرية إيمانا بالله وبرسله وبمحمد المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد قاد هذا « التصوف الفلسفى » الرئيس ابن سينا إلى القول بأن الوحى ضرب من ضروب التّخيُّل ، وأهم هذه الضروب عنده ثلاثة :

---

(١) عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل وقصة حىّ بن يقظان
(٢) الحج ٧٥

١ – التخيل الطبيعي كما هو الحال عند الأنبياء والأولياء .

٢ – التخيل المَرَضي كما هو الحال عند المجانين وغيرهم من المرضى كالمصروعين .

٣ – التخيّل الصناعي كما هو الحال عند الكُهان .

وبذلك يكون هذا « التصوف الفلسفي » عند الشيخ الرئيس ابن سينا قد جعله يساوى بين الأنبياء والأولياء والمجانين والمصروعين والمرضى والكهان وذلك فى المصدر الذى يستقون منه العلم بما يدعون إليه أو بما يقول به كل فريق منهم ، وهذا هو بعض ما عارضه ابن النفيس .

وقد كفانا الله سبحانه مئونة الرد على هذا الاغراق فى « التصوف الفلسفي » فأنزل فى محكم التنزيل أن الأمم البائدة سبق أن قالت بمثل هذا القول ، قال تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾[1] وكذلك كذبت شعوب أخرى الأنبياء الذين أرسلوا لهدايتهم : ﴿ **كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾[2] ، وأوحى الله الى محمد المصطفى بقوله : ﴿ **فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ** ﴾[3] ، ونفى الله عن خاتم الأنبياء سُبّة الجنون التى ادعاها المشركون فى عدة آيات من القرآن الكريم : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم** ﴾[5] وبين فى عدة آيات مباركات : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾[6] قال

---

(١) القمر ٩
(٢) الذاريات ٥٢
(٣) الطور ٢٩
(٤) الاعراف ١٨٤
(٥) سبأ ٤٦
(٦) الشعراء ١٩٢ – ١٩٤

تعالى يصف الوحي الذى أرسله للانبياء : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾(١) . وقال تعالى يصف تأييده لعيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (٢) .

* * *

وقد ذهب الشيخ « الرئيس ابن سينا » وبعض الفلاسفة الآخرين إلى أن الحياة الآخرة لا تكون ببعث الأبدان حيث يجد المحسنون الثواب نعيما مقيما فى جنات تجرى من تحتهم الأنهار ، ولا تكون بحيث يجد الكفار والمنافقون عذابا مقيما فى نار جهنم ، فقد ذهبوا إلى استحالة بعث الأجساد التى بليت وعدمت ، وقادتهم عقولهم إلى القول أن البعث لا يكون إلا روحانيا ، وقد ورد ذكر الجزاء فى الدار الآخرة فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾(٣) .

ومن قبل هؤلاء الفلاسفة لم تستطع عقول مشركى قريش ، أن تصور لهم كيف يبعث الله من فى القبور بعد أن بليت أجسامهم

(١) النحل ٢

(٢) البقرة ٢٥٣ .

(٣) النساء ٥٦ – ٥٧

وعظامهم ، ولم يطق « أُبيٌّ بن كعب » ، وهو أحد سادتهم ، على ذلك صبرا ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمسك بيده قطعة هشة من العظام البالية ، وأشار إليه وهو يقول « يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أَرَمَّ ؟ » ثم فرك العظم بين أصابعه فتفتّت وأصبح رمادا فنفخه فى الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول الكريم فى ثقة وإيمان : « نعم . أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار »[1] . وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الجدال بقوله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ . إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] .

وقد استعان الشيخ « محمود شلتوت » فى بيان آراء هذه الطائفة من الفلاسفة برأى ابن تيمية فقال[3] : حكى « ابن تيمية » أن من جماعة الفلاسفة فرقة جعلت ما رأته بعقولها أصلًا لما جاءت به الأنبياء ، فما وافق قانونهم هذا قبلوه ، وما خالفه رفضوه ، قال [ابن تيمية][4] : « ومنهم أهل الوهم والتخيل الذين يقولون إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر ، وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر فى نفسه ؛

---

(١) الاقتباس من كتابنا « خديجة أم المؤمنين : نظرات فى إشراق فجر الإسلام » ، الطبعة الأولى ص ٢٣٣ .
(٢) يس ٧٧ – ٨٣ .
(٣) كتاب « تفسير القرآن الكريم » تأليف الشيخ محمود شلتوت ص ٤٦ – ٤٧ .
(٤) أول كتاب « بيان موافقة صريح المعقول الصحيح المنقول » تأليف ابن تيمية .

لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون [1] من أن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوسا ، وإن كان الأمر ليس كذلك فى نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا[1] ، وإن كان هذا كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور ، إذا كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة .

وهكذا فإن هذه الجماعة من الفلاسفة لم تكتف بإنكار أن الأبدان يحييها الله فى الآخرة كما أخبر الله بذلك ، ولكنهم رموا الأنبياء بالكذب والاحتيال على جمهور الشعب ، ثم التمسوا للأنبياء عذرا بأنهم أرادوا أن يرشدوا الجمهور إلى ما فيه مصلحتهم وخيرهم ؛ ولذلك فقد عارض «ابن النفيس» هذه الآراء دفاعا عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، مبيّنا أن الناس فى حاجة ماسة إلى النبى الذى يقوم بتبليغهم شرع الله عزّ وجلّ وأركان العقيدة ، كما يعرفهم بجلال الله تعالى وبسائر صفاته ، ويعرفهم حال المعاد وما هو معدٌّ لهم فى الدار الآخرة من السعادة والشقاوة[2] مؤمنا بقوله سبحانه : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[3] وكذلك قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[4] .

---

(1) أى أن الأنبياء خاطبوا جمهور الشعب وزينوا لهم أشياء غير صحيحة توهمها الجمهور وتخيلوا وجودها مثل الاعتقاد بأن الأبدان تعاد فى الآخرة حيث تجد نعيما محسوسا أو عقابا محسوسا ، ولكن الحقيقة كما يراها هذا الفريق من الفلاسفة ليست كذلك .

(2) الفصل الثالث من الفن الأول من «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» ص ١١١ - ١١٥

(3) البقرة ١٧٧

(4) الحج ٦ - ٧

« بحث مقارن بين « حى بن يقظان لابن طفيل » و « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس »

هناك تشابه كبير بين بداية قصة « حىَ بن يقظان » للفيلسوف الأندلسى المتصوف ابن طفيل ، وبداية « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » للفقيه المتطيب ابن النفيس ، فقد تولد كل من بطلى هذين الكتابين : « حىَ » و « كامل » تولداً ذاتياً بالنشوء الطبيعى[1] فى جزيرة منعزلة عن الناس ، وكان التولد من طين من مختلف العناصر والطبائع الترابية ، وقد تخمر هذا الطين فأصبح خاثرا قابلًا لأن تتكون منه أجزاء تشبه أجزاء جسم الإنسان : « فلذلك كانت هذه الأجزاء مستعدة لأن يتكون منها أعضاء إنسان ، والله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقاً مستحقه ، ويعط كل مستعد ما يستعد له »[2] وانتهت هذه المرحلة من الخلق : « فتعلق به عند ذلك (الروح) الذى هو من أمر الله تعالى ، وتشبَث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل »[3] .

وخَلْقُ آدم أبى البشرية من طين قالت به الرسالات السماوية الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية والإسلام : ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ** ﴾[4] ولذلك فإن خلق « حىَ بن يقظان » عند « ابن طفيل »

---

(١) فرض ابن طفيل أن « حى بن يقظان » إما أن يكون قد تولد بصفة طبيعية من أب وأم ، وأن أمه ألقت به فى اليم خوفا من أخيها لأنها تزوجت سرا بغير إذنه ، فجرفه التيار إلى جزيرة منعزلة ، إما أن يكون ، كما شرحنا ، قد تولد تولدا ذاتيا من طين خاثر .

(٢) الرسالة الكاملية : الفصل الأول من الفن الأول .

(٣) حىَ بن يقظان : بداية القصة .

(٤) سورة (ص) ٧١ – ٧٢ .

ونشأة «كامل» عند «ابن النفيس» ما هو إلا تصوير أدبي فني يجمع بين عقيدة دينية سماوية وبين ما يتطلبه الابداع الفنى الأدبى عند تصوير كل منهما للقصة، وإن كان «حيَ بن يقظان» من الناحية الفنية الأدبية أكثر لباقة وأحسن أسلوبا وأدق فى الحبكة القصصية وذلك لأن الغرض من تأليف القصتين مختلف، فقد كان «ابن طفيل» حريصا على أن يذكر فى قصته الكثير مما كان معروفا فى زمانه من الأفكار الفلسفية والتصوفية وغير ذلك من العلوم، وأنه يعنى فيها ببحث ماوراء الطبيعة وما كان يدور حولها من آراء ونظريات فلسفية، وأنه مزج ذلك ببعض آراء الصوفية؛ أما «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» التى كتبها «ابن النفيس» فقد كان الغرض من تأليفها كما نقل المؤرخ الكبير الصفدى: «الانتصار لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع والبعث الجسمانى وخراب العالم وذلك بمعارضته لقصة حيَ بن يقظان التى ألفها الشيخ الرئيس بن سينا ولعمرى لقد أبدع فيه ودل ذلك على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية»[1].

ويعتمد كل من «ابن طفيل» و «ابن النفيس» فى مبدأ قصتيهما على سرد الأفكار وتحليلها تحليلًا منطقياً، ولما كان البطلان «حيّ» و «كامل» قد شبا فى جزيرة مهجورة منعزلين عن الإنسان الذى يستطيع أن يعلمهما وأن يرعاهما، لذلك كان عليهما أن يتعلما من البيئة التى عاشا فيها بواسطة الحواس التى أودعها الله فى كليهما، فقد شاهد كل منهما: «الفضاء والضوء، وأشجار تلك الجزيرة، وسمع أصوات الطيور وخرير ماء البحر والأنهار، وحفيف الرياح، وشم روائح الزهور والنبات، وأكل من الثمار التى تساقطت من الأشجار فأحس بطعومها، وأدرك حرَ الهواء

(١) اقتباس من ترجمة ابن النفيس فى مسالك الأبصار للعمرى.

وبرده ، فكثر تعجبه من ذلك ، وصار إذا غمض عينيه تغيب عنه المرئيات ، وإذ فتحها أدركها ، وكذلك اذا سَدَّ أذنيه بإصبعه غابت عنه الأصوات ، وإذا فتحها أدركها ، وإذا حصلت الطعوم من فيه أدرك طعومها ، وإذا أبعدها من فيه لم يدرك ذلك ، وكذلك اعتبر الأنف فى الروائح ، وملاقاة الملموسات للبشرة فى اللمس ، وتكرر له ذلك فعلم أن هذه الأعضاء هى آلات لهذه الادراكات ، وأن هذه الادراكات هى منافع هذه الأعضاء[١] ، وهكذا تعرف « كامل » على بداية الطريق الذى يوصله إلى العلوم ، كما تعرف مثله « حيّ بن طفيل » على بداية الطريق الذى سلكه للوصول إلى المعرفة ، فقد اعتمد الإثنان على الملاحظة أو المراقبة ، والمحاكاة أو التقليد ، وعلى التجربة التى دعت إليها الحاجة وما نتج عنها من اكتشافات ، ودفعتهما الحاجة إلى التفكير فاستعان كلاهما بالحدس وبالمقارنة وبالقياس ثم بالاستنتاج ، ولذلك فإن المعرفة فى هذه المرحلة كانت مكتسبة وليست مخلوقة ، فتعلما فيها الكثير عن النبات والحيوان[٢] .

ثم اهتديا إلى استعمال الآلات الحادة الصلبة من الحجارة أو العظام ، وتعلما تشريح الحيوان فعلما أعضاء جسم الحيوان الداخلية ووظيفة كل منها ، وعلما بطريق الحدس والتخمين أنه يوجد عند كل منهما أعضاء مثلها .

وكانت القصتان فى هذه المرحلة متأثرتين بقوله سبحانه إنه هو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

---

(١) الرسالة الكاملية : الفصل الثانى من الفن الأول .

(٢) لم يكن فى جزيرة حى بن يقظان لابن طفيل حيوان مفترس .

(٣) السجدة ٧ - ٩ .

ثم بقوله سبحانه : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] .

وكانت المرحلة الثانية فى القصتين أن انتقل البطلان «حىّ بن يقظان» و «كامل» إلى «تأملى أحوال الأجسام العلوية كالمطر والبرد والثلج ، وإلى تفكر فى الرعد والبرق ونحوهما ، ثم انتقلا بعد ذلك إلى الأجسام السماوية وشاهدا حركاتها ونظام بعضها مع بعض ودورانها»[2] .

وكان كل واحد منهما «قد تعدى مدة الحُلُمُ ، وقوى عقله ، وجاد فكره ، ففكر فى أن هذه الموجودات هل هى مع اتقان وجودها وإحكامه موجودة بذواتها أو بموجدٍ آخر ؟ وإذا كانت لموجد آخر فما ذلك الموجد ؟ وكيف حاله ؟ فتشوف إلى معرفة ذلك»[3] .

وقد انتهى تفكير كل واحد منهما فى عزلته إلى أنه : «لا بد وأن يكون لهذه الموجودات موجد هو واجب الوجود ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن يكون عالما بكل شىء ، وإلا لم يكن فعله متقنا ، ولا بد وأن يكون فى غاية الاعتناء بكل شىء ، وإلا لم يجب أن يكون كل شىء على أفضل الأحوال الممكنة له ، فظهر لكامل إذًا أن لهذه الموجودات موجدا واجب الوجود ، عالما بكل شىء ، ومعنيًا بكل شىء[4] .

وإلى هذه المرحلة من مراحل نمو «حىّ بن يقظان» عند «ابن طفيل» ، والمدعو «كامل» عند «ابن النفيس» كان منهج البطلين فى

---

(١) البلد ٩ .

(٢) الرسالة الكاملية ، الفصل الثانى من الفن الأول مع تصرف يناسب المعنى .

(٣) المرجع السابق .

(٤) آخر الفصل الثانى من الفن الأول من الرسالة الكاملية .

اكتساب المعرفة واحدا ، مع اختلاف فى أسلوب التفكير ، وفى الحوادث التى مرت بكل واحد منهما ، وفى أنواع التجارب وعمق الملاحظة ، ولكن كان من الواضح ان المؤلفين قررا أن الوصول إلى المعرفة يكون أولا عن طريق الحواس التى وهبها الله للإنسان ، ثم عن طريق التفكير واستعمال العقل الناضج بوصف أن العقل هو إحدى القوى التى وهبها الله للإنسان ، وأن البطلين وصلا عن هذين الطريقين إلى معرفة الله سبحانه ، ومعرفة صفاته ، ولا شك أن ذلك يذكرنا بما قصه الله علينا من كيفية وصول ابراهيم أبى الانبياء إلى معرفة الله الواحد الأحد خالق كل شيء ؛ ولكن حدث بعد ذلك أن سلك كل مؤلف منهما طريقه الخاص لاتمام قصته .

أما « ابن النفيس » فقد كان بجوار دراسته للطب ونبوغه فيه فقيها على المذهب الشافعى ، وكان يشار إليه فى علوم الدين وبخاصة فى الفقه والأصول والحديث ، وكان يجلس لتدريس الفقه الشافعى فى المدرسة المسرورية كما كان أستاذا فى الطب ، وكان يجيد العربية والنحو والمنطق(١) ، ولذلك نراه يسلك فى إتمام قصته مسلك الفقهاء المتبحرين ، فما إن وصل إلى معرفة أن الوجود لابد وأن يكون له خالق عظيم حتى أراد أن يعلم ما حق هذا الخالق على عباده ؟ وهل هو سبحانه مما ينبغى أن يعبد وأن يطاع ؟ وما الطريق إلى تعرف العبادة اللائقة بجلاله ؟ وبقى يفكر فى ذلك مدة(٢) .

وأرادت العناية الالهية بع خيرا ، فألقت الريح بسفينة للتجار على الجزيرة التي يسكنها « كامل » ، وهناك أقاموا فترة ليصلحوا سفينتهم ، فتعرفوا « بكامل » : « وأطعموه من طعامهم ، وألبسوه من لباسهم »

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وشذرات الذهب لابن العماد .

(٢) أول الفصل الثالث من الفن الأول من الرسالة الكاملية .

وعلموه اللغة ، وحملوه معهم عند العودة إلى بلدهم حيث عاش بينهم ، فعلم إن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعى ، واحتياجه إلى غذاء صناعى ، وملبس صناعى ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه ، بل لا بد أن يكون الانسان مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم أن يزرع ، وللآخر أن يحرث ، وللآخر أن يخبز ، وللآخر أن ينقل المادة ، وللآخر أن يخيط الثوب ونحو ذلك » .

وهكذا يكون « ابن النفيس » قد توصل فى « الرسالة الكاملية » إلى أهم المبادىء التى يقوم عليها علم الاجتماع وذلك قبل مولد « ابن خلدون » بأكثر من أربعين عاما[1] . وقد زار ابن خلدون مصر والشام وعاصر الذهبى والصفدى وابن فضل الله العمرى الذين كتبوا عن ابن النفيس ومؤلفاته .

والإنسان يحتاج فى جودة معيشته إلى وقوع معاملة كبيع وإجارة ونحوهما ، وهذه المعاملة تؤدى إلى المنازعة ، فلا بد وأن يكون بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة ، وإنما يمكن أن يكون ذلك الشرع مما يُتلقَّى بالطاعة والقبول ، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدقه الناس فى إخباره أنه من الله تعالى : ولا بد وأن يكون هذا الشخص ذا معجز يشعر الانسان معه أن ما جاء به ليس بزور ولا باطل بل هو حق من عند الله تعالى[2] وبهذا التفكير المنطقى وصل كامل إلى معرفة أمر النبوات .

أما ابن طفيل فكان فيلسوفا متطببا ، ولكنه كان بطبعه متصوفا ،وكان بجانب إلمامه بكثير من علوم عصره مثل الفلك أديباً ممتازاً

---

(١) توفى ابن النفيس سنة ٦٨٧ هـ وولد ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع سنة ٧٣٢ هـ وانظر الرسالة الكاملية : الفصل الثالث من الفن الأول .

(٢) نفس المرجع .

واسع الاطلاع ، وشاعراً رقيقاً ، ولذلك نراه قد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى الذى فى نفسه فى دقة كاملة ، وبأسلوب بارع[1] هو السهل الممتنع ، وقد غلب عليه تصوفه ، ولذلك نرى أن «حى بن يقظان» عندما عرف الله بهرته صفات كماله فهو «الموجود المحض الواجب الوجود بذاته ، المعطى لكل ذى وجود وجوده ، فلاوجود إلا هو : فهو الوجود ، وهو الكمال ، وهو التمام ، وهو الحسن ، وهو البهاء ، وهو القدرة ، وهو العلم ، وهو هو»[2] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[3] .

★ ★ ★

لقد قاد التصوف «ابن طفيل» إلى أن جعل الحّد الذى وصل إليه «حىَ بن يقظان» فى طلب المعرفة هو الإيمان بنظرية الفيض والوصول إلى مقام أولى الصدق ، فقد تبين له : «أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام ، مشاهدة بالفعل أبدا ، حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل ، فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم ، وإليه أشار الجنيد ، شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه : هذا وقت يؤخذ منه : الله أكبر ، وأحرم للصلاة[4] .

وهكذا فإنه بعد الرياضة ومجاهدة النفس ، والاستغراق المحض ، والفناء التام فإن «حى بن يقظان» : «شاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن

---

(١) فلسفة ابن طفيل لعبد الحليم محمود ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٣) القصص ٨٨ .

(٤) متن قصة حى بن يقظان : راجع كتاب فلسفة ابن طفيل لعبدالحليم محمود ص ١٦٢ ، نشر الدار المصرية للطباعة سنة ١٩٧٨ ، وانظر أيضا : حى بن يقظان لأحمد امين ص ١٠٢ نشر دار المعارف سنة ١٩٥٩ .

سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] ، ولما عاد من هذا الاستغراق إلى العالم المحسوس ، وذلك « بعد جولانه حيث جال ، سئم تكاليف الحياة الدنيا ، واشتد شوقه إلى الحياة القصوى ، فجعل يطلب العود إلى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه أولًا حتى وصل إليه بأيسر من السعى الذى وصل به أولًا ، ودام فيه ثانياً أطول من الأولى ، ثم عاد إلى عالم الحس »[2] ، وهكذا « فقد كان كلما تكلف الوصول إلى ذلك المقام ، كان ذلك أيسر عليه ، وكان دوامه أطول حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء ، ولا ينفصل عنه إلا متى شاء »[3] .

وهكذا وصل ابن طفيل بحى بن يقظان إلى الإيمان بنظرية الحلول كما قال بها الجنيد من قبل ، وكما شرحها ودعا إليها « شهاب الدين ابن حبش السهروردى » المعروف باسم « السهروردى المقتول » عندما أمر السلطان صلاح الدين الأيوبى بتنفيذ حكم الشرع فيه سنة ٥٨٧ هـ[4] وذلك بعد ماتفشت مبادئه بين الشباب وبخاصة فى حلب ، فأخذوا يوغلون فى الرياضة ومجاهدة النفس بغية الوصول إلى الفناء التام حتى يتصلوا باللذة الدائمة ، والسعادة التى تريهم « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطرت على قلب بشر » ، فقد رأى صلاح الدين أن انتشار هذه البدعة يؤدى إلى أن تخلو المزارع من الزراع ، والمصانع من الصناع ، وساحات القتال والدفاع عن الوطن والعرض والدين من المجاهدين فى سبيل الله ، وبذلك يكون هذا النوع من التصوف سببا فى خراب العالم

---

(١) المرجع السابق لعبد الحليم محمود ، ص ١٨٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ .
(٣) المرجع نفسع ص ١٩٠ .
(٤) أحمد أمين : حىّ بن يقظان ..

العربى والعالم الإسلامى ؛ تلك هى الآراء التى عارضها بن النفيس ، وهى آراء لا تختلف عن الآراء التى وصل إليها الشيخ الرئيس ابن سينا عن طريق فلسفته التصوفية التى تقول إن العقل هو وسيلة صادقة لمعرفة ماوراء الطبيعة ، وذلك بعد أن درس التصوف دراسة موضوعية نظرية ثم وصف بذكائه الخارق مراتب التصوف وصفا دقيقا وإن لم يكن قد تذوقه قط ،[1] أما ابن طفيل فقد رأيناه ، فى بداية نشأه « حىّ بن يقظان » يرى أن العقل هو إحدى القوى الإنسانية اللازمة لإكتساب المعرفة ولكننا نراه فى هذه المرحلة الأخيرة يطرح العقل جانبا ، ويرى أن التصوف والرياضة ومجاهدة النفس هما الوسيلة للوصول إلى مالا يستطيع العقل أن يصل إليه ، وفى ذلك ، بلا شك ، نوع من أنواع المعارضة لآراء الشيخ الرئيس ابن سينا ومن سار على هذا المنهج من الفلاسفة قبله أو بعده .

وحدث بعد أن وصل « حى بن يقظان » إلى هذا المقام ، أن وفد على جزيرته رجل من جزيرة أخرى اسمه « أبسال » كان هو وأهل جزيرته يعيشون على مِلَّة صحيحة مأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين ، وكان له صديق يحكم تلك الجزيرة اسمه « سلامان » وكان هذا الحاكم يعمل بمقتضى ظاهر تعاليم تلك الملة ، ولا يحب اللجوء إلى التأويل ، فكان يلازم ظاهر التعاليم التى تؤمن بها الجماعة ، أما « أبسال » فقد كان يحب أن يغوص فى تلك التعاليم ، ويطمع فى تأويلها حتى يعثر على المعانى الروحية ، ولذلك آثر العزلة وارتحل إلى الجزيرة التى كان يسكن بها « حى بن يقظان » وبقى فيها مدة يعبد الله عز وجلَّ ويعظمه ، ويفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فصفت نفسه ، وعاش فى غبطة وأنس بمناجاة ربه ، وكان يتغذى

---

(١) فلسفة ابن طفيل لعبدالحليم محمود ص ١٣ .

من ثمرات الجزيرة وصيدها ، حتى رأه «حيّ بن يقظان» وهو يتعبد ويصلي ويدعو ويتضرع فأعجب به ، ودنا منه وصار يتقرب إليه حتى اطمأن كل منهما الآخر .

واكتشف «أبسال» ان هذا الزميل لا يتكلم ، فعلّمه الأسماء كلها وتكلم «حيّ بن يقظان» فى أقصر مدة ، فجعل «أبسال» يسأله عن شأنه ، ومازال به حتى عرف منه كل الحقائق التى مرت به ، وكيف أنه ترقّى بالمعرفة حتى انتهى إلى «درجة الوصول»[1] «ووصف له ذات الحق بأوصافه الحسنى ، ولم يشك «أبسال» فى أن جميع الأشياء التى وردت فى شريعته من : أمر لله عز وجل ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وجنته وناره[2] ، هى أمثلة هذه التى شاهدها «حى بن يقظان» ... وتطابق عنده المعقول والمنقول ، وقربت عليه طرق التأويل ... وعند ذلك نظر إلى «حيّ بن يقظان» بعين التعظيم والتوقير ، وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فالتزم خدمته ، والأخذ باشاراته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التى كان قد تعلمها فى ملته»[3] .

وهذا هو المنهج الذى أراد ابن طفيل أن يثبت به أنه لا تعارض بين حقائق الدين وحقائق المشاهدة ، ولكنه صرح فى وضوح أن من حق من يصل إلى مرتبة المشاهدة أن يفسر تعاليم الملّة ، وعلى العلماء من أمثال «أبسال» أن يحترموا هذه التفاسير .

---

(١) ابن طفيل «حيّ بن يقظان» ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٣) حيّ بن يقظان لابن طفيل ص ١٩٩ .

وكذلك ذكر «أبسال» لزميله تعاليم ملته ، فآمن «حيّ ابن يقظان» أن النبى الذى جاء بها صادق فى قوله ، وأنه رسول من عند ربه ؛ ولكنه تعجب : «لم اقتصر هذا النبى على هذه الفرائض ووظائف العبادة ، وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل ، والإعراض عن الحق !!»(١) .

وكان رأى حيّ بن يقظان هو أن لا يتناول أحد شيئا إلا ما يقيم به الرمق ، وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال : كالزكاة وتشعبها ، والبيوع والربا ، والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ، ويراه تطويلًا ، ويقول : «أن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل ، وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمال يُسأل عن زكاته ، أو تقطع الأيدى على سرقته ، أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرةً(٢) ؛ ولذلك رحل هو وزميله إلى الجزيرة العامرة بالسكان ؛ وقد عقد العزم على أن يخلصهم من الضلال الذى اعتقد أنهم يعيشون فيه ، فيدعوهم إلى الاكتفاء بالقليل من المأكل مما لا غنى عنه لسد رمقهم ، وبالرضا من اللباس بما يستر عوراتهم ويقيهم شر البرد والحر ، وأن يتجنبوا الكدّ والكدح فى سبيل جمع الأموال واكتنازها ، وبذلك يصبحون غير محتاجين إلى ما جاء فى شريعتهم من أنواع العقاب الزاجر ، وأن يصرفوا الوقت فى مجاهدة النفس والرياضة حتى يرتقوا إلى مرتبة المقربين ، فتتكشف لهم الحقيقة كما تكشفت له من قبل ، ويتصلوا بالحق الخلاق العظيم ، وتغمرهم السعادة الأبدية(٣) ؛ وهذا هو نفس ما دعا

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٨ - ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٩ .

إليه شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردى مما ألب عليه فقهاء المسلمين فطالبوا بردعه حتى لا يفسد المجتمع ، وهو ما قُتل بسببه سنة ٥٨٧ هـ ، وهذا هو ما عارضه « ابن النفيس » على لسان كامل فى « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [١] .

وقد رحَّب أهل الجزيرة المعمورة بمقدم « حيّ بن يقظان » وزميله « أبسال » فى بداية عودتهما ، فلما شرع « حى بن يقظان فى نشر تعاليمه جعلوا ينقبضون منه ، وتشمئز نفوسهم مما يأتى به »[٢] ولكنه لم ييأس « ومازال يستلطفهم ليلًا ونهاراً ، ويبين لهم الحق سراً وجهارا ، فلا يزيدهم ذلك إلا نبوا ونفاراً »[٣] فعلم أنه قد « ألهاهم عن ذكر الله التجارة والبيع »[٤] ولذلك يئس من إصلاحهم وانقطع رجاؤه فى قبولهم « وبان له وتحقق على القطع أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا تمكن ، وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق ، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به »[٥] .

فلما فهم « حى بن يقظان » أحوال الناس ، وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق ، علم أن الحكمة كلها ، والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ، ووردت به الشريعة ، لا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل

---

(١) الأعراف ٣٢ .
(٢) من قصة حى بن يقظان ص ٢٠١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ٢٠٢ .
(٥) المرجع السابق .

المزيد عليه ، فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له ، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(١) وهكذا أعاد « ابن طفيل » بطله « حى بن يقظان » إلى الدعوة إلى العمل بمقضى الشرع والتزام حدوده فانصرف « حى بن يقظان » إلى حاكم الجزيرة « سلامان » « واعتذر له عما تكلم به معهم ، وتبرأ إليهم منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم ، واهتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بملازمة ماهم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها ، والإعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ؛ وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا ، وحذرهم عنه غاية التحذير ، وعلم هو وصاحبه « أبسال » أن هذه الطائفة المَريدة القاصرة لا نجاة لها إلا بهذا الطريق ، وأنها إن رُفعت عنه إلى بقاع الاستبصار اختل ما هى عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء ، وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها ؛ وإن هى دامت على ما هى عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن ، وكانت من أصحاب اليمين ، وأما السابقون السابقون فأولئك المقربون »(٢) .

ولا شك أن عودة « ابن طفيل » إلى إرشاد بطل قصته « حى ابن يقظان » إلى القول بأن الناس فى حاجة ماسة إلى الدين ، وما فيه من عقيدة تصفى نفوسهم ، وشريعة تضبط سلوكهم على هذا النحو الذى ذكره ، هى عودة إلى الحق ، وهداية إلى الصراط المستقيم الذى عليه عماد هذا العالم وصلاح حال البشر ؛ ويمكن فى الوقت ذاته اعتبارها معارضة للآراء الفلسفية التى تقول بأن العقل البشرى قادر وحده على الوصول إلى أسرار

(١) المرجع السابق ٢٠٣ وانظر سورة الأحزاب ٦٢ .
(٢) اقتباس من خاتمة « حىّ بن يقظان » لابن طفيل وفيها اشارة إلى الآيات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، من سورة الواقعة .

ما وراء الطبيعة وكشف ستر الغيب ، كما أن فيها معارضة لما قال به غلاة المتصوفين الذين دعوا إلى الانقطاع إلى العبادة ، حتى يصلوا إلى مرحلة المكاشفة ، كما دعوا إلى التقشف وحرمان النفس من الطيبات التى أنعم الله بها على عباده .

وخلاصة القول أن «ابن طفيل» اختار المنهج القصصى فى كتابه «حيّ بن يقظان» للتعبير عن آراء في الفلسفة وعلاقتها بالدين والعقيدة ، ولبيان آرائه فى التصوف وعلاقته بالشريعة ، وفى شرح رأيه فى المعرفة وطرق اكتسابها ، وتدرج الإنسان فى مدارج كسبها ابتداء من الإنتفاع بالحواس لإدراك كُنْه مايحيط به من البيئة ، والإرتقاء فى ذلك من المحسوس إلى المعقول ، مسترشدا بالمنهج المنطقى الذى يقود من المعلول إلى العلة حتى أدرك الحقائق ووصل إلى العلة الأولى ؛ ثم ارتقى من هذا المعقول الفلسفى إلى تذوق الحكمة الإشراقية القائمة على الوجد والذوق التصوفى ، ثم وصل فى النهاية إلى أن هذه المرتبة لاتصلح إلا لخاصة الخاصة من الناس ، أما عامة الشعب فإنهم فى حاجة ماسة إلى الدين وما فيه من عقيدة تصفّى نفوسهم ، وشريعة تضبط سلوكهم وبذلك فقط تصلح دنياهم ، وتسعد حياتهم .

وقد كان هذا المنهج القصصى الذى اختاره «ابن طفيل» فى القرن السادس الهجرى[1] لشرح آرائه الفلسفية ، وأفكاره الدينية ، سببا فى وضع هذا المفكر المسلم فى مكانة رفيعة بين كبار الفلاسفة والمتصوفين ، كما أن قصة «حيّ بن يقظان» حققت له مكانة سامية بين كبار الأدباء والمفكرين العالميين ، فقد ترجمت فى القرن السابع عشر الميلادى إلى معظم اللغات الأوربية الحديثة مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية

---

(١) يوافق القرن الثالث عشر المسيحى .

والهولندية ، فكان لها تأثير كبير على الأدباء والمفكرين فى تلك الشعوب مما أدى إلى نشأة نوع جديد فى أدب تلك اللغات فى القرن الثامن عشر هو أدب القصة المنثورة الطويلة Prose fiction ؛ وقد تطور هذا النوع من الأدب تطوراً سريعاً ، وارتقى فى القرون التالية بسرعة حتى وصلت القصة النثرية الطويلة Novel إلى مكانة سامية مرموقة فى الأدب المكتوب باللغات الأوربية .

وكان من أوائل الذين تأثروا بقصة «حىّ بن يقظان» الكاتب الإنجليزى دانيال ديفو Daniel Defoe فقد كتب سنة ١٧١٩م قصته المشهورة روبنسن كروزو Robinson Crusoe ، واختار لها بطلاً عاش فترة فى جزيرة منعزلة ومرّ بظروف مماثلة لتلك التى أحاطت «بحى بن يقظان لابن طفيل» .

وقد اتخذ «ابن النفيس» المنهج القصصى فى كتابه «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» فى القرن السابع الهجرى[1] لشرح أفكاره الفلسفية وآرائه الدينية ، واختار لقصته بطلًا هو«كامل» وراوية لهذه القصة هو «فاضل بن ناطق» ، وخلق لبطله هذا من تصوره بيئة فى جزيرة منعزلة عن العالم ، فبدأ «كامل» حياته وتفكيره كما بدأ «حىّ بن يقظان» ، ثم نقل «كامل» إلى مجتمع إنسانى متحضر نابض بالحياة الاجتماعية مما كان له أثره فى تطوُر أفكاره ، كما كان له هو تأثيره فى تلك البيئة بإبداء آرائه الاجتماعية التى أوضحنا بعضا منها ، وبمعارضاته للتفكير الفلسفى الذى أنكر ما أنكر من مبادىء العقيدة الإسلامية ، كما عارض

---

(١) يوافق القرن الرابع عشر المسيحى .

سلوك بعض المتصوفين الذين أسرفوا فى دعوة الناس لنبذ العمل الذى هو أساس الحضارة التى استخلفهم الله سبحانه ليقيموها على هذه الأرض ، فهى قصة أدبية متكاملة جديرة بأن يفرد لها الناقد المنصف مكانة مرموقة بين الأدب القصصى العربى المنثور الذى أبدعه تفكير الأدباء والمفكرين باللغة العربية .

سيرة خاتم الأنبياء
عند ابن النفيس

١ – معرفة خاتم الأنبياء ﷺ[١]

قاد « ابن النفيس » بطل قصته « كامل » حتى آمن بالنبوات ، وأنها ضرورية لخير بنى البشر ؛ ثم فكر فعرف أنه « كلما جاء نبى زاد على المتقدم حتى يستوفى ما يحتاج إليه من الشرع ، وحينئذ يكون الناس قد عرفوا الله بوجه ، واشتاقوا إلى تعرف صفاته ، وخصائصه ، فيسهل عليهم قبول ما يرد به الأنبياء المتأخرون من ذلك ، ثم إذا عرف الناس صفات الله تعالى وجلاله ، وتحققوا قدرته التامة لم يعسر عليهم التصديق بأحوال المعاد وما يشتمل عليه من النسعادة والشقاوة الأبديتين ، فلذلك يسهل عليهم تصديق من يأتى بعد ذلك من الأنبياء » .

ومن هذا التفكير المنطقي أدرك « كامل » أنه ليس يمكن أن يكمل الغرض من النبوة بنبى واحد ، بل لابد من أنبياء[٢] يأتى سابقهم بما يدرج الناس إلى معرفة ما يأتى به المتأخر ، ولابد أن يكون كل متأخر منهم يأتى بما أبان السابق وزيادة حتى تكمل فائدة النبوة عند آخرهم ، فلذلك يحتاج الآخر منهم أن يكون عالما بجميع ما أبان به السابقون ، ومتمكنا من تبليغ جميع ما بلغه السابقون[٣] ؛ فلذلك لابد وأن يكون النبى الذى هو

---

(١) تعليق على الفصل الثالث من الفن الأول .

(٢) ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ آل عمران ١٤٤ .

(٣) ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة ٢٨٥) .

خاتم النبيين أفضل الأنبياء وأقومهم بما يحتاج إليه فى أمر النبوة ؛ كذلك ينبغى أن يكون كل متأخر من النبيين أفضل ممن قبله ؛ وذلك يصح إلا فى حالات الكوارث العامة مثل الطوفان أو الوباء مما يؤدى إلى هلاك الكثير من بنى البشر ، فهذا يحتاج إلى إعادة تدريج الناس إلى سهولة قبول الحق ، فبهذا الوجه لم يلزم أن يكون كل نبى أفضل ممن سبقه إلا النبى الأخير ، وهو خاتم النبيين ، فإنه على كل حال يجب أن يكون أفضل ممن سواه ، لأن النبوة بعده تنقطع[1] ، فلابد وأن يأتى بجميع ما يحتاج إليه فى تكميل فائدة النبوة ، فلذلك يجب أن يكون النبى الذى هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء جميعهم .

---

(1) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب ٤٠)

٢ – نسب خاتم النبيين ﷺ(١)

ولما تبين « كامل » أن هذا النبى الخاتم يجب أن يكون أفضل النبيين وأعلمهم .. قال فى نفسه إن هذا يجب أن يكون عند الناس بهذه المنزلة مما يسهل عليهم الإذعان لقبول مايخبر به من تفاصيل الشريعة ، وجميع صفات الله تعالى ، وبتفاصيل المعاد ، وإنما يكون هذا النبى عند الناس كذلك إذا كان نسبه شريفا جدا ، وأشرف ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء ، وأفضل ذلك ما كان إلى نبى قد اتفقت الملل على تعظيمه ؛ والنبى الذى هو كذلك هو ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه مع جلالة نفسه اتفقت الملل على تعظيمه ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوبا إلى ابراهيم صلوات الله على الجميع(٢) .

ويجب أن يكون هذا النبى الخاتم ﷺ غير منتسب إلى ملة غير ملة ابراهيم عليه السلام ، فلا يكون أولا يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ونحو ذلك ، لأنه لو كان من أهل ملة غير ملة ابراهيم(٣) لكان دعواه النبوة إلى الدين الذى يحدثه كافرا عند تلك الملة ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين ليس منسوبا فى أول أمره إلى ملة أخرى ، فلذلك يجب أن لا يكون من نسل يعقوب أو العيص عليهما السلام ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوبا إلى إسماعيل عليه السلام .

---

(١) تعليق على الفصل الأول من الفن الثانى .

(٢) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧ – ١٢٩)

(٣) ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام ١٦١)

٣ – موطن خاتم الأنبياء ﷺ(١)

تفكر «كامل» فى الموضع من الأرض الذى ينبغى أن يكون منها هذا النبى الخاتم ﷺ ، فقال فى نفسه : يجب ألا يكون من أهل البرّ كالأعراب ونحوهم ، فلابد وأن يكون من أهل المدن الأشرف ، وترجح التى تكون لها فضيلة العظمة الدينية فى نفوس الناس كأن تكون مشتملة على معبد عظيم عند الناس ، وأفضل المعابد هو البيت العتيق الذى شرّفه الله تعالى فإنه أول بيت وضع للناس ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين مولده «مكة المكرمة» .

ثم فكر «كامل» فى هل يقيم هذا النبى بمكة إلى وفاته أو يهاجر عنها إلى مدينة أخرى ؟ فقال فى نفسه ، أنه لما كان هذا النبى خاتم النبيين صلوات الله عليهم فالنبوة لا محالة منقطعة بعده ؛ فلذلك يجب أن تدون شريعته وأن يكثر الإشتغال بها ، ومما لابد منه فى حفظ عظمته أن تُسنّ الزيارة إلى قبره حتى يرغب الناس فى ذلك ويسافرون إلى قبره من أطراف البلاد ؛ ولذلك وجب أن يكون قبره فى غير مكة ، إذ لو كان بمكة لكانت زيارته تقع كالتّبع لزيارة البيت العتيق فكان يُظن على طول الزمان أن الحج لأجل البيت فقط ، وينسى قبر النبى ﷺ فيؤدى ذلك إلى نسيانه ، ويلزم ذلك بطلان شريعته(٢) .

وفكر «كامل» فى سبب انتقال هذا النبى الخاتم إلى البلد الذى يموت فيه ، فرأى أن ذلك لا يمكن أن يكون لأجل طلب المال ،

---

(١) تعليق على الفصل الثانى من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

(٢) هذا تعليل لدواعى الهجرة النبوية الشريفة ، أما أسبابها المباشرة وغير المباشرة فمكانها كتب تاريخ السيرة . وانظر : كتابنا : «خديجة أم المؤمنين : نظرات فى إشراق فجر الإسلام» .

ولا لطلب طيب الهواء ؛ أو كثرة الفاكهة ، أو رخاء سعره ؛ أو كثرة المياه فيه ونحو ذلك ، فإن ذلك كله لا يليق قصده بمنصب هذا النبى الخاتم . ولا يجوز أن يكون خروجه من مكة التى شرّفها الله تعالى عن اختيار منه وإلا كان مختارا للخروج من الموضع الأفضل إلى ما هو دونه ؛ فلابد وأن يكون خروجه من مكة اضطرارا ، ولا يمكن أن يكون ذلك على سبيل الهزيمة فى القتال ؛ فإن ذلك يحط من منزلته ؛ وإنما يكون خروجه على وجه يدل على عظمته فى نفسه ومهانة الكفار ؛ وذلك بأن يجتمع عدد كبير منهم ويتفقون على قتله خفية ، وينجو هو من ذلك ؛ وفى ذلك ذلّ للكفار ومهانة لهم ، وعظمة شأن للنبى ﷺ إذ لم يجسر عليه واحد أو إثنان ، وكان إطلاع الله سبحانه له على تآمرهم من جملة المعجزات[1] .

وإذا خرج خاتم الأنبياء من مكة فلابد وأن يعود إليها ، وأن يملكها[2] ؛ لأنه لابد وأن يوجب الحج إليها ، فيكون حجها واجبا عليه أيضا ؛ ولا يمكن دخوله فيها وهى فى أيدى الكفار . وإلا كان دخوله فيها يكون على وجه يكون كأنه فى ذمتهم ؛ وذلك مما لا يليق بمنصبه . ولو لم يحكمها لقال أصحابه : كيف يجب الحج علينا إلى موضع لعلّه لا يؤذن لنا فى الدخول فيه ؟.

وفكر «كامل» فى المدينة التى ينبغى أن يكون انتقال النبى ﷺ إليها ، فرأى أن الأولى أن تكون مختصة بأمر لأجله يليق بهذا النبى ﷺ أن يكون قبره فيها ، وذلك كما إذا كانت هى المدينة التى مات فيها والده ، وتلك المدينة هى **يثرب** .

---

(١) هذه الفقرة تعليل لبعض أسباب اختيار أن تكون الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب ؛ وبيان لنصر الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم على منْ تآمر لقتله ؛ «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» الأنفال ٣٠ .

(٢) ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . (سورة النصر) .

٤ - تربية خاتم الأنبياء ﷺ (١)

وفكر «كامل» فقال فى نفسه : لما كان هو خاتم النبيين وفاضلهم وسيدهم وبه تكمل الشريعة ، وبعده ينقطع الوحى ، فلابد وأن يكون رسولًا إلى الناس كلهم حتى لا تبقى طائفة يحتاجون إلى بعثة نبى آخر ؛ ولذلك فإن الله سبحانه قد فضّله على كافة الرسل ، فاصطفاه ونشأه على عينه(٢) ، بحيث كان صالحا لحمل الرسالة وتبليغها ، وحماه من كل ما يعوق حمل هذه الأمانة(٢) ، ولذلك شاءت حكمة الله العليم العزيز أن يولد يتيم الأب(٢) ، وأن ترضعه غير أمه ، وأن تكون رضاعته فى غير مكة المكرمة ، ثم تموت أمه ، وأن يربيه أقاربه المقارنون لمنزلة أبيه فى الحرمة .

وفكر «كامل» محاولًا أن يصل إلى الحكمة الإلهية العظمى فى كل ذلك ؛ فعلَّله تعليلًا تربويا منطقياً ، وقد كان من وراء حكمة الله سبحانه أن جاء ﷺ بغاية الإعتدال فى أخلاقه(٣) وفى مزاجه ، فكان لا ينافر أحدا من الناس مع اختلاف أخلاقهم وأمزجتهم .

---

(١) تعليق على الفصل الثالث من الفن الثانى

(٢) ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى ١ - ٧)

(٣) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ٤) .

٥ – حال خاتم الأنبياء ﷺ فى أمور الشهوات (١)

وفكر « كامل » فيما ينبغى أن يكون عليه حال خاتم النبيين فى أمر الشهوات ، فقال فى نفسه : إن هذا لأجل اعتدال مزاجه ينبغى أن تكون جميع شهواته بجملتها متوسطة ، لكن الأليق بهذا النبى ﷺ أن تكون بعضها خامدة وإلى ضعف كشهوة الأكل ، وذلك لأن قلة الأكل من سنة الأولياء ، وكثرته من سنن أولى الشره ؛ وبعضها الأليق به أن يكون قويا كشهوة الطِّيب وشهوة العبادات وشهوة الباه (٢) ، وقد أمعن « كامل » فى التفكير عن الأسباب التى تدعو لذلك ، ووصل إلى تعليل سديد أقنعه بضرورتها .

---

(١) تعليق على الفصل الرابع من الفن الثانى .

(٢) لم تكن شهوة الباه متحكمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرغم ما وهبه الله من صحة وعافية فى شبابه لم يفكر فى الاتصال الجنسى مثل غيره من شبان قريش وصبر حتى يسّر الله له زواجا حلالًا من خديجة (أم المؤمنين) بعد خمسة وعشرين عاما من عمره . وقد عاش مخلصا ووفيا لها فلم يتزوج غيرها حتى توفيت وقد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها ، ولم يفكر فى اتخاذ جارية شابة ليعاشرها معاشرة الأزواج كما كان يفعل كل العرب فى زمانه . أما زوجاته بعد وفاتها فلم يكن من بينهن غير واحدة بكرا ، وكان الأخريات زوجات ترملن ، وكان زواجه صلى الله عليه وسلم منهن لأسباب من بينها توثيق الصلات مع ذويهن بمصاهرتهن تعزيزا لقوى الإسلام ولتقوية الروابط بين المسلمين . وكان إخلاصه للسيدة خديجة بعد وفاتها مما يدل على سمو خلقه ووفائه . انظر كتابنا بعنوان : (خديجة أم المؤمنين : نظرات فى إشراق فجر الإسلام ، الفصل الحادى عشر بعنوان مناقب السيدة خديجة) .

٦ – هيئة خاتم الأنبياء ﷺ فى خلقته : (١)

فكر « كامل » فى كيف ينبغى أن يكون هذا النبى ﷺ فى خلقته ؛ فقال فى نفسه : إنه لا يجوز ألبتة أن يكون خلقة خاتم النبيين فى هيئة بدنه أمر مستنكر ، ولا يجوز أن يكون فى أحد أعضاء جسمه شين أو مرض ؛ بل يجب أن يكون متناسب الأعضاء ، متوسط الخضب ، ويكون بسّاماً هاشا باشا جيد الهضم والاستمراء ، قوى الحواس والذهن ، فصيح اللسان(٢) لأن هذه الصفات هى صِفات المعتدلى الأمزجة .

٧ – حال خاتم الأنبياء فى الأمراض ومقدار العمر(٣)

وفكر « كامل » فى كيف ينبغى أن تكون حالة هذا النبى ﷺ فى الأمراض : فوصل إلى أن من الأمراض مالا يجوز حدوثها لهذا النبى ﷺ وذلك كالجنون ، والصرع ، وكالبرص ، والجذام ، والزمانة والعور والعمى . أما الأمراض الحارة كالحميات وكذلك الأمراض الباردة التى لا غائلة لها ولا تستقبح كالزكام والنزلة فكل ذلك قد يكثر حدوثه له ، وتكون أمراضه قصيرة المدة .

أما عمر هذا النبى ﷺ فيجب أن يبلغ فيه الحدّ الذى يكمل فيه العقل ليمكن حينئذ حدوث النبوة وذلك هو سن الكهولة . ولا يجوز أن يبلغ إلى حد يظهر فيه الخرف ونقصان الرأى ؛ فلذلك يجب أن يموت هذا النبى ﷺ بعد انقضاء سن الكهولة وقبل استحكام الشيخوخة .

---

(١) شرح وتعليق على الفصل الخامس من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم « أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر ، فأنّى يأتينى اللحن ؟ » السيوطى الجامع الكبير ٨٥٨٣ ، رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) شرح وتعليق على الفصـ[illegible]ـادس من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

٨ - هل ينبغى أن يكون لخاتم الأنبياء ﷺ أولاد ؟ (١)

وسأل «كامل» نفسه : هل ينبغى أن يكون لهذا النبى ﷺ أولاد ؟ وقد هداه تفكيره إلى أن عدم إنجابه أولادا يكون نقصا فيه ؛ ولذلك فلابد وأن تكون له ذرية . ولما كان مزاجه شديد الاعتدال فيجب أن يكون له بنين وبنات . ويجب أن لا تطول أعمار الذكور منهم لأن أعمارهم إذا طالت بلغوا إلى سن النبوة ؛ ولما كان لا يجوز أن يكونوا أنبياء لأنه هو خاتم النبيين ، فان طول عمرهم يكون نقصا فى حقه ، والانحطاط عن درجة كثير من الأنبياء ، فإن كثيرا من الأنبياء كان أولادهم أيضا أنبياء ، فلذلك يجب أن لا تطول أعمارهم (٢) . أما بنات هذا النبى فيجوز أن تطول أعمارهن إذ النساء لسن أهلا للنبوة .

٩ - كيفية دعوة خاتم النبيين ﷺ الناس إلى اتباعه (٣)

وسأل «كامل» نفسه : كيف ينبغى أن تكون دعوة هذا النبى ﷺ الناس إلى الحق وإلى متابعته ؟ وبعد تفكير طويل أدرك أنه إذا كان قد ثبت أن هذا النبى ﷺ عظيم القدر جداً ، عام الرسالة ، لم يجز أن تكون رسالته إلى ملك كما أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ، وذكر أسباب عدم هذا الجواز ، ولذلك كان ولا بد أن تكون رسالته إلى الناس كلهم وعلى السواء .

---

(١) تعليق على الفصل السابع من الفن الثانى

(٢) ﴿ ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب ٤٠)

(٣) تعليق على الفصل الثامن من الفن الثانى

وينبغى كذلك أن تكون دعوته أولًا بلين ورفق (١) واحتمال لما يصدر منهم من مكروه (٢) ، وأما إذا كثر أصحابه وأحسّ من نفسه بالقوة على المقاتلة ، فيجب أن تكون دعوته للناس حينئذ بالقهر والسيف (٣) ، وقد اقتنع بذلك بعد بيان ما يحتّم عليه اتباع ذلك .

١٠ – فى اسم هذا النبى ﷺ (٤)

لما ثبت عند « كامل » وجوب عظمة هذا النبى ﷺ عند الناس ، وجب أن لا يكون فى اسمه أو اسم أبيه أو جده ما يحطّ قدره ويُنقص منزلته ، فلذلك لا يجوز أن يكون اسمه اسم شيء محتقر مثل « كلب » ونحو ذلك مما جرت عادة العرب بالتسمية به . ولا يجوز أن يكون اسما مصغرا مثل حُميد أو عُبيد . ولا يجوز أيضا أن يكون اسمه مما فيه كبر وزيادة تعاظم كشاهنشاه ونحو ذلك .

---

(١) ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥)

(٢) ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم ٦٠)

(٣) ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦٠ – ٦١) .

﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠)

(٤) تعليق على الفصل التاسع من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

١١ – فى كتاب هذا النبى ﷺ (١)

وفكر « كامل » هل ينبغى أن يكون لهذا النبى ﷺ كتاب ؟ وإذا كان له كتاب فكيف ينبغى أن يكون ذلك الكتاب ؟ وقد رأى « كامل » أنه ينبغى أن يكون له كتاب ؛ لأن من يأتى من الأنبياء بغير كتاب فهو أصغر منزلة ممن له كتاب (٢) ولما كان هذا النبى خاتم الأنبياء وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ شريعته أكثر ؛ فلو نُسِى شرعه لفُقد الشرع أصلًا لتعذّر حدوث شرع جديد ، وإنما يكون ذلك إذا كان تأليف هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة على أفضل الوجوه (٣) ؛ فلذلك كان القرآن العزيز فى غاية الفصاحة

---

(١) تعليق على الفصل العاشر من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

(٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ (النساء ١٣٦) .

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء ٢٢٣) .

(٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (هود ١٣) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (يونس ٣٨) .

سنة النبى ﷺ

أما بيان كيفية تعرف « كامل » لسنة النبى ﷺ فكان ذلك هو موضوع الفن الثالث من الرسالة ، يشتمل هذا الفن على بابين :

الباب الأول : فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من التكاليف العلمية .

الباب الثانى : فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من التكاليف العملية .

أما الباب الأول ، فإن يشتمل على فصلين ، وكان موضوع الفصل الأول هو :

فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من صفات الله تعالى (١)

قال « ناطق بن فاضل » (٢) : إن « كامل » حين بلغ من العمر قرب آخر الشبيبة ، فكر فيما ينبغى أن يأتى به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من صفات الصانع تعالى ؛ فرأى أنه ينبغى أن يعرف الناس أن لهم صانعا(٣) ، وأن هذا الصانع من البهاء والجلالة إلى حد لا نهاية له(٤) ، وأنه يجب أن يطاع(٥) وأن يُعبد ، وأنه لا إله إلا هو(٦) وأنه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾(٧) ونحو ذلك من الصفات التى تليق بجلال الله تعالى .

---

(١) تعليق على الفصل الأول من الفن الثالث

(٢) « ناطق بن فاضل» هو راوية « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

(٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة ٢١)

(٤) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ . هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الحشر ٢٢ - ٢٤) .

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (النساء ٥٩) .

(٦) ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص) .

(٧) الشورى ١١

وهذا النبى صلى الله عليه وسلم لا يكلف الناس مالا يسهل الوقوف عليه كما لو قال إن الله تعالى ليس فى داخل العالم ؛ ولا هو فى خارجه . وإنه ليس بجسم(١) ... الخ . فإنها إما أن تكون عندهم كالأشياء التى ليس لها معانٍ ؛ وإما أنها تشوشهم وتحيرهم وتصرفهم عن معايشهم وتدبير أحوالهم ، وهذا مناف للمقصود الأول من النبوة ؛ فلذلك ينبغى أن يكون ذكر النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الأشياء ذكرا مجملًا من غير تفصيل .

أما موضوع الفصل الثانى من الباب الأول فكان موضوعه :

ما يأتى به خاتم النبيين من أمر المعاد (٢)

وفكر « كامل » فى : هل يخبر هذا النبى صلى الله عليه وسلم بأمر المعاد ؟ وهل يخبر به على أنه روحانى أو على أنه بدنى ؟ أو يخبر به على أنه من مجموع الأمرين ؟(٣) .

فرأى « كامل » بعد البحث أنه لابد لهذا النبى صلى الله عليه وسلم من ذكر المعاد وتفصيل أحكامه ؛ وأنه لا يجوز أن يجعل المعاد روحانيا فقط ؛ فإن أذهان أكثر الناس تقصر عن درك اللذات والآلام الروحانيين . وتوسع « كامل » فى شرح هذا المعنى ووصل إلى أنه لابد وأن يجعل هذا النبى صلى الله عليه وسلم المعاد مركبا من البدن ومن النفس معا(٤) .

---

(١) ورد فى مقدمة مسلم عن « ابن مسعود » مرفوعا قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

(٢) تعليق على الفصل الثانى من الباب الأول من الفن الثالث من « الرسالة الكاملية » .

(٣) هذا الباب كله معارضة للشيخ الرئيس ابن سينا وغيره من الفلاسفة الذين قالوا أن المعاد أمر روحانى فقط . وانظر ما سبق أن أوضحناه عند الكلام على معارضة ابن النفيس للشيخ الرئيس « ابن سينا » .

(٤) وانظر قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل ٣٨) .

وأغرق « كامل » فى التفكير فى حقيقة هذا المعاد ، وكيف هى ، فوصل إلى أن الإنسان مركب من بدن ونفس : فالبدن هو هذا الشيء المحسوس ؛ وأما النفس فهى التى يشير الإنسان إليها بقوله « أنا » ؛ وهذا المشار إليه لايجوز أن يكون هو البدن أو أجزاؤه . وهنا أخذ « كامل » يبحث فى الفرق بين البدن والروح حتى وصل إلى أن البدن متغير : فبدن الإنسان وهو طفل ليس هو بدنه وهو شيخ ، أما الروح الذى يشير إليه الإنسان بقوله « أنا » فهو على حاله دائما ، فالنفس شيء غير البدن ، إذ البدن جسم محسوس والنفس جوهر وهى مجردة عن المادة الجسمانية ، وهى لاتوجد قبل وجود المادة الممتزجة التى يكون منها بدن الإنسان ، فإذاً نفس الإنسان إنما يمكن وجودها فقط بعد وجود المادة الممتزجة مزاجاً إنسانياً ، وكذلك يستحيل فقدان هذه المادة مع وجود نفس الإنسان ، ونفس الإنسان غير قابلة للعدم لأنها لامادة لها ، وكذلك فإن المادة الممتزجة بها مزاجا إنسانيا التى هى عجب الذنب ، لايمكن عدمها(١) ، فلذلك هى تبقى بعد موت البدن وبلائه ، وتكون النفس عند بقائها مدركة عالمة فيحدث لها حينئذ نعيم وألم ، وهما اللذان يكونان فى القبر . وإذا جاء الوقت الذى يكون فيه المعاد ، نهضت النفس حينئذ وغذت هذه المادة بجذب المواد إليها وإحالتها إلى متشابهتها ، فيحدث من ذلك البدن كرَّة أخرى ، ويكون هذا البدن هو ذلك البدن الأول بمعنى وحدة هذه المادة فيه مع وحدة هذه النفس ، وبذلك يكون المعاد ، وتكون النفس بعد ذلك غير تاركة للإغتذاء ألبتة ، فلذلك لا يعدم البدن حينئذ ألبتة ، أما إذا كان فى نعيم فظاهر ، وأما إذا كان فى النار فلأن تلك النار كلما احترقت الأجزاء الحادثة التى فى ذلك البدن ، عادت تلك النفس وولدت من المواد التى تغذو بها تلك المادة بدنا آخر ، وهكذا دواليك(٢) .

---

(١) الحديث الشريف : « كل ابن آدم يبلى إلا العجْب » انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير جـ٣ .

(٢) هذا الباب كما قلنا سابقا هو معارضة للفلاسفة الذين قالوا إن المعاد أمر روحانى فقط ، متناسين أن الله وحده هو الخلاق العظيم يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

فى العبادات التى يأتى بشرعها هذا النبى ﷺ (١)

ولما قرب « كامل » من سن الأربعين تفكر فى أنه : لما كان هذا النبى صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ جلالته وشريعته أكثر ، فلذلك لابد وأن يدبر هذا النبى صلى الله عليه وسلم لبقاء ذلك ودوامه ما دامت السموات والأرض ، وإنما يمكن الحفظ بتكرار الشيء الذى يرام حفظه فى الأجيال ، فلذلك لابد لهذا النبى من أن يسن تكرار ذكره حتى ينحفظ هو وعظمته وشريعته .

وهذا الذكر قد يكون بأمر آخر يسنه ، وقد يكون مقصودا بنفسه ، فإذا كان مقصودا بنفسه فقد يكون ضمن عبادة ، وقد لا يكون كذلك .

فأما الذكر الذى قد يكون فى أمر آخر يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالصيام لأن الصائم الذى ترك ما اعتاد من الطعام والشراب يعلم أن فائدة ذلك هى التى وعده بها النبى صلى الله عليه وسلم من رضى الله تعالى وثوابه . وكالزكاة ؛ وذلك لأن المزكىٍّ لابد وأن يخطر بباله أن إخراجه المال لغيره إنما هو ابتغاء رضى الله تعالى كما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الذكر الذى هو ضمن عبادة فكما يكون فى الصلاة والحج ففيهما ذكر الله ورسوله .

وأما الذكر المفرد وهو المقصود بنفسه فكما يكون فى كلمة الشهادتين .

---

(١) تعليق على الفصل الأول من الباب الثانى من الفن الثالث .

لذلك لابد وأن يكون شرع هذا النبى صلى الله عليه وسلم مبنيا على خمسة أشياء : منها قول مفرد كالشهادتين ، ومنها فعل بدنى محض وهو كالصلاة ، ومنها ترك بدنى محض وهو كالصوم ، ومنها مالى محض وهو كالزكاة ، ومنها مجتمع من الأمرين ــ وأعنى به ــ بدنى مالى وهو كالحج .

ومن هذه العبادات ما إتيانه مشق جدا كالحج فلا يُكَلَّف الناسُ تكرار فعله بل يكفى إتيانه فى العمر مرة ؛ ومنها ما إتيانه سهل جدا فيحتمل الناس تكراره فى اليوم مراراً كالصلاة ، فلذلك كانت الصلاة أكثر تذكيرا بالله تعالى وبرسوله ؛ فلذلك كانت تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومنها ما هو بين هذين من المشقة كالصوم والزكاة ، فلذلك ينبغى أن يجعلا فى العام مرة واحدة ؛ وأما الشهادتان فإن اعتقادهما هو الإيمان ، والإيمان يجب أن يكون مستمراً .

فى المعاملات التى يأتى بشرعها النبى ﷺ (١)

تفكر « كامل » فيما ينبغى أن يسنه النبى صلى الله عليه وسلم من المعاملات ، فرأى أن اجتماع الناس وتعاشرهم إنما يتم بأن تكون معاملتهم على وجه العدل ، فلذلك يجب أن يمنع النبى صلى الله عليه وسلم من كل جور ، ولا يمكّن ألبتة من حيف على أحد ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وعن القناعة بالبطالة بحيث يكون لكل أحد نفع ، وأن يسن لهم ما يقطع النزاع بينهم ... إلى غير ذلك مما ينظم شئون الجماعة .

---

(١) تعليق على الفصل الثانى من الباب الثانى من الفن الثالث : وفيه يبين « ابن النفيس » حاجة المجتمع الإنسانى إلى الشريعة التى تمنع الجور والظلم والإعتذار ؛ وهو بذلك يعارض غلاة المتصوفين الذين قالوا إنه لا حاجة للشريعة.

في الأشياء التي ينبغي أن يسنها النبي ﷺ في تدبير المنزل (١)

وفكر « كامل » في أنه لابد لتكثير بني الإنسان من أن يعاشر الرجل المرأة فيكون منهما الذرية ، وتكون هذه العشرة بالزواج حتى يثبت به النسب ، ولذلك يجب أن ينهى هذا النبي عن الزنا حتى لا يأخذ المال بالإرث إلا مستحقه ، كما ينهى عن الشذوذ الجنسي الذي لا ينتج عنه ذرية كاللواط والمساحقة . وينبغي الإعلان عن الزواج حتى لا يتعذر ثبوت النسب والنفقة ، ولذلك فينبغي فيه الإشهاد . كما ينبغي أن يجوِّز للرجال كثرة الزوجات ، ولا يجوِّز للنساء كثرة الأزواج . كما ينبغي أن يجعل للفرقة بين الزوجين سبيلًا لما قد يقع بينهما من النفرة ، فلا تجود عشرتهما ، وأن يجعلها بيد الرجل لأنه هو أتمهما عقلًا ، ويلزمه النفقة ، وليس يمنع المرأة من ذلك تماما ، كما لو كان الزوج معسرا فإن لها في هذه الحالة أن تطلب الطلاق ، وأن تكون النفقة على الزوج وعلى المرأة تدبير المنزل

فيما يسنه النبي ﷺ من العقوبات (٢)

وفكر « كامل » هل يحتاج النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل من جملة الشرع الذي يسنه ملكاً يحكم بذلك الشرع ويلزم الناس اتباعه ؟ أم يكتفي بتفصيل أحكام المعاملات وغيرها والناس يرجعون إلى ذلك

---

(١) تعليق على الفصل الثالث من الباب الثاني من الفن الثالث : وفيه يستمر « في بيان فضل الشريعة في تنظيم الحياة الاجتماعية » .

(٢) تعليق على الفصل الرابع من الباب الثاني من الفن الثالث من « الرسالة الكاملية » : وفيه يستمر « ابن النفيس » في بيان حاجة المجتمع لأن تفرض الشريعة العقوبات الزاجرة لمن يخرج عن تعاليم الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بأنفسهم ؟ ورأى « كامل » بعد تفكير أن من الناس من لا يردعه علم بنهى الشرع فقط ، وإنما ينتهى عن الظلم بقاهر يقهره فيمتنع عن الظلم ، وذلك القاهر يجب أن يكون مطاعا وهو الملك ، فيجب أن يكون لكل مدينة ملك أو قائم مقامه .

ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكون فيهم الجور ، فلذلك يجعل أمرهم إلى واحد يحكمهم وذلك هو الخليفة ، وعليه أن ينهى عن كل أمر يؤدى إلى فساد حال النفس أو حال المال أو حال العقل ، فلذلك يحرم القتل ، والسرقة ، والغضب ، والسكر ، ويجعل لكل واحد من ذلك ونحوه عقوبة تردع الناس عن الإقدام عليه . ووصل « كامل » بعد هذا التفكير إلى نوع العقوبات المناسبة التى تردع الناس عن ارتكاب أية مخالفة لما سنه الشرع .

حال المسلمين بعد وفاة النبى ﷺ

كان «ابن النفيس» يعتمد فى الفنون الثلاثة الأولى من «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» على ما جاء فى القرآن المجيد، وعلى ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة، ولذلك عنينا بشرح تلك الآراء، ودعمنا كل باب من أبواب تلك الفنون الثلاثة بالاستشهاد ببعض الآيات القرآنية الكريمة، وببعض الأحاديث النبوية الشريفة مما يبيّن المصادر التى اعتمد عليها فقيهنا «ابن النفيس» لأنها كانت الينبوع الذى استقى منه آراءه، واعتمد عليها فى كتابة الفنون الثلاثة الأولى من «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» وهى التى كان يرمى من وراء تأليفها أن يبيّن للناس أن تعاليم الإسلام هى الكفيلة وحدها لضمان السعادة للإنسان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، معارضا فى ذلك آراء بعض الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية، ومبينا فساد بعض ما ذهب إليه غلاة المتصوفين الذين تأثروا بالأفلاطونية الحديثة التى انبعثت من مصر على يد «أفلوطين» ومن تبعه من المفكرين.

وقد التزم «ابن النفيس» فى هذه المعارضة بتأييد آرائه بالحجج القوية التى جاءت فى فصول مرتبة وفق تسلسل طبيعى متصل الحلقات، كما التزم أن يكون أسلوبه خاليا من المصطلحات الفقهية والفلسفية، وكذلك من المصطلحات والتعبيرات الغامضة التى لجأ إليها كثير من الفلاسفة والمتصوفين، ولذلك جاءت معارضته دفاعا عن العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية واضحة المنهج وسهلة الأسلوب، مما جعلها صالحة للانتشار فى أوسع مجال، ويمكن أن يتفهمها بسهولة أكثر الناس من مختلف المستويات العلمية والثقافية.

وكان من الطبيعى أن تنتهى « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » عند نهاية الفنون الثلاثة الأولى ، ولكن العالم المفكر « ابن النفيس » رأى أن يستطرد فى قصته ليبين للناس فى « الفن الرابع » رأيه فيما وقع للمسلمين بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، معتمدا فى ذلك على آرائه التى كونها من دراسته لبداية التاريخ الإسلامى ؛ ثم تطرق أثناء ذلك إلى دراسة حال المسلمين فى العصور المتأخرة وبخاصة فى القرنين السادس والسابع ، محاولًا أن يبين الأسباب التى أدت إلى ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام التتار ، كما حاول أن يوضح الأسباب التى ساعدت على صمود مصر والشام أمامهم ، ذاكرا الكثير من أخلاق حكام المسلمين فى عهده ، ومتحدثا عن كثير من عاداتهم وصفاتهم ؛ ولا شك أن رأى « ابن النفيس » فيما حدث فى زمانه له قيمته الخاصة فقد عاصر الكثير من الحوادث الجسام ، ومهدت له زعامته فى مهنة الطب الاتصال بالحكام وبكثير من رجالات عصره وبجماهير الشعب ؛ ولكننا ، برغم ذلك كله ، لا نستطيع أن نتفق وإياه على بعض ما استنتجه من آراء نرى أن المقدمات المنطقية والحجج التى ذكرها لا تسوغ له أن يصل إلى تقريرها ، وسوف نذكر رأينا عند التعليق على كل فصل من فصول هذا الفن .

الفصل الأول :

تكلم « ابن النفيس » فى هذا الفصل الأول عن الخلافة ، وبيّن الحاجة إليها بعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لأنه « لابد وأن يكون بعده من يدعو الناس إلى دينه ويلزمهم اتباعه » فذلك هو خليفته ، « وينبغى أن يكون ذلك فى كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما » واشترط « أن يكون كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس »

ولذلك خلص « ابن النفيس » إلى ضرورة أن يكون الخلفاء عقيب موت النبى صلى الله عليه وسلم ممن صحب هذا النبى وعظمه .

واستطرد بعد ذلك فى التفكير حتى وصل إلى الحكمة التى أدت إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوص بالخلافة لأحد من أصحابه قبل انتقاله للرفيق الأعلى ، وبيّن بعد ذلك السبب فيما وقع من التنازع على الخلافة بين الصحابة السابقين بالايمان .

الفصل الثانى :

وفيه فكّر « كامل » حتى تعرف وفيه الأسباب التى دعت إلى « أن ينحاز كل مدع للخلافة بطائفة تتعصب له وتنازع مخالفيه » والأسباب التى دعت إلى قيام العلماء بالدعوة لحفظ شريعته بالفكر والرأى ، مما أدى إلى تفنن « الأقوال والمذاهب » وأن « يحرص كل واحد على نصرة رأيه ويدعو الناس إليه » ولذلك « انقسمت ملّة هذا النبى صلى الله عليه وسلم إلى طوائف مختلفة الآراء فى أصول دينه وفروعه ، فلذلك يتعادون ويتنازعون » .

« ولما كان هذا النبى هو خاتم النبيين فلابد وأن تكون شريعته محفوظة دائما ، وذلك بحفظ أقواله وأفعاله ، وبحفظ كتابه ومعرفة معانيه ، فلذلك احتيج إلى تعرف علم الحديث ، وعلم التفسير ونحو ذلك من العلوم الشرعية ، فلذلك لابد وأن تكثر الكتب والتصانيف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بمدة طويلة » .

الفصل الثالث :

سبق أن ذكرنا فى المقدمة عند الكلام على الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية أيام « ابن النفيس » أن الحروب والكوارث التى ابتليت بها البلاد الإسلامية فى القرنين السادس والسابع على أيدى المغول شرق

بلاد المسلمين ،- كانت تلك الكوارث والحروب سببا فى شعور كثيرين من علماء المسلمين وأتقيائهم بعقدة الذنب ، ولذلك اعتقد الكثيرون منهم ، ومن بينهم « ابن النفيس » ، أن ما حلّ بالمسلمين من تلك النكبات كان بسبب غضب الله سبحانه عليهم لعدم تمسكهم بالدين الإسلامى الحنيف ، وعدم التزامهم بشريعته التى تحض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولإغراقهم فى الملذات التى نهى الله عنها ؛ وقد خصص « ابن النفيس » لشرح هذا الشعور الفصل الثالث من الفن الرابع من « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » تحت عنوان « فى كيفية تعرف « كامل » المعاصى التى لابدّ وأن تقع لملّة هذا النبى عليه الصلاة والسلام » .

ويظهر أن كثرة النكبات التى حلّت بالمسلمين على أيدى التتار والصليبيين قبل عصر « ابن النفيس » وأثناء حياته جعلته يخطىء ولا يلتزم بالتفكير المنطقى السليم ، ولا يتأنى فى البحث ، ولذلك نراه يقود بطل قصته إلى أن يقرر أن غضب المولى وعقابه للمسلمين كان بسبب عصيانهم ووقوعهم فى مخالفتين :

المخالفة الأولى : قوله« لقد ثبت أن هذا النبى لابد وأن يحرّم شرب الخمر لأنه يُذهب صحة العقل ، وأن يكثر فى ملة هذا النبى مخالفته فى تجنب الخمر » ..

ومن الغريب أن يعلل « ابن النفيس » سبب هذا العصيان واقبال الناس على الخمر بقوله : «لأجل شدة ميل النفوس إليها مع أنها مما لا يُستَغنَى عنه فى حفظ الصحة وفى دفع كثير جدا من الأمراض »[1] ، لأن ذلك يتنافى مع ما شهد به المؤرخون من أصحاب كتب التراجم[1] أن هذا العالم كان ورعًا يخشى الله ، « حتى أنه فى علّته الأخيرة التى توفى فيها

---

(١) لعل حرفة ابن النفيس الطبية ، غلبت عليه ، فانساق لمعلومات أطباء عصره ، وبعضها مترجم عن أمم أخرى لاتحرم الخمر ، ونسى ما تأمر به الشريعة الإسلامية . (المراجع) .

أشار عليه بعض أصدقائه الأطباء أن يتناول شيئاً من الخمر إذ كانت علّته تناسب أن يتداوى بها على ما زعموا ، فأبى أن يتناول شيئا من ذلك وقال : لا ألقى الله وفى باطنى شىء من الخمر » .

نحن لا ننكر أن شرب الخمر أمر منكر يزيّنه الشيطان ولكن هل كان كل المسلمين يحتسون الخمر ؟ وهل يعاقب الله سبحانه كل المسلمين لأن نفرا منهم ، قلّ أو كثر ، حاد عن الصراط المستقيم وضعُف واستسلم لغواية الشيطان فشرب الخمر فيسلط التتار على جميع المسلمين فيقتلوا رجالهم ، ويذبحوا نسائهم وأطفالهم ، ويحرقوا مدنهم ؟ وهل التتار لم يكونوا يشربون الخمر ؟ لا شك أن أسباب ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام التتار فى القرنين السادس والسابع ترجع إلى أسباب كثيرة ، وإلى تدهور عميق فى المجتمع الإسلامى وإلى فساد حكّامه ، وقد يكون من بينها شرب الخمر وما لها من أثر قوى فى فساد من يتعاطاها وفى إضعاف الأمة كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾[2] .

المخالفة الثانية : وصل « كامل » فى تفكيره إلى أن « هذا النبى لا بد وأن يحرمّ ظهور النساء والانكشاف للأجانب ، فلما أمر بحجبى النساء ، وعَسُر الزواج على كثير من الناس ، وعسر على من له زوجة أن يستصحبها معه فى الأسفار والغزوات ، فلذلك كثر فى هذه الأمة اللواط » .

ويؤسفنا أن نقرر أن الفقيه المتطبب ابن النفيس خلط عند دراسة هذا الموضوع بين ما نهى الله عنه فى كتابه العزيز وبين ما آل إليه

---

(١) رواها الكثيرون ، وانظر من مصادر المبحث الأول « مسالك الأبصار لأخبار ملوك الأمصار » للعمرى .
(٢) المائدة ٩١ .

حال المرأة فى البلاد الإسلامية بعد مرور عدة قرون على انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وبخاصة حالها بعد انتهاء القرون الأربعة الأولى التى علا فيها نجم الحضارة الإسلامية واتسعت فيها رقعة المملكة الإسلامية ، وازدهر أثناءها الاقتصاد فى بلاد المسلمين فتضخمت الثروات ، واختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة فتأثروا بهم فى عاداتهم وأخلاقهم وكثر الاقبال على شراء الجوارى ، وتحكمت غيرة الأزواج على نسائهم مما أدى إلى احتجاب المرأة عن المشاركة فى الحياة العامة إلا بنات بعض العلماء وبعض الأثرياء .

إن الإسلام لم يأمر قط بخبى النساء وإنما أمر بقوله: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾[1] وقال تعالى : ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[2]
وكان النساء فى صدر الإسلام ملتزمات بتنفيذ هذه الأحكام ، يرتدين الجلابيب التى لا تظهر مفاتن أجسامهن وتغطّى جميع البدن بما فى ذلك الرأس والرقبة والصدر ، فلا يكشفن إلا الوجه والكفين ، كما كن يخفين زينتهن إلا على أزواجهن ومحارمهن ؛ ولذلك كان النساء تخرجن إلى الصلاة فى المساجد ، وكن يشتركن مع جيش المسلمين فى الغزوات مع النبى صلى الله عليه وسلم فقد كن يسعفن جرحى المسلمين ، ويسقين العطشى ، ويشجعن الرجال على الكفاح ، وكان منهن من تحارب فى صفوف المجاهدين .

---

(١) النور ٣١ .
(٢) الأحزاب ٥٩ .

وفى موقعة أحد عندما دارت الدائرة على المسلمين ، وركّز المشركون هجومهم على النبى نفسه يريدون أن يفتكوا به ، جاهد الرسول الكريم جهاد الأبطال ، وضرب أروع الأمثلة فى الشجاعة والصبر ، واستبسل لفيف من المهاجرين والأنصار فى الدفاع عن نبيهم ، وتلقوا عنه بأجسامهم الطعنات والضربات والنبال ، وكان من بين هؤلاء « أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية من بنى النجار » وكان يكافح معها زوجها وولداها « عبد الله وحبيب » فصمدوا وهم جميعا يذودون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجرحت أم عمارة اثنى عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، وأصيب ابنها « عبد الله فى عضده ، فأقبلت أمه فعصبته وقالت « انهض بنى وضارب القوم » فجعل رسول الله يقول عنها : « ما التفتُّ يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل عنى » (٣) .

وفى هذه الموقعة « علمت فاطمة الزهراء أن خاتم الأنبياء قد جرح ، فهرعت برغم ضعفها بعد ولادة « الحسن بن على » إلى أفضل الآباء تضمد جراحه بحكمتها وحنانها » .

ولا يفوتنا أن نذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اصطحب معه فى بعض غزواته بعض أمهات المؤمنين ، وفى العام السادس للهجرة اصطحب معه فى غزوة الحديبية « أم المؤمنين أم سلمة » ، وقد أشارت على النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى المسلمين فيحلق رأسه ثم يذبح أمامهم الهدْى ، فاستحسن الرسول الكريم هذه المشورة ، ونفذها على الفور ، فهدأت نفوس المسلمين وأقبلوا جميعا على الاقتداء به (٤) .

---

(١) النور ٣١ .
(٢) الأحزاب ٥٩ .
(٣) متفق عليه فى مراجع السيرة ، وانظر التفاصيل فى كتابنا خديجة أم المؤمنين : نظرات في إشراق فجر الإسلام ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٤) متفق عليه فى كتب السيرة .

آما قول «ابن النفيس» «أن الزواج عَسُر على كثير من الناس» فقد حض الله سبحانه على تزويج الفقراء من المؤمنين الصالحين ، ووعد أن يغنيهم من فضله ، كما أمر الذين لا يجدون نكاحا أن يصبروا ويستعففوا إلى أن يغنيهم الله فيزوجهم كرما منه سبحانه إذ يقول : ﴿ **وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾(1) ، وقال صلى الله عليه وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(2)

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا لنفكر ونعرف ماذا حلّ بالبلاد التى أباحت الاختلاط بين الرجال والنساء دون مراعاة للتمسك بالفضيلة والعمل على المحافظة على العرض . ويؤسفنا أن نقرر أن اللواط انتشر جنبا إلى جنب مع إباحة الاختلاط بين الجنسين دون أن يكون هناك زاجر من دين أو وازع من عقل ، فقد انتشرت فى كثير من مدن أوربا وأمريكا نوادى للعراة حيث يعيش فيها النساء والرجال معا وقد طرحوا عنهم كل ما يسترهم من اللباس ، وادعوا أنهم بذلك يتمتعون بكامل حريتهم ، ويعودون إلى العيش فى الطبيعة كما عاش أجدادهم الأول وكما خلقهم الله ؛ والله برىء منهم ومن هذه الانطلاقة إلى الاباحية الجنسية بأوسع معانيها وأشكالها .

وانتشر الشذوذ الجنسى من لواط وسحاق جنبا إلى جنب مع انطلاق الفتيات الجامعيات وغير الجامعيات فى أوربا وأمريكا إلى الإغراق فى اللهو والبحث وراء اللذة باحتساء الخمر والمتعة الجنسية وذلك عندما

---

(1) النور ٣٢ – ٣٣

(2) البخارى : الباب الثانى .

يكتمل نمو أجسامهن ويبلغن سن الرشد ، فالبنت هناك أصبحت تلهو وتعاشر من تشاء ، ويحلو لها ذلك تحت سمع وبصر أسرتها ، دون أن يردعها أب أو يوقفها الاستماع إلى نصيحة أم .

وبلغ من انتشار الشذوذ الجنسى فى بعض البلاد الأوربية أن الغى القانون هناك عقاب من يرتكب هذا الاثم الفاضح ما دام المشتركان فيه قد بلغا سن الرشد ، وكان ارتكابهما له نا تجا عن رغبة واتفاق الطرفين ، وهكذا أصبح الشذوذ الجنسى هناك مباحا لا يعاقب عليه القانون .

وقد نتج عن انتشار الشذوذ الجنسى مرض خبيث لم يستطع العلم حتى الآن أن يجد له دواء لأنه مرض فتاك يقضى بعد فترة على صاحبه ، كما يعدى المريض به من يخالطه أو يعيش معه ولا يتركه حتى يقضى عليه ، وقد أطلقوا عليه إسم « الأيدز » ؛ ويتحقق بذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ (١) ومن هنا نستطيع أن ندرك الحكمة الإلهية فى أنه سبحانه قضى على قوم لوط وأهلكهم جميعا إلا من اتبعه ، وذلك حتى لا يتسرب منهم هذا المرض الخبيث إلى الشعوب الأخرى المجاورة التى لا علاقة بينها وبين هذا الشذوذ الخبيث : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ** ﴾ (٢) .

أما الفصل الرابع : من الفن الثالث فهو فى بيان « كيفية تعرف « كامل » لما يحدث لملّة هذا النبى لأجل عصيانهم من العقوبة » وقد انتهى فيه كامل إلى أن ملّة هذا النبى لابد وأن تعاقب على هذا العصيان فى الدنيا ، وأن هذا العقاب يكون بتسليط الكفار عليهم ، فيهزمونهم

---

(١) الإسراء ٣٢ .

(٢) القمر ٣٣ – ٣٤ .

ويقتلون منهم الكثيرين ، ويخربون بلادهم حتى يرتدعوا ولا يعودوا لمخالفة ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين .

وأما الفصل الخامس : فهو « فى كيفية تعرف « كامل » بحال الكفار الذين يكون لهم عقوبة هذه الأمة » : ويرى « كامل » أن هؤلاء الكفار يجب أن لا تكون لهم ملّة حتى لا يدعون الناس إلى الدخول فى دينهم قهرا ، بل يكونون من البلاد التى لم تَبْلُغهم الدعوة بلوغا تاما ، ولذلك فإنهم يأتون من البلاد البعيدة عن الحضارة الموجودة فى البلاد المعتدلة المناخ ، فهم من البلاد الواقعة فى المناطق الباردة الشمالية البعيدة عن المدن ، ولذلك فإن أهلها شجعان أقوياء ، ثم استطرد كامل فى وصف تكوينهم الجسمى .

وهؤلاء الكفار الأشداء لا يهزمون إلا البلاد الإسلامية المجاورة لهم ، ومع استيلائهم على تلك البلاد لا يأمرون الناس بتغيير دينهم إذ لا دين لهم يُحوِج إلى ذلك ، وتقود مخالطتهم للمسلمين فى البلاد التى يحكمونها إلى دخولهم فى الإسلام ، وبذلك يصبحون من أهل هذه البلاد الإسلامية ، وتتسع بذلك بلاد الملّة الإسلامية .

الفصل السادس بعنوان : « كيفية تعرف « كامل » حال البلاد التى لا يتمكن هؤلاء الكفار من الإستيلاء عليها » وقد علم « كامل » أن البلاد المجاورة للبلاد التى استولى عليها الكفار لا تستطيع مقاومتهم إلا إذا كانت تملك جيوشًا كثيرة ، وكان يحكمهم سلطان شجاع وذلك لكثرة جيوش هؤلاء الكفار ؛ ولذلك فإن على هذا السلطان أن يوفّر الأموال الكثيرة اللازمة لتكوين الجيوش التى يعتمد عليها ، فهو فى حاجة لأموال كثيرة طوال تلك الحروب ، ولابد أن يأخذ كل ما يحتاج إليه من الأموال من البلاد التى يحكمها ، ونظرا لكثرة ما يحتاج إليه فلابد له أن

يأخذها من الناس قهرا ، ولذلك فلابد وأن يكون هذا السلطان قويا مطاعا ، ويكون أخذ هذه الأموال تطهيرا للناس . وينتج عن كثرة اغتصاب المال من الناس « أن تقل الأموال فى هذه البلاد ، ويكثر فيها الفقراء ، ونقصان المعيشة وقلة الأرزاق » وينتج عن ذلك كثرة السرقات وفساد المعاملات .

الفصل السابع : يحاول « كامل » فيه أن يتعرف على أخلاق السلطان المسلم الذى يتصدى لهؤلاء الكفار ويوقف تقدمهم ، فيبدأ بذكر أن هؤلاء الكفار قد امتد سلطانهم إلى قسم من البلاد الإسلامية أكبر وأوسع مما يحكمه هذا السلطان وذلك بالإضافة إلى بلادهم الأصلية مشيرا بذلك إلى ازدياد قوتهم ، ولذلك فلابد وأن يكون السلطان شديد البأس حتى يستطيع أن يمنعهم من الإستيلاء على بلاده ، وأن يكون شديد الجرأة قادرا على قتل الملوك والكبراء ، مشيرا بذلك إلى قتل السلطان قطز على يد الظاهر بيبرس ، وأن يعرف الناس عنه ذلك فيخشوه ويهابوه ، وأن تقل عنده الرحمة وتزيد القسوة فيعاقب بقطع الأطراف والصَّلب والتسمير حتى يوقف الفساد والسرقات التى أشار فى الفصل السابق إلى انتشارها .

ووصل « كامل » إلى أن صفات هذا السلطان وأخلاقه تشبه صفات الكفار مما يدل على أنه لابد وأن يكون أصلا « إما من أرض أولئك الكفار أو من أرض تقترب منهم » ، مشيرا بذلك إلى أن حكام مصر والشام فى ذلك العصر كانوا من المماليك الذين جُلبوا من بلاد المغول .

وينتقل « كامل » بعد ذلك إلى وصف جسم هذا السلطان فيصف أعضاء جسمه وصفا دقيقا يصل فى نهايته إلى أن هذه الأعضاء تشبه أعضاء أبدان المغول ؛ وتدل دقة وصفه لأخلاق هذا السلطان وبدنه على أن « ابن النفيس » كان متصلًا أشد الإتصال بالسلطان بيبرس وبالسلطان قلاوون المعاصرين له ، مما جعلنا نعتقد أنه كان طبيبهما الخاص .

وفى الفصل الثامن : يستمر « كامل » فى وصف أخلاق سلطان المسلمين الذى يدفع الكفار عن بلاده ، فيؤكد أنه يجب أن يكون مشهورا بالشهامة والسطوة والقدرة ، وأن يكون عند جميع الناس مهيبا مخوفا عند جميع الناس حتى يكونوا حسنى الطاعة والانقياد له ، وأن تكون طاعتهم فى الظاهر على أجود الوجوه خوفا من سطوته .

ولما كان شغله الشاغل مقاومة الكفار ، فإنه يكون فى حاجة إلى الإنتقال إلى القرب منهم ليريهم أنه قادر على مقاومتهم ، وبذلك يتغيب كثيرا عن عاصمة ملكه ، ويكون فى حاجة إلى وزير يخلفه ويقوم مقامه أثناء غيابه ، ويجب أن يكون هذا الوزير شديد البأس ، جيد التدبير ، وأن يكون مهيبا مطاعا حتى لا يختل الحكم ، كما يكون شديد التمسك بأحكام الشرع حتى لا يكثر الفساد فى البلاد فيصير أهلها مستحقين للعقاب كالذين كانوا بجوارهم من المسلمين ، إلى غير ذلك من الأخلاق والصفات التى رأى كامل أن تكون متوفرة لديه « وبخاصة يستطيع أن يكون متمكّنا من رضى السلطان ، ورضى الله تعالى ورضى الرعية والأجناد وحفدة السلطان » .

الفصل التاسع : كان « كامل » طوال هذه القصة يفكر فى الإنسان والبيئة التى يعيش فيها ، والمعتقدات التى يؤمن بها ، ولكنه يتحول فى هذا الفصل إلى التفكير « فيما يحدث فى العالم العلوى بعد وفاة

خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين » فهو فى هذا الفصل يفكر فى السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم ، وفى حركتها الظاهرية ، فالشمس تدنو من الشمال فى الصيف ثم تبعد عنه كثيرا فى الشتاء إلى الجنوب ، ثم أخذ يرصد حركات القمر والنجوم « فعلم لذلك أن جميع هذه الكواكب لها بدورانها دورات تصير بها تارة شمالية وتارة جنوبية ، مع أن جملة السماوات تدور فى كل يوم دورة شرقية ، أى تأخذ من الشرق إلى الغرب » . واستمر « كامل » فى تأملاته الفلكية حتى وصل إلى أنه سوف ينتج عن استمرار تغيُّر حركة دورانها ، وتغيُّر بُعدِ بعضها عن بعض ، وعن تناقص مَيْل الشمس إلى الشمال والجنوب تناقصا مستمرا ودائما ، أن « تبطل الفصول ، وتكون المواضع الزائدة البعد عن خط الاستواء شديدة البرد دائما ، وخط الاستواء وما يقرب منه شديد الحرارة دائما ؛ وبذلك تصبح طبيعة الهواء فى هذين الموقعين غير ملائمة لمزاج الإنسان ، فلذلك يكون الناس حينئذ خارجين عن الإعتدال جدا ، فلذلك تسوء أخلاقهم جدا ، وتكثر الشرور والفتن .

الفصل العاشر : « وحاول « كامل » أن يتعرف ما يحدث فى العالم السفلى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين » أى أنه انتقل من التفكير فيما يحدث فى السماء وما فيها إلى التفكير فى التغيير الذى يحدث على الأرض التى يعيش فوقها الإنسان ، وينتج عما وصل إليه من النتائج فى الفصل السابق من تناقص ميل الشمس المستمر إلى الشمال والجنوب ، أن الشمس تصبح دائمة المسامتة لخط الإستواء وما يقرب منه ، مما يؤكد شدة الحرارة فى تلك المنطقة ، وشدة البرودة فى المناطق الشمالية[1] ، فتصبح « أكثر المناطق خارجة جدا عن الإعتدال فلذلك

---

(١) اجتهدنا أن نستعين فى هذا التعليق بلغة المؤلف وأسلوبه . كلما أمكن ذلك .

تكون أمزجة الناس فى أكثر البلاد رديئة فاسدة ، ويكثر حينئذ الشرّ والمخاصمات » ، وتكثر الحروب والفتن وسفك الدماء ؛ ولذلك يتقدم الأشرار ، ويتأخر أهل الخير » .

« ويلزم سوء المزاج فساد الذهن « مما ينافى قبولها للعلوم والحكمة فلذلك ترتفع العلوم كلها وتقلّ جدا فى الناس » وإذا « اشتد الحر فى البقاع القريبة من خط الاستواء كثرت الحرائق هناك وبخاصة فى الأراضى الواطئة والكبريتية ، فيحدث حينئذ نار بأرض اليمن ، وتمتدّ منها حتى تعمّ الأراضى عند خط الاستواء وما يقرب منه » وتهب رياح رديئة وصواعق وبروق هائلة ، وتندك بعض الجبال وتسقط .

ويستمر « كامل » فى وصف ما ينتج عن استمرار تناقص ميل الشمس بالتدريج إلى الشمال والجنوب ، فرأى أنه تحدث من ذلك الكوارث التى تصيب العالم كله ، فتكون الزلازل والخوف ، وتختلف صور الناس ، وربما وُجد انسان يخاطب الناس ويكلمهم وهو مع ذلك فى صورة مخالفة لصورة الإنسان فيكون فى صورة مخالفة لصورة الإنسان ، كصورة تشبه صورة الدواب ، وهذا يحدث قبيل القيامة .

فإذا قل ميل الشمس جدا أو بطل ، لزم لذلك شدة إفراط الحر فى الإقليم الأول حيث يسكن السودان ، فيضطرون إلى الانتقال شمالًا ، كما يحدث شدة إفراط البرد فى الاقليم السابع وما يقرب منه حيث يسكن الترك والتتار والروس ويأجوج وماجوج ، فيضطرون جميعا إلى الإنتقال جنوبا ، ويضطر هؤلاء وأولئك جميعا للإنتقال مع ملوكهم وعساكرهم ومواشيهم ، فيلزم وقوع المقاتلة والمدافعة بينهم جميعا وبين أهل البلاد

المعتدلة التى ينتقلون إليها ، وينتج عن ذلك أن يستولى سكان الإقليم الأول والسابع على بعض الأقاليم القريبة من الاعتدال ، فيزدحم الناس ، ويكثر الغلاء ، وتنقص الأموال ونحو ذلك مما يحدث عند ازدحام الناس وكثرتهم .

وهذه الكوارث والمصائب التى ذكرها «ابن النفيس» وأكد استمرارها زمنا طويلا تؤدى إلى فناء الكثيرين وخراب جهات كثيرة ؛ كما أن الحروب تستمر حتى يفنى من بقى بعد وقوع هذه الكوارث ، وبهذا تكون القيامة .

فإذا توقفت كل تلك الكوارث ، وتغير الحال ، [وسبحان من لا يتغير] فإن الشمس تعود تدريجيا إلى مَيْلها ومدارها الذى كانت عليه قبل كل هذه الحوادث ، فيصلح الهواء لأن يعيش فيه الانسان ، ثم تسقط الأمطار فى الشتاء ، ويمتزج تراب الأرض بالماء ، وتُحدث له حرارة الشمس العفونة ، فيصبح هذا المزيج من التراب والماء صالحا لأن يتكون منه جسم إنسان وجسم غيره من الحيوان ، وتتمكن النفس الانسانية التى تغذى الجزء الصغير جدا الذى ذكرناه سابقا واسمه «عجبُ الذنبُ» (١) وهو الذى تتعلق به النفس الانسانية ، تتمكن النفس الانسانية أن تجد له غذاء كثيراً من الطين المتعفن ، فيحدث من ذلك كله أبدان الناس ، ويبعثون كما كانوا قبل الموت ، وذلك هو البعث ، وسبحان الله القدير العليم .

---

(١) سبق أن شرح ابن النفيس الدور الذى يقوم به «عجب الذنب» فى إعادة البعث ، انظر الفصل الثانى من الفن الثالث .

عملنا فى تحقيق «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية»

اعتمدنا فى التحقيق على النسخ الآتية :

أولا : مخطوطة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة وتقع ، ضمن مجموعة بها ثلاث رسائل أُخر كلها من تأليف «ابن النفيس» ؛ وهى مؤرخة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٤ م ؛ وبذلك تكون قد نسخت فى حياة المؤلف ؛ ولكن ناسخها لم يشأ أن يكتب اسمه .

وتقع «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية فى ٢٣ ورقة .. ومسطرتها ١٤ سطرا بحجم ٢٥ × ١٨ سم ، وترتيبها الثانى فى مجموعة الرسائل المحفوظة بالدار برقم ٢٠٩ مجاميع ، وهى مكتوبة بالخط النسخ العادى وخالية من الإعجام إلا فيما ندر .

ونلاحظ أن الناسخ سها عن إثبات الجملة القصيرة التى تستكمل بيان ما اشتمل عليه الفن الأول ، وكذلك عن الجملة القصيرة التى توضح ما اشتمل عليه الفن الثانى وذلك فى السطرين السادس والسابع من وجه الورقة الأولى ، ثم اثبت التصحيح فى الهامش الأيمن وهذا يدل على أن هذه النسخة روجعت بعد اتمام نسخها ، ولو أن الناسخ أدرك الخطأ منذ البداية لكان من اليسير عليه إعادة كتابة الصفحة الأولى خالية من الخطأ .

ومجموع الفنون فى هذه المخطوطة ثلاثة فقط ، ولابد لنا أن نلاحظ أن الناسخ اختتمها بقوله : «ومن ها هنا ، فلنختم هذا الكتاب» ، وهذا ختام غريب يدل على أن الناسخ تعمد أن يقتصر على هذه الفنون الثلاثة فقط لأسباب لم يذكرها ، ولعلها ترجع إلى أن «ابن النفيس» ذكر فى الفن

الرابع ما آل إليه حال المسلمين وأوصاف حكامهم الذين حاربوا التتار ، كما ذكر أوصاف حكام التتار وسلوكهم فى البلاد الاسلامية التى استقروا فيها ، فلعل الناسخ رأى أن السلامة فى الاقتصار على الفنون الثلاثة التى تناول فيها المؤلف ذكر السيرة النبوية العطرة ، ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالناسخ ألا يذكر اسمه فى المخطوطتين .

وقد اعتمدنا على نسخة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة واعتبرناها أصلا فى الفنون الثلاثة الأول ، ورمزنا لها بحرف (أ)، واعتمد التحقيق فى الفن الرابع على النسخة الثانية المصورة عن نسخة «استانبول».

ثانيا : مخطوطة «استانبول» برقم ٤٦١ تصوف فى مكتبة مصطفى أفندى. وكانت من قبل محفوظة بمكتبة عاشر افندى، ثم نقلت إلى المكتبة السليمانية، وهذه المخطوطة ليست مؤرخة، ولكن من الواضح أنها ترجع إلى ما بعد زمن «ابن النفيس» بكثير ولم يعلم اسم ناسخها.

تقع هذه النسخة فى ٥٨ ورقة، ومسطرتها ١٥ سطرا بحجم ٢٧ × ٢١ سم ، وبها تلحيقات فى أواخر الأوراق وتصويبات قليلة فى بعض الهوامش ، وهى أكثر إعجاما من مخطوطة دار الكتب المصرية ، ولكن إعجامها ليس إعجاما كاملاً . وقد كان ناسخ هذه المخطوطة يخلط بين علامة المضارع المفرد الغائب المذكر والمؤنث ، مثل «تكون»، يكتبها «يكون» أو العكس وهذا يشير إلى أن الناسخ عجمى ، فهذه الظاهرة ملاحظة فى المخطوطات المنسوخة ببلاد إيران وشرقيها ، ولم نشر إلى هذا الخلاف فى هوامش التحقيق . كما أن ناسخها كان يكتب الفعل المضارع المسند إلى الغائب هكذا «يخلوا» بإضافة ألف إليه ، ولم نشر إلى ذلك بهوامش التحقيق .

وهذه المخطوطة كاملة بها أربعة فنون ، وقد اعتمدنا هذه المخطوطة أصلا فى الفن الرابع .

ومما يؤسف له أن بهذه المخطوطة أخطاء أكثر مما فى نسخة دار الكتب بالقاهرة ، وبعض الصفحات بها أسطر تكاد تكون مطموسة ، وبها صفحات مطموسة تماماً نتيجة تحلل الأحبار منذ فترة طويلة ، وقد قام بعضهم بإعادة كتابة هذه الأوراق المطموسة وأضاف ما أعاد كتابته إلى أوراق المخطوطة . ولم نشر إلى كل هذه المواضع فى هامش التحقيق .

ولذلك اضطررنا إلى اعتماد نسخة دار الكتب القاهرية أصلًا فى الفنون الثلاثة الأولى ، وقد رمزنا لنسخة « استانبول » بحرف (ب) .

ثالثاً : اتفقت المخطوطتان فى ظاهرة إهمال كتابة همزة الأسماء الممدودة ، فكلمة الهواء والسماء تكتب الهوا والسما . وأشرنا إلى بدايات أوراق المخطوطتين وأرقامها بهامش التحقيق ، ووضعنا نجمة (★) عند بداية صفحات المخطوطة مع رمز كل من المخطوطتين .

رابعاً : استعنا بتحقيق المستشرقين : الدكتور ماكس مايرهوف وزميله الدكتور يوسف شاخت ، وبالرغم من اختلافنا معهما فى بعض المواضع ، واختلافنا معهما حول السبب الذى دعا إلى تأليف « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » ، إلا أننا نقرر أنهما بذلا الكثير من الجهود فى ترجمتهما « لابن النفيس » ، ورجعا فى ذلك لكثير من المراجع ، كما قاما بترجمة أجزاء من الرسالة إلى اللغة الإنجليزية ، وبالتعليق بهذه اللغة على الرسالة ، وإن كنا لا نتفق معهما فى بعض هذه التعليقات ، كما لخصا فصول الرسالة باللغة الإنجليزية ، أما التحقيق ذاته فقد بذلا ما استطاعا من الجهود ، ويمكن التماس العذر لهما فى بعض الأخطاء للظروف التى ذكرناها عند وصف المخطوطتين اللتين اعتمدا عليهما .

الرموز المستعملة فى التحقيق

(أ) مخطوطة دار الكتب بالقاهرة .

(ب) مخطوطة «استانبول» .

(جـ) تحقيق د. مايرهوف . ود. شاخت .

(-:) ناقص من ....

(و) وجه الورقة المخطوطة .

(ظ) ظهر الورقة المخطوطة .

بسم الله الرحمن الرحيم

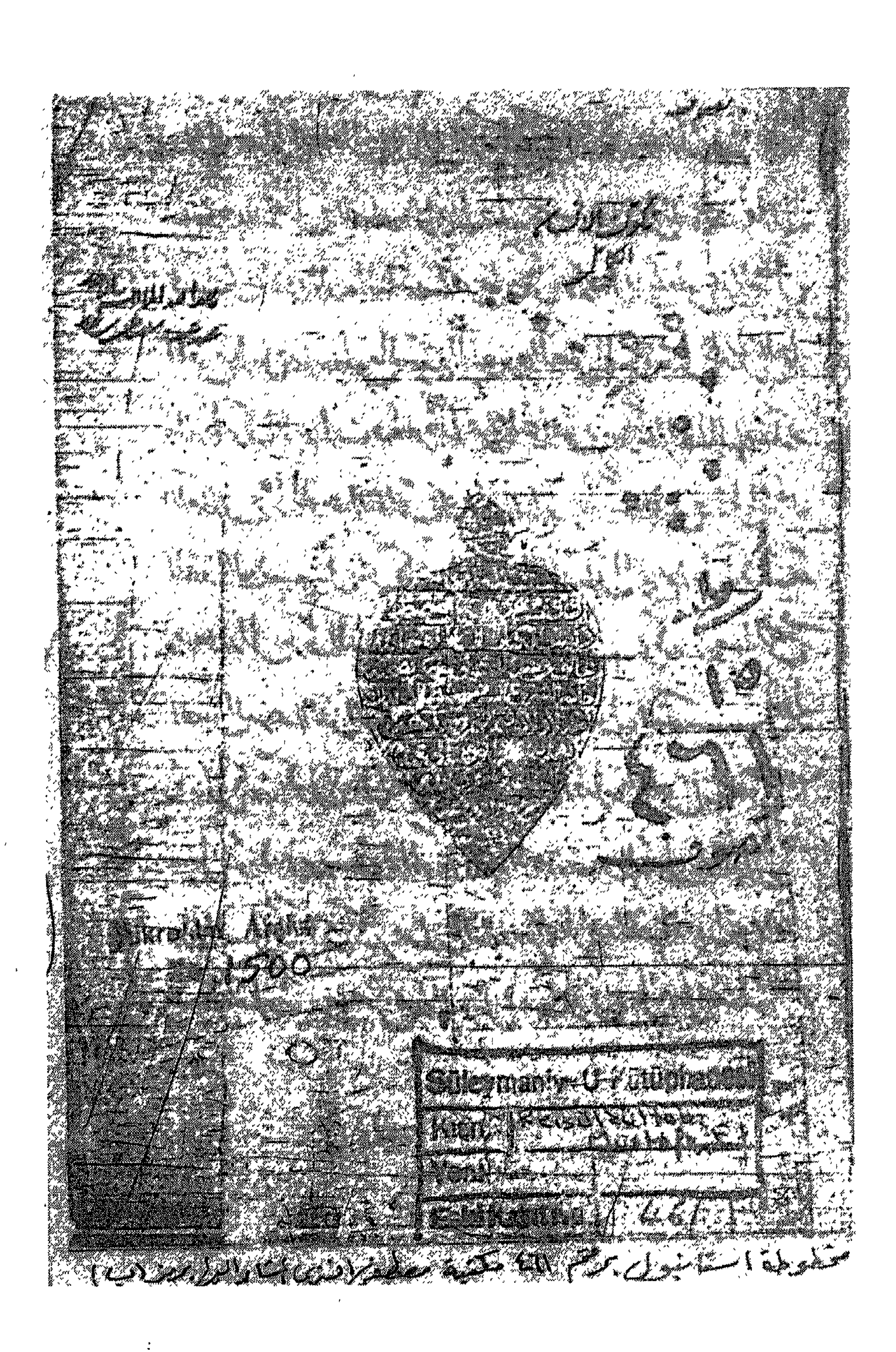
قال الفقير الى الله تعالى علي بن ابي الحزم القرشي المتطبب عفا الله عنه

وبعد حمد الله تعالى والصلاة على جميع انبيائه ورسله محمد وعلى آله وصحبه فإن قصدي في هذه الرسالة ان احكي ما ذكره فاضل بن ناطق عن الرجل المسمى بكامل فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن الشرعية على طريق الاختصار ملتزماً ترك الاسهاب ومعرضاً عن الاغماض في مواضع الاستدلال المقدر والحذر وعلى الوجه اللائق وجعلت هذا الكتاب مرتباً على اربعة فنون الفن الاول في بيان كيفية تكون هذا الانسان المسمى بكامل وكيفية وصوله الى معرفة العلوم والنبوات الفن الثاني في السيرة النبوية الفن الثالث في كيفية وصوله الى معرفة السنن الشرعية الفن الاول يشتمل على ثلاثة فصول الفصل الاول في بيان كيفية تكون الرجل المسمى بكامل قال فاضل بن ناطق انه كان في جزيرة معتدلة الهواء كثيرة العشب والاشجار والثمار حائط هذا الجبل ... الطين ... السيل ... في مغارة ... هناك من الطين

العلوم والنبوات الفن الثاني في كيفية وصوله الى معرفة ...

نسخة دار الكتب المصرية

الصفحة الاولى من مخطوطة دار الكتب



مخطوطة استانبول برقم ٤٦١ مكتبة مصطفى أفندي [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير إلى الله تعالى علي بن أبي الحزم القرشي عفا
الله عنه وبعد حمد الله تعالى والصلوة على خير
بريته وبرسوله محمد وعلى آله وصحبه فان قصدي في
هذه الرسالة اقتصاص ما ذكره فاضل بن ناطق عن
الرجل المسمى بكامل فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن
الشرعية على طريق الاجمال تاركا ما طريقه الاسهاب
ومنزها من الاغماض وموضحا للطالب بقدر الامكان
و[illegible] وجه اللائق بحجم هذا الكتاب ومرتبا فيه كما [illegible]

الصفحة الأولى من مخطوطة
استانبول ورمزها حرف (ب)

الناس عن الطعام فلعله يحمل على الميل الى مساوئ وذلك لانه اذا كان عددا

الا اذا دفع خطرا مات العصاة عليه ظلما ويولد ذلك شيئا على الخلق اصله عمر

للدم فلذلك ينبغي ان يشير على ذلك مثل الدية واما السرقة فيحمل فيها

مثل قطع اليد فانها هي التي تسد الهاء السرقة وذلك يحمل على ذلك

فيسلك ما سلف فيها فيحمل على الذي يعمر بلا بر وعلى سادات الحكم

فيعرفه بلحق منها ان الحكم بدل العمل بما يرد الشكر وذلك متشابه

الامام فلذلك ينبغي ان يكون عشرة وينبغي ان يكون معظم دينه فليشق

على هذا القدر ما يداعب ويعمل ثم يحمل على بعضهم العمل وعلى البلد

للامارة للسويه على بعضهم الجريد وهم الذين يعادون الجيوش ويحمل لما

يحصل من اموال التجار ولما يحصل من المحسنين زكاة ويجعلها مصارف

لما يستغنى به الناس مثل بناء الجسور والحاجات للبلاد ولا اله الا هو

والمؤذنين ونحوهم ولذلك الفقراء والمساكين وابن السبيل ونحو ذلك

ومن ههنا فلنختم هذا الباب

مستعينين بالله وحده

الصفحة الأخيرة من مخطوطة دار الكتب

الجبل ما حدث للأرض في الأرض الأول وصلح
الهوا لأن تعيش فيه الحيوان فإذا حدث بسبب
الشتاء أمطار كثيرة وامتلأت الأرض حتى
استنقع الماء ورتث له من حرارة الشمس العفونة
صار ذلك سببا لبدن الانسان وجزء من الحيوان
ولذلك يمكن حينئذ النفس الانسانية من نتيجة
الاسم المشترحة أمه والشيء يعجب لنفسه الذي
تركيبه أولا وحيث أن النفس الانسانية تكون
متعلقة به فلذلك حدث من الطين است تركيب
من لطيفه جدا كثير أحيانا وحينئذ تكمل من ك
أبدان الناس يصيحون كانوا أولا وذلك هو جميع
سبحان الله القدير العليم ومن هاهنا فاختم الكتاب
مستعينين بالله وحمده ومصلين على خير أنبيائه محمد
وآله وصحبه وأصحابه تمت الرسالة الكاملية
في السيرة النبوية ... وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الصفحة الأخيرة من مخطوطة استانبول المرموز لها بحرف ب

الرسالة الكاملية

في السيرة النبوية

تأليف

علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى
الفقيه المتطبب المعروف بابن النفيس

٦٠٧ هـ - ٦٨٧ هـ

⭑ بسم الله الرحمن الرحيم

(أ٢٥ظ،ب١)

قال الفقير إلى الله تعالى على بن أبى الحزم[1] القرشى المتطبب[2] ، عفا الله عنه ، وبعد حمد الله تعالى والصلاة على خير أنبيائه ورسله محمد وعلى آله وصحبه .

فإن قصدى فى هذه الرسالة اقتصاص ما ذكره فاضل بن ناطق عن الرجل المسمى بكامل فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن الشرعية على طريق الإجمال ، ملتزما ترك[3] الإسهاب ، ومعرضا عن الإغماض ، وموضحا للمطالب[4] بقدر الإمكان وعلى الوجه اللائق بحجم هذا الكتاب ، ومرتبا فيه كلامى ⭑ على أربعة[5] فنون : (ب ٢ و)

الفن الأول : فى بيان كيفية تكون هذا الإنسان المسمى بكامل ، وكيفية وصوله إلى تعرف العلوم والنبوات .

الفن الثانى : فى كيفية وصوله إلى تعرف السيرة[6] النبوية .

الفن الثالث : فى كيفية وصوله إلى تعرف السنن الشرعية .

الفن الرابع : فى كيفية وصوله إلى معرفة الحوادث التى تكون بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين[7] .

---

(١) فى (ب) الحرم بالراء مهملة (وأما المخطوطة أ) فتكاد تكون خالية من الإعجام ، وقد أخذنا بما جاء فى أكثر كتب التراجم (انظر ترجمته) .

(٢) – : (ب) .

(٣) (ب) : ما أطرق .

(٤) (ب) : للطالب .

(٥) (أ) ثلثة .

(٦) هذه الفقرة مثبتة فى هامش نسخة (أ) مما يدل على أنها روجعت وصححت بعد نسخها .

(٧) الفن الرابع ... أجمعين : – (أ) .

الفن الأول

١ ـــ [١]في بيان كيفية تكون هذا الإنسان المسمى بكامل

٢ ـــ وكيفية وصوله إلى تعرف العلوم والنبوات[١]

٣ ـــ [و][٢] يشتمل على ثلاثة فصول :

(١) في بيان .. النبوات : – (أ) .

(٢) إضافة ليستقيم النص .

الفصـــــل الأول

فى بيان[1] كيفية تكون الرجل المسمى بكامل

قال فاضل بن ناطق : إنه اتفق حدوث سيل كبير فى جزيرة معتدلة الهواء كثيرة العشب والأشجار والثمار[2] ، وخالط هذا السيل تراب كثير مختلف الطبائع لأجل اختلاف * الترب[3] التى مرّ هذا السيل بها ، ونفذ (ب٢ظ) شيء من هذا السيل فى مغارة فى ذيل جبل هناك فملأها * ، ولأجل قوة (أ٢٦و) حركة هذا السيل نقل بعد ذلك إلى باب هذه المغارة من التراب والأعشاب ماسد به بابها ، ثم انحط ذلك السيل فبقيت تلك المغارة مملوءة مما دخل إليها وكان ذلك فى فصل الربيع ، فلما جاء الصيف سخن مافى تلك المغارة وعفن وقد صار حينئذ خاثرا بما فيه من التراب ، ولم يزل ينطبخ بما حدث فيه من الحرارة حتى امتزج وصار له مزاج قريب جدا من الاعتدال ، وصار قوامه لزجا قابلًا لأن تتكون منه الأعضاء، واختلفت أجزاؤه لأجل اختلاف[4] طبائع التراب المخالط له ؛ فلذلك كان بعضها حاراً يابساً شبيهاً[5] بمزاج قلب الإنسان[5] وبعضها حاراً رطباً شبيهاً بمزاج كبد الإنسان ، وبعضها بارداً يابساً شبيهاً بمزاج عظام الإنسان ، * وبعضها بارداً رطباً شبيهاً بمزاج دماغ الإنسان ، وبعضها (ب٣و) يشبه مزاجه مزاج عصب الإنسان ، وبعضها يشبه مزاجه مزاج لحم الإنسان ، وبالجملة[6] كان فى تلك الأجزاء ما يشابه أمزجة الأعصاب

---

(١) – : (ب) .
(٢) (ب) : والاثمار .
(٣) (أ) ، (جـ) : التراب .
(٤) – : (ب) .
(٥) فى (أ) : بمزاج القلب .
(٦) (ب) : فالجملة .

جميعها ، وأجزاء أُخر تشابه فى أمزجتها لتلك الأجزاء الأول ، وكأن كل جزء يشبه بمزاجه مزاج عضو فإن قوامه يكون صالحاً لتكوّن ذلك العضو منه ؛ فلذلك كانت هذه الأجزاء مستعدة لأن يتكون منها أعضاء* أعضاء إنسان[1] والله تعالى لكرمه[2] لا يمنع مُستحقاً (أ٢٦ظ) مستحقّه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له ، فلذلك خلق من تلك الأجزاء أعضاء[3] إنسان ، ومن جملتها بدن إنسان[4] . وكان يتبخر من ذلك الطين عند تسخنه أبخرة كثيرة ، فكان بعضها لطيفا هوائيا شبيها فى مزاجه بمزاج روح الإنسان فتكون من ذلك روح إنسانية فكمل بذلك تكون إنسان ★ وخالف هذا الإنسانُ الإنسانَ المتكون فى (ب٣ظ) الرحم بأمور :

أحدها : أن هذا الإنسان يشبه تكونه تكوّن الفرخ فى البيضة إذ المغارة بمنزلة قشر البيضة ، وما فى داخلها من المادة بمنزلة مُحِّ البيضة وبياضها ، والأجزاء الشبيهة بأمزجة الأعضاء بمنزلة الأجزاء التى يتكون[5] منها الفرخ ، والأجزاء[6] الأخرى الشبيهة فى أمزجتها بتلك الأعضاء[6] بمنزلة الأجزاء التى يغتذى منها الفرخ مدة تكونه .

---

(١) (ب) : منها أعطا الإنسان .

(٢) (ب) : بكرمه .

(٣) (ب) : أعطاء .

(٤) القول بأن « كامل » وُجِد بالتولُّد الذاتى فى جزيرة منعزلة لم يكن إلا وسيلة أتاحت « لابن النفيس » أن يتخذ الاسلوب القصصى لاثبات آرائه فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية وعن الشريعة ، فقد أتاح له هذا المنهج أن يعارض الفيلسوف « الرئيس ابن سينا » والفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » . والكلام الذى وضعناه بين قوسين يثبت أن « ابن النفيس » كان يؤمن أن الله هو الخلاق الذى خلق من تلك الأجزاء التى تولدت ذاتيا « أعضاء إنسان ، ومن جملتها إنسان » .

ولا شك أن « ابن النفيس » كان متأثرا فى تفكيره هذا بما قصَّه الله تعالى عن خلق آدم فى كثير من آيات الكتاب العزيز مثل قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (فى الآية رقم ١٢ بسورة المؤمنين) . ومثل قوله فى سورة الصافات : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ (الآية ١١) .

(٥) (ب) : تكون .

(٦) (ب) : والأجزاء الآخر المتشابهة فى امزجتها لتلك الأجزاء .

وثانيها : أن هذا الإنسان لابد وأن يكون عظيم البدن جدا ، وذلك لأن الجزء الذى يتكون منه[1] كل عضو لابد وأن يكون مقداره كبيراً بخلاف الأجزاء المنوية[2] التى يتكون منها أعضاء الجنين فى الرحم .

وثالثها : أن هذا الإنسان يجد المادّة التى يغتذى منها وهو فى المغارة كثيرة متوفرة وكذلك يجد الهواء[3] المروّح لقلبه هناك كثيرا* (أ٢٧و) فلذلك يتمكن من البقاء فى داخل المغارة حتى تشتد أعضاؤه* ويقوى (ب٤و) إدراكه وحركته ؛ فلذلك يكون عند خروجه كالصبىّ المترعرع فى حركته وإدراكه ، ولا كذلك الإنسان المتكوّن فى الرحم ، وخروج هذا الإنسان من المغارة شبيه بخروج الفرخ من البيضة .

واتفق لهذا عند اضطرابه بيديه ورجليه عند إرادة الخروج من المغارة أن كان التراب الساد لبابها قد تفتت بعضه وانعدم ، فلذلك انخرق بحركة هذا الإنسان بسهولة ، وعند انخراقه لم يزل هذا الإنسان يزحف ويدب حتى خرج[4] .

---

(١) (ب) : منها .
(٢) (ب) : فى الهامش تعليق بنفس الخط : «أى المتكونة من المنى» .
(٣) (ب) : الهوى .
(٤) (ب) : يخرج .

الفصـــل الثانى
فى كيفية تعرف المسمى بكامل العلوم[1] والحكمة

إن المسمى بكامل حين خرج من المغارة شاهد الفضاء والضوء وأشجار تلك الجزيرة ، وسمع أصوات الطيور ، وخرير ماء البحر والأنهار ، وحفيف الرياح ، وشمَّ روائح الزهور والنبات ، وأكل من الثمار التى تساقطت من الأشجار فأحس بطعومها . وأدرك حرّ الهواء[2] وبرده* فكبر تعجّبه من ذلك . وصار إذا غمض عينيه[3] تغيب[4] عنه (ب ٤ ظ) المرئيات وإذا فتحهما ، بعد ذلك أدركها ، وكذلك إذا سد أذنيه بأصبعيه غابت عنه الأصوات ، وإذا فتحهما أدركها ، وإذا حصلت ذوات الطعوم فى فيه أدرك طعومها* وإذا بعّدها[5] من فيه لم يدرك ذلك ، (أ ٢٧ ظ) وكذلك اعتبر الأنف فى الروائح ، وملاقاة[6] الملموسات للبشرة فى اللمس ، وتكرر له ذلك فعلم أن هذه الأعضاء هى آلات لهذه الإدراكات ، وأن هذه الإدراكات هى منافع هذه الأعضاء . وكذلك رأى أن يديه للبطش ، ورجليه للمشى ونحو ذلك ، فوقف بذلك على كثير من منافع الأعضاء الظاهرة .

---

(١) (أ) : للعلوم .
(٢) (ب) : الهوى .
(٣) (ب) : عينه .
(٤) (أ) : تغب .
(٥) (ب) : فقدها .
(٦) (ب) : ملاقات .

وتشوّف إلى تعرّف منافع ما فى داخل البطن[1] والصدر من الأعضاء ؛ ورأى أن يكون اعتباره لذلك فى غيره فصار يشقّ بطون الحيوانات التى يتمكن من إمساكها والتى يصادفها ميتة ، ويفعل ذلك بأظفاره وبما يجده من الأحجار الحادة الأطراف[2] وبشظايا القصب ونحو ذلك ، فشاهد المعدة وأن الغذاء ينطبخ فيها ، وأنه ينفذ إليها من المرىء النافذ* إليها من الفم ، ثم تتصل[3] بأسفل المعدة الأمعاء[4] ، وأن منها (ب٥و) يخرج تفل الغذاء ، إذ هى متصلة بالمخرج ؛ ورأى صفاوة الغذاء ينفذ فى العروق المتصلة بالمعدة ، والأمعاء النافذة إلى مقعر الكبد ، وفى الكبد يستحيل خلطا ، ثم ينفذ منها فى العرق[5] الصاعد من مجنب[6] ، الكبد وينقسم فى أقسام ذلك العرق حتى ينبث فى الأعضاء من أفواه تلك الأقسام ، فعلم لذلك منافع هذه* الأعضاء . (أ٢٨و)

وشاهد القلب فى الصدر وبطنه الأيمن مملوء من الدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح فى الشرايين إلى الأعضاء ثم ينبسط فترجع تلك[7] الروح إليه ، وحينئذ ينجذب[8] إليه الهواء[9] من الرئة ، وهى تجذب الهواء[9] من خارج فينفذ إليها من الأنف والفم مارا فى الحنجرة وقصبة الرئة إلى تجاويف الرئة

---

(١) (ب) : الباطن .
(٢) - : (ب) .
(٣) (ب) : يتصل ، أما فى (أ) فإن الكلمة غير معجمة .
(٤) (ب) : للأمعا .
(٥)(ب) : العروق .
(٦) (أ) : مجذب .
(٧) — : (ب) .
(٨) (ب) و(ج) : يتجذب . والكلمة غير معجمة فى (أ) .
(٩) (ب) : الهوى .

وذلك[1] إذا انبسطت الرئة[1] ، ثم يندفع ما يسخن من ذلك الهواء[2] إلى خارج وذلك إذا انقبضت الرئة ، وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك★ الحجاب وعضلات الصدر لها وذلك بأن ينقبض لذلك الصدر (ب٥ظ) وينبسط وبذلك يتم النفس والصوت – فعلم أن هذه الأشياء هى منافع هذه الأعضاء .

ولم يزل كذلك يستقصى حال عضو عضو حتى وقف على جملة كثيرة من علم التشريح .

وكان من ذلك يتصفح أحوال الحيوانات فيرى منها ماهو جرىء مقدام مفترس كالأسد والنمر والذئب ، ومنها جبان يهرب أمام من يطلب افتراسه أو قبضه ونحو ذلك ، حتى اتضحت له أحوال كثيرة من أحوال الحيوانات ؛ ثم أخذ فى التفكير فى أمر النبات وتأمل كيف يبتدىء النبات من البزر★ فرأى البزر ينتفخ[3] لُبُّه إذا وصلت إليه المادة من الأرض فيلزم (أ٢٨ظ) ذلك انشقاق القشر[4] وتبرز شعبة عرقية تمتص المادة من الأرض ويأخذ النابت إلى جهة فوق فيبرز من الأرض . وتأمل أوراق النبات فرأى أنه يمتدّ من أصل الورقة إلى رأسها شيء كالمحور ويمتد منه[5] خياطات من الجانبين ينفذ فيها★ الغذاء إلى جميع أجزاء الورقة وبها تتقوم الأوراق . (ب٦٠و)

---

(١) وذلك... الرئة : – (ب) .
(٢) (ب) : الهوى .
(٣) (ب) : ينفتح .
(٤) – : (ب) .
(٥) (ب) : ذلك .

وتأمل الثمار فرأى[1] بعضها بارزا كما فى التين ، وبعضها فى غلاف إما قشرى كما فى الباقلى[2] ، أوصدفى كما فى البلوط ، أوغشائى كما فى الحنطة ، وبعضها فى أكثر من غلاف واحد كما فى الجوز واللوز ، وأيضا بعض الثمار له بزرة واحدة كما فى المشمش واللوز ، وبعضها له بزر كثير كما فى الرمان والقرع ، وأيضا بعض الثمار يكون منفردا كما فى الأترج والجوز ، وبعضها مجتمعا كما فى العنب ، وتأمل العنب فوجد العنبة بزرها مضاعف وكذلك بزر كل ثمرة فعلم أن ذلك ليقوم أحد الجزأين بالتوليد إذا حدثت للآخر آفة . ثم رأى على كل عنبة بل على كل ثمرة غشاء ، يحفظ وضع أجزائها وشكلها ، ويمنع رطوبتها من سهولة التحلل ، ولحم العنبة ذو عروق ينفذ فيها الغذاء من أصل العنبة* ، وبين تلك العروق (أ٢٩و) رطوبة تملأ* الخلل الذى بينها وذلك لغذاء لب البزرة ، فعلم من ذلك أن (ب٦ظ) وجود جميع أجزاء الحيوان[4] والنبات إنما هو لغايات ومنافع ، وأنه ليس شيء منها معطلا وموجودا سُدى .

ثم انتقل عن النبات فتأمل أحوال الأجسام العلوية كالمطر والبرد والثلج ، وتفكر فى الرعد والبرق ونحوهما .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأجسام السماوية وشاهد حركاتها ونظام بعضها مع بعض ودورانها ونحو ذلك على مابيناه فى غير هذا الكتاب .

* * *

وحينئذ كان قد تعدّى مدة الحُلُم وبقل[5] وجهه ، وقوى عقله ، وجاد فكره ففكر فى أن هذه الموجودات هل هى مع إتقان

---

(١) (ب) : فى أى .
(٢) (ب) : الباقلاء .
(٣) (ب) : الأخرى .
(٤) (ب) : الحيوانات .
(٥) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

وجودها[1] وإحكامه موجودة بذاتها ، أو بموجد[1] آخر ، وإذا كانت لموجد[2] فما ذلك الموجد ، وكيف حاله ؟ فتشوف إلى معرفة ذلك .
وكان قد شاهد كثيراً من الأجسام توجد تارة وتعدم أخرى فعلم أن وجود تلك الأجسام وعدمها كل منهما ،* غير مستحيل وذلك هو الذى (ب٧و) نسميه بالممكن ، فرأى أن هذا الممكن ليس يجوز أن يكون وجوده أو عدمه من ذاته وإلا لم يفارقه ذلك الأمر الذاتى ، فهو إذا من غيره ، فهل الفاعل لوجود الممكنات ممكن أو ليس كذلك ؟ فإن* كان ممكنا كان (أ٢٩ظ) وجوده من غيره أيضا وتسلسل ذلك ، فلابد من الأشياء إلى موجد غير ممكن ؛ إذ لولا ذلك لاجتمعت علل ومعلولات لا نهاية لها ، وكانت بجملتها ممكنة أيضا فكانت محتاجة إلى موجد غيرها والذى هو غير جميع[3] الممكنات فهو غير ممكن ، فلا بد وأن يكون واجبا فإذا لابد وأن يكون لهذه الموجودات موجد هو واجب الوجود وذلك هو الله تعالى[4] ، ولابد

---

(١) وجودها .. بموجد : بذاتها أو لموجد (ب) . (٢) (ب) : لموجود .
(٣) (ب) : عين جمع .
(٤) خلاصة رأى «ابن النفيس» فى هذا الفصل هى :
(أ) أن اكتساب المعرفة يأتى أولا عن طريق الحواس ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، والأنف تتشم ، والتذوّق يميّز الطعوم ، واللمس وسيلة من وسائل الإدراك ، وعن هذا الطريق تمكن بطل قصته «كامل» من معرفة أعضاء جسمه الظاهرة ووظيفة كل منها .
(ب) ويرتقى الانسان بعد ذلك إلى اكتساب المعرفة عن طريق التجربة ، وعن هذا الطريق عرف «كامل» أعضاء جسمه الداخلية ووظائف كل منها بما فى ذلك القلب والرئتين والدورة الدموية .
(جـ) وعن الطريقين السابقين عرف «كامل» البيئة التى نشأ فيها ، وتعرف على ما بها من نبات وحيوان ، كما أدرك مميزات كل منها وفائدتها .
(د) ويرتقى إدراك كامل من المحسوسات التى حوله ، إلى ادراك ما أمكن له ان يشاهده بالحواس فعرف شيئا عنه بالعقل ، وبذلك انتقل إلى معرفة «الأجسام السماوية وحركتها ونظام بعضها مع بعض» .
ولا يسع الباحث المدقق إلا أن يدرك أن «ابن النفيس» كان فى تفكيره هذا متأثرا بكثير من الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى :
١ - ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (سورة البلد ٨) .
٢ - ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (سورة الملك ٢٣) .
٣ - ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل ٤٤) .
٤ - فإذا شب بطل القصة «كامل» ونما عقله واتسع أفق تفكيره ، وأدرك كل ما حوله من الأرض والسماء وما بينهما استطاع بالتفكير الجاد أن يصل إلى أن كل ذلك لابد له من موجد ، وبذلك عرف الله الواحد الأحد ، كما عرف الكثير من صفاته . ولابد لنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن «ابن النفيس» استوحى هذا المنهج من دراسته لما ورد فى القرآن المجيد عن أبى الأنبياء «إبراهيم الخليل» .

وأن يكون عالما بكل شيء وإلا لم يكن فعله متقنا ، ولابد وأن يكون فى غاية الاعتناء بكل شيء ، وإلا لم يجب أن يكون كل شيء على أفضل الأحوال الممكنة له ، فظهر لكامل إذا أن لهذه الموجودات* موجدا (ب٧ظ) واجب الوجود ، عالما بكل شيء ومعتنيا بكل شيء .

الفصـــــل الثالث

فى بيان كيفية وصول المسمى بكامل إلى تعرف أمر النبوات

إن المسمى بكامل لما بلغ فى المعرفة إلى الحد الذى ذكرناه ، وكان إذ ذاك قد تهذب ذهنه وقد قارب[1] الشيبية ، فأراد أن يعرف ما حق الخالق على عباده[2] ففكر هل الخالق تعالى مما ينبغى أن يعبد وأن يُطاع ؟ وما الطريق إلى تعرف العبادة اللائقة بجلاله ؟ وبقى يفكر[3] فى ذلك مدة ، واتفق أن الريح ألقت إلى تلك الجزيرة سفينة فيها خلق ★ كثير من (أ٣٠و) التجار وغيرهم ، وأقاموا هناك مدة لأجل إصلاح تلك السفينة مما نالها بقوة[4] ضرب الرياح لها ، وانتشر أهلها فى تلك الجزيرة يحتطبون ويجنون من ثمارها ، فلحظهم كامل ونفر منهم أولا ، ولم يزل يدنو منهم قليلا قليلا مع حذر حتى شاهدوه ، فهالهم عِظَمُ بدنه واستدعوه ففر[5] منهم ، فألقوا إليه[6] شيئا من الخبز ومن طعام كان معهم ★ فلما أكله استطابه (ب٨و) جدا ، لأنه لم يكن قبل ذلك أكل غذاء صناعيا[7] ، ثم تأنس بهم فألبسوه ثوبا ، وأكل من أطعمتهم فأعجبه ذلك .

واجتهدوا فى تعليمه اللغة فتعلم كثيرا منها ، وأخبروه بأحوال مدنهم وما يؤكل فيها فتعجب من ذلك إذ كان يظن أنه ليس سوى تلك الجزيرة أرض ، وأحب السفر معهم فحملوه إلى مدينة بالقرب من تلك الجزيرة فأكل من أطعمة أهلها ولبس ملبوسهم فالتذ بذلك لذة عظيمة .

---

(١) (ب) : فارق .
(٢) (ب) عبده .
(٣) (ب) مفكرا .
(٤) (ب) : من قوة .
(٥) (ب) : نفر .
(٦) (ب) : له .
(٧) (ب) ضياعيا .

وتذكر ما كان عليه من سوء العيش لأجل دوام التعرّى فى البرد والحر ، والاقتصار على الأغذية الطبيعية ، ووصول الحيوانات إليه ونهشها له كل وقت ، فعلم أن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعى واحتياجه إلى غذاء صناعى ليست تجود عيشته إذا[1] انفرد بنفسه بل ولابد وأن يكون * الإنسان مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم (أ٣٠ظ) أن يزرع وللآخر[2] * أن يحرث وللآخر[2] أن يخبز وللآخر[2] أن ينقل (ب٨و) المادة وللآخر[2] أن يخيط الثوب ونحو ذلك .

ثم تفكر فقال فى نفسه : وإذ الإنسان يحتاج فى جودة[3] معيشته إلى ذلك فهو لا محالة محتاج إلى وقوع معاملة كبيع وإجارة ونحوهما ، وهذه المعاملة تؤدى إلى المنازعة ، وكل أحد يرى أن ماله حق وما عليه باطل ، فلذلك إنما تجود[4] معيشة الإنسان بأن[4] يكون مع جمع[5] بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة وإنما يمكن[6] ذلك بأن يكون ذلك الشرع مما يتلقى بالطاعة والقبول وإنما يكون ذلك إذا اعتقد أنه من الله تعالى ، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدقه الناس فى إخباره أنه من الله تعالى ، وهذا الشخص ليس يمكن[7] أن يكون حيوانا[7] غير إنسان فإن غير الإنسان من الحيوانات لا نطق له ألبتة فضلا عن أن يكون مبلغا

---

(١) (ب) و (جـ) : إذ .

(٢) (ب) : لآخر .

(٣) (ب) : فى جميع وجود .

(٤) (ب) : تجود معيشته بأن .

(٥) (ب) : جمعهم .

(٦) (ب) : يكون .

(٧) (ب) : يمكن حيوانيا .

لشرع ، ولا يمكن أن يكون مما لا يقوى أكثر الناس على الاحساس به كالملك* أو[1] الجن وإلا لم يتمكن الجمهور من سماع الشرع منه فلذلك (ب ٩ و) لابد أن[2] يكون هذا الشخص إنسانا .

ثم تفكر فقال : وإذا كان هذا المبلغ إنساناً فلابد وأن يكون مختصا بأمر لأجله يصدقه الجمهور[3] وغيرهم فى إخباره* أن ما جاء به هو من (أ ٣١ و) عند الله ، وإنما يكون كذلك[4] إذا كان مختصا بأمر يُعلم معه[5] أنه لولا اتصاله بالله وتعالى وصدقه[6] فيما يخبر عنه[7] لم يكن له ذلك ، وهذ الأمر هو الذى يسمى بالمعجز ، فإذا[8] لابد وأن يكون هذا الشخص ذا معجز يشعر الأنفس معه أن ما جاء به ليس بزور ولا باطل بل هو حق من عند الله تعالى ، والشخص الذى له ذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فعلم لذلك كامل أن جودة عيشة الإنسان إنما تتم بوجود هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فوجوده خير عظيم للإنسان[9] ونفع عام ، والله تعالى يعلم ذلك [10]فواجب بحسب عنايته وجود[10] هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ من* المستحيل أن يترك الله تعالى خلقة هذا النبى مع نفعه العام ومع (ب ٩ ظ) ذلك فإنه لا يهمل خلقة شعر العانة ونحوه مما يقل نفعه ، فلذلك علم كامل

---

(١) (ب) : و .
(٢) (ب) : وأن .
(٣) (ب) : الناس .
(٤) (ب) : ذلك .
(٥) (ب) : منه .
(٦) (ب) : وتصديقه .
(٧) (ب) : يخبر به عنه .
(٨) (ب) : وإذا .
(٩) – : (ب) .
(١٠) (ب) : فواجب يجب وجود .

أن خلقه [1]النبى صلى الله عليه وسلم مما لابد منه ، ثم تفكر بعد ذلك فى منفعة النبى صلى الله عليه وسلم[2] فرأى أن له ثلاث منافع :

إحداها : [3] أنه يبلغ الناس شرع الله عز وجل كما ذكرناه .

وثانيها : [4] أنه يعرف الناس بجلال الله تعالى[5] وبسائر صفاته .

وثالثها : [6] أنه يعرفهم حال المعاد وما هو معد لهم فى الدار الآخرة من السعادة والشقاوة[7] .

ثم تفكر بعد ذلك كامل وقال إن هذه الأشياء مما يعسر على طبائع كثير من الناس * قبولها إذ كثير من الناس يعسر عليهم تسليم وجود (أ ٣١ ظ) ما هو ليس بجسم ولا قوة فى جسم ولا هو فى جهة ولا إليه إشارة ، وكثير منهم يعسر عليه[8] تصور كيفية[8] الرسالة وكيفية بعثة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وكثير منهم يعسر عليه تسليم[9] * أمر المعاد وتسليم (ب ١٠ و) العودة[10] بعد الموت[11] وتسليم البقاء الأبدى فى النعيم أو فى الجحيم ونحو ذلك مما تتضمه تلك المنافع ، ولولا أن الناس فى هذا الزمان قد اعتادوا ما جاءت به الشريعة وألفوا[12] أقوالها لبادروا بالاستنكار [13] والرد على

---

(١) (ب) : خلقه هذا .
(٢) صلى ... وسلم : - (أ) .
(٣) (ب) : أحدها .
(٤) (جـ) : ثانيتها .
(٥) - : (ب) .
(٦) (جـ) : ثالثتها .
(٧) انظر تعليقنا على حاجة الناس إلى الأنبياء فى آخر هذا الفصل بالهامش .
(٨) (ب) : عليه كيفية تصور .
(٩) - : (ب) .
(١٠) (ب) : العود .
(١١) (ب) : الممات .
(١٢) (ب) : الغوا .
(١٣) (ب) : فى الانكار .

الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وإذا كان قبول هذه الأشياء عسرا ، فلو ورد النبى صلى الله عليه وسلم بها دفعة(1) من غير أن يتقدمه أنبياء أخر يقربون أكثر ذلك إلى أذهان الناس لنفر(2) الناس عنه جدا وكان تكذيبهم له شديدا ، فلذلك ينبغى أن يرد أولا أنبياء(3) بما هو من هذه الأشياء أسهل قبولا ،(4) والحاجة إليه فى جودة بقاء الإنسان وجودة معيشته(5) أمسّ ، وذلك هو تبليغ(6) الناس شرع الله عز وجل ، ويكون الوارد أولا واردا بما هو من ذلك قريب إلى(7) العقل ليكون قبوله أسهل والنفرة عنه أقل ، وكلما جاء نبى آخر زاد على المتقدم حتى يستوفى مايحتاج إليه من الشرع ، * وحينئذ يكون الناس قد عرفوا الله بوجه مّا ، واشتاقوا إلى (٣٢أو) تعرف صفاته(8) وخصائصه فيسهل عليهم قبول ما يرد به الأنبياء المتأخرون من ذلك .

ثم إذا عرف الناس(8) صفات الله تعالى وجلاله وتحققوا قدرته التامة لم يعسر عليهم التصديق بأحوال المعاد وما يشتمل عليه من السعادة والشقاوة الأبديتين(9) فلذلك يسهل عليهم تصديق من(10) يأتى بعد ذلك من الأنبياء بذلك فلذلك اعتقد كامل أنه ليس يمكن أن يكمل(11) الغرض من النبوة بنبى واحد بل ولا بد من أنبياء يأتى سابقهم بما يدرج الناس إلى معرفة(12) ما يأتى به المتأخر ، ولا بد(13) وأن يكون كل متأخر

---

(1) (ب) : دفعت بالتاء المفتوحة . وانظر ما ذكرناه عند التعليق على انكار الفلاسفة للبعث بالأجسام.
(2) (ب) : ليفر .
(3) – : (ب) .
(4) (ب) : قولا .
(5) (ب) : عيشته .
(6) (ب) : يبلغ .
(7) (ب) : من .
(8) صفاته ... الناس : – (ب) .
(9) (ب) : الأبديين .
(10) (أ) : ما .
(11) أن يكمل : – (ب) .
(12) (ب) : معرفته .
(13) (ب) : فلابد .

منهم يأتى بما أتى به[1] السابق وزيادة حتى يُكمِّل فائدة النبوة عند آخرهم ، فلذلك يحتاج الآخر منهم أن يكون عالما بجميع ماأتى[2] به السابقون ، ومتمكنا من تبليغ جميع ما بلَّغه السابقون فلذلك لابد وأن يكون النبى الذى هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء وأقومهم بما يحتاج إليه فى أمر النبوة ، وكذلك ينبغى أن يكون كل متأخر من النبيين أفضل ممن[3] قبله ، ولكن ذلك إنما يلزم* إذا[4] لم يعرض للناس تغيّر يقتضى خلاف (ب١٢و) ذلك ، فإنه قد[5] يبلغ الأمر بالنبى الآتى فى زمان ما إلى أن يقارب[6]* (أ٣٢ظ) درجة الذى تكمل به فائدة النبوة ، ثم بعد ذلك ينقرض أهل ذلك الزمان بغتة[7] إما بطوفان[8] أو بوباء عام ونحو ذلك ، فيكون القوم الذين يردون[9] بعد ذلك فى حكم الذين كانوا[10] قبل بعثة الرسل أوَّلا ، فلذلك يحتاج حينئذ إلى إعادة تدريج الناس إلى سهولة قبول الحق ، وذلك بأن يرد أوَّلا نبى يكون فى قوته[11] كالنبى الذى جاء فى أول الأمر ، فلذلك يحتاج حينئذ أن يكون هذا النبى أضعف من السابق عليه ، فبهذا الوجه لم يلزم أن يكون كل نبى أفضل ممن سبقه ، إلا النبى الأخير وهو

---

(١) (أ) : أتا به .
(٢) (أ) : أتا .
(٣) (ب) : مما .
(٤) (ب) : إذ .
(٥) - : (ب) .
(٦) (ب) : يقرب .
(٧) (ب) : بفتنة .
(٨) (ب) و(جـ) : طوفان عام .
(٩) (ب) : يريدون .
(١٠) (جـ) : كأنهم .
(١١) (ب) : قومه .

خاتم النبيين فإنه على كل حال يجب أن يكون أفضل ممن سواه لأن النبوة بعده تنقطع فلابد وأن يأتى بجميع ما يحتاج إليه فى تكميل فائدة النبوة ، فلذلك يجب أن يكون النبى الذى هو خاتم النبيين أفضلَ الأنبياء جميعهم[1] .

---

(١) انظر تعليقنا « فى معرفة كامل لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم » وقد نقل « ابن النفيس » فى بداية هذا الفصل بطل قصته « كامل » إلى جزيرة عامرة بالناس حيث المدنيَّة ، والاستقرار فى المعيشة ، وهناك استطاع كامل أن يدرك أن العقل البشرى لا يستطيع وحده أن يهدى الناس إلى ما يسعدهم فى الدارين ، واهتدى إلى أن الله سبحانه أرسل الأنبياء رحمة منه إلى من يشاء من عباده لهدايتهم إلى ما فيه خيرهم وتنظيم معاشهم وحياتهم فى الدنيا ، مما يؤدى إلى سعادتهم فى الدارين ، وأن الأنبياء رحمة من الله يبشرون وينذرون باذنه الشعوب التى اختار الله أن يرسلهم إليها . وكان « ابن النفيس » فى هذا التوجيه يعارض بعض الفلاسفة كما قلنا من قبل ، وكان يؤيد مبدأ هاما من مبادىء العقيدة الإسلامية كما ذكرها الله سبحانه فى عدة آيات من آيات القرآن المجيد مثل قوله سبحانه مخاطبا خاتم الأنبياء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤٥ – ٤٧) .

كما وصف الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء ١٠٧) .

وواضح أن « ابن النفيس » كان معجبا بالفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » وبمنهجه فى كتاب « حىّ بن يقظان » ولذلك اقتدى به فى كتابه « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » ولذلك نرى تشابها فى بعض الحوادث فى القصتّين وبخاصة فى القسم الأول من كتاب « ابن النفيس » حيث وصلا إلى بعض الحقائق الهامة ومنها : أن الإنسان إذا استعمل ما أودعه الله فيه من ملكات استطاع الوصول إلى معرفة الخالق دون حاجة إلى لغة يتكلمها ، ولعلهما استوحيا هذا التفكير مما قصه الله العليم فى كتابه العزيز عن « أبى الأنبياء إبراهيم » ، ولكننا نؤكد أن « ابن النفيس » لم يكن فى كتابه مجرد مقلد « لابن طفيل » فالتقليد يولد السير فى طريق المطابقة ، ولكن « ابن النفيس » كان محتفظا باستقلال تفكيره وأصالته ،ولذلك نراه فى هذا الفصل يعارضه ويثبت فى أصالة حجة ، وقوة إيمان حاجة الناس إلى الشريعة لضبط سلوكهم ، وتوجيههم لطريق الخير طمعا فى إحسان الله ، وخوفا من عقابه فى الدنيا والآخرة .

(ب ١٢ ظ)

* الفن الثـــانى

فى كيفية توصل كامل إلى معرفة السيرة النبوية

وكلامنا فى هذا الفن يشتمل على عشرة فصول(١) :

[**الفصـــل الأول** : فى نسب هذا النبى الذى هو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

الفصـــل الثانى : فى موطن هذا النبى الذى هو خاتم النبيين صلى عليه وسلم .

الفصل الثالث : فى أنه كيف ينبغى أن تكون تربية هذا النبى الذى هو خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

الفصل الرابع : فى حال هذا النبى صلى الله عليه وسلم فى شهواته .

الفصل الخامس : فى هيئة هذا النبى صلى الله عليه وسلم .

الفصل السادس : فى حال هذا النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمراض ومقدار العمر .

الفصل السابع : فى أولاد هذا النبى صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثامن : فى كيفية دعوة هذا النبى صلى الله عليه وسلم للناس إلى اتّباعه .

الفصل التاسع : فى اسم هذا النبى صلى الله عليه وسلم .

الفصل العاشر : فى كِتاب هذا النبى صلى الله عليه وسلم](١).

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة لتنسيق النص وتيسير الإفادة منه ، وقد اعتمدنا فيه على عناوين الفصول كما وضعها المؤلف .



الفصـــــل الأول

فى نسب هذا النبى الذى هو خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم

قال فاضل بن ناطق : ولما تبين للرجل المسمى بكامل أن هذا النبى صلى الله عليه وسلم يجب[1] أن يكون أفضل ★ النبيين[2] وأعلمهم تفكر (أ ٣٣ و) بعد ذلك فقال فى نفسه[3] : إن هذا[3] يجب أيضا أن يكون عند[4] الناس بهذه المنزلة ، لأنه لو لم يكن كذلك لم تكن فى نفوس الناس من استعظامه ما يسهل عليهم الإذعان لقبول ما يخبر به ، لأن هذا يشتمل إخباره عن أشياء كثيرة مما لا يقبلها أوهام الناس ، لأنه يخبر بتفاصيل الشريعة ، وبجميع صفات الله تعالى ، وبتفاصيل أحوال المعاد ، فلو لم يكن عند الناس بالمنزلة العظيمة جدا لم ينقادوا لقوله ؛ ولا كذلك باقى الأنبياء عليهم السلام★ وإنما يكون هذا[5] النبى عند الناس كذلك[6] إذا كان نسبه (ب١٣و) شريفا جدا ، وأشرف النسب ما كان إلى أولى الدين ، وأشرف ذلك ما كان إلى النبيين ، وأشرف ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء ، وأفضل ذلك ما كان إلى نبى قد اتفقت الملل على تعظيمه لأنه لو كانت له ملة تعاديه[7] لكانت تلك الملة تنفر عن المنسوب إليه ، فكانت تحمل الناس على[8] الامتناع من قبول أخباره ، والنبى[9] الذى هو كذلك[9] هو

---

(١) (ب) : وجب . (٢) (ب) : الأنبيا .

(٣) (ب) : إن هذا يجب أن يكون أفضل الأنبياء وأعلمهم تفكر بعد ذلك فقال فى نفسه : إن هذا يجب .

(٤) (ب) : عنه . (٥) (ب) : هنا .

(٦) (ب) : بذلك . (٧) (ب) : تعاونه .

(٨) (ب) : عن . (٩) (ب) : والنبى صلى الله عليه وسلم وكذلك .

ابراهيم عليه الصلاة والسلام لأنه مع جلالته فى نفسه قد اتفقت الملل على تعظيمه ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوبا إلى ابراهيم صلوات الله على الجميع .

ويجب أن يكون هذا النبى صلى الله عليه وسلم غير منتسب أولا إلى ملة غير★ ملته[١] فلا يكون أولا يهوديا ولا نصرانيًا ولا مجوسيًا ونحو (أ٣٢ظ) ذلك ؛ لأنه لو كان من أهل ملة لكان – عند دعواه النبوة [والدعوة][٢] إلى الدين★ الذى يُحْدِثُهُ – كافرًا عند[٣] تلك الملة ، لأنه يكون قد خرج (ب١٣ظ) عن دينهم فيكون عندهم مبتدعا كافرًا[٣] وذلك مما يدعوهم إلى تنفير الناس عنه حتى[٤] ولو كان مُقرِّرًا لدين الملة كما جرى لعيسى عليه السلام مع اليهود ، فكيف[٥] إذا[٦] نسخ دين تلك الملة وبدَّله ؟ فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين ليس منسوبًا فى أول أمره إلى ملة أخرى ،فلذلك يجب أن لا يكون من نسل يعقوب أو العيص عليهما السلام : لأن[٧] من ينتسب إلى يعقوب عليه السلام إن لم يكن يهوديا فهو كافر خارجى أعنى بذلك قبل بعثة خاتم النبيين ، وإن كان يهوديا كان منسوبًا إلى ملة اليهود ، وقد تبين أن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون كذلك ،فلذلك لا يجوز أن يكون منسوبًا إلى يعقوب عليه السلام ؛

---

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النحل ١٢٣ . ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الحج ٧٨ .

(٢) [والدعوة] زيادة حتى يستقيم المعنى ،وهى ناقصة فى (أ) ، أما فى (ب) : «ردُّه الناس» ، وفى (جـ) : «دعاء الناس» وهى زيادة من المحققين ، والأفضل ما اخترناه مع اعتبار أنه توجد جملة اعتراضية أوضحناها بين علامتى الاعتراض .

(٣) عند .. كافرا : – (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

(٤) – : (ب) .

(٥) – : (ب) .

(٦) (ب) : إذ .

(٧) (ب) : لا .

ولمثل هذا لا يجوز أن يكون منسوبا الى العيص[1] لأن المؤمنين من المنسوبين إليه قبل البعثة نصارى ؛ فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم منسوبا إلى إسماعيل عليه السلام[2] ، * فلذلك[3] يجب أن (ب١٥و) يكون * هاشميًا[3] . (أ٣٤و)

(١) (ب العيص عليه السلام .

(٢) (ب) : السلام ويجب أن يكون منسوبًا إلى أشرف الفقراء فى الانتساب إلى إسماعيل عليه السلام .

(٣) فلذلك .. هاشميًا : مكررة فى (ب) نتيجة طمس فى ورقة فى أوراق المخطوطة ، وأعيد كتابتها مرة أخرى فى ورقة جديدة .

الفصـــــل الثانى

فى موطن هذا النبى الذى هو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

إن هذا النبى لما ثبت عند كامل أنه يجب أن يكون أعلم الأنبياءِ وأفضلهم ، فكر فى – أنه – أى المواضعِ من الأرض ينبغى أن يكون منها ؟ فقال فى نفسه : أنه يجب أن لا يكون من أهل البرّ كالأعراب ونحوهم ، فإن سكان البرارى يجب أن تكون عقولهم وآراؤهم أنقص مما يكون فى أهل المدن ، فإن أهل البر لا يجدون من[1] يتشبهون به من العقلاء بخلاف أهل المدن . فإذا لابد وأن يكون هذا النبى من أهل المدن ، ويجب[2] أن يكون من أهل المدن[2] الأشرف فإن أهل المدن الخسيسة يُستقلون عند الناس ، وفضيلة المدن تكون بأمور : منها اعتدال الهواء ، ومنها رخاء الأسعار ، ومنها كثرة الثمار ، ومنها كثرة المياه ونحو ★ ذلك ، (ب ١٥ ظ) ومنها العظمة الدينية فى نفوس الناس ، وهذا هو أوْلى الأمور التى بها ترجح المدينة التى يكون منها هذا النبى صلى الله عليه وسلم . وإنما تتحقق العظمة الدينية لمدينة[3] إذا كانت[4] مشتملة على معبد عظيم عند الناس ؛ وأفضل المعابد التى هى كذلك ، ما توالت عليه الأحقاب ، لأن ما يكون من المعابد كذلك تكون عظمته قد استقرت فى نفوس الناس من زمان طويل جدا ، وأقدم ★ المعابد هو البيت العتيق – شرَّفه الله تعالى – فإنه أول (أ ٣٤ ظ)

---

(١) (ب) : مما .

(٢) ويجب ... المدن : – (ب)

(٣) (ب) : لمدينته .

(٤) (ب) : كانت تلك المدينة .

بيت وضع للناس[١] ، فلذلك كانت المدينة المشتملة عليه وهى مكة شرفها الله تعالى أشرف البلاد[٢] ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين مولده مكة[٣] .

ولما ثبت ذلك عند كامل تفكر[٤] بعد ذلك فى أن هذا النبى صلى الله عليه وسلم هل يقيم بمكة إلى وفاته أو يهاجر عنها إلى مدينة أخرى يموت بها ؟ فقال فى نفسه إن هذا النبى صلى الله عليه وسلم * لما كان خاتم (ب١٦و) النبيين صلوات الله عليهم[٥] فالنبوة لا محالة منقطعة بعده ، وإذا كان ذلك وجب أن يكون شرعه[٦] وعظمته محفوظين جدًّا عند الناس ، فإن نسيان ذلك يلزمه بطلان فائدة النبوة : فلذلك يجب أن تُدوَّن شريعته وأن يكثر الاشتغال بها وبكلامه وأحواله وسيرته ونحو ذلك أكثر مما فى باقى الأنبياء ، ومما لابد منه فى حفظ عظمته أن تسن الزيارة إلى قبره حتى يرغب الناس فى ذلك ويسافرون إلى قبره من أطراف البلاد[٧] ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قبره فى غير مكة :

إذ لو كان بمكة لكانت[٨] زيارته تقع كالتبع لزيارة البيت ، فكان يُظن على طول الزمان أن الحج لأجل البيت فقط ويُنسى قبر النبى ﷺ ، (أ٣٥و) فيؤدى ذلك إلى * نسيانه ﷺ * ويلزم لذلك بطلان الشريعة . (ب١٦ظ)

---

(١) ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَٰلَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (آل عمران ٩٦ ، ٩٧) .

(٢) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (البقرة ١٢٦) .

(٣) (ب) : بمكة .

(٤) (ب) : بحبط .

(٥) (ب) : عليهم أجمعين .

(٦) (ب) : شريعته .

(٧) روى البخارى أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حَبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصحِّحْها وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجحفة » (انظر فتح البارى : ٧ / ٢٦٠ ، المطبعة السلفية) .

(٨) (ب) : لكان .

فلذلك ينبغي أن يكون قبره فى بلد آخر حتى يكون السفر إليه لقصده فقط فيدوم حفظ عظمته، وإنما يكون قبره فى بلد آخر إذا حصل هو فى ذلك البلد ومات فيه.

ففكر بعد ذلك كامل فى أن حصول هذا النبى صلى الله عليه وسلم فى البلد الذى يموت فيه ما الذى ينبغي أن يكون سببه ؟ فرأى أن ذلك لا يمكن أن يكون لأجل طلب المال بالتجارة ونحوها ولا لطلب[1] طيب هواء ذلك البلد ، أو كثرة فاكهته[2] أو رخاء سعره أو كثرة المياه فيه ونحو ذلك ، فإن ذلك كله مما لا يليق قصده بمنصب النبوة خاصة هذا[3] النبى العظيم .

بل ولا يجوز أيضا أن يكون خروجه من مكة شرفها الله تعالى عن اختيار منه ، وإلا كان مختارا للخروج من الموضع الأفضل الى ما هو دونه ، وذلك مما لا يليق بالعقلاء فضلا عن هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن يكون خروجه ★ من مكة اضطرارا ، ولا يمكن أن (ب١٨و) يكون ذلك على سبيل النفي ، فإن ذلك لا يليق بعظماء الناس ويَحُطُّ[4] من المنزلة ، ولا يمكن أيضا أن يكون على سبيل الهزيمة[5] فى القتال[6]

---

(١) (ب) : يطلب .
(٢) (ب) : فاكهة .
(٣) - : (ب) .
(٤) (ب) : يحبط .
(٥) (ب) : الهزيمة من الكفار .
(٦) فى القتال : - (ب) .

ونحو ذلك ، فإن ذلك يحط[1] بمنزلته[2] فلذلك إنما يمكن ذلك بأن[3] يكون على وجه يدل على عظمته ★ فى نفسه ومهانة الكفار ، (أ٣٥ظ) وذلك بأن[3] يجتمع عدد كثير منهم ويتفقون على قتله سرقة وخفية وفى حال نومه ، ويخرج هو كالفارّ من ذلك فإن هذا الخروج يدل على أمور :

أحدها : ذل الكفار ومهانتهم حتى يكون القاصد لقتل واحد خلقٌ كثير منهم مجتمعين ، فإن هذا إنما يُفعل غالبا إذا كان القاتلون ضعفاء جدًّا ، وكان المقصود قتله عظيم الشأن كالملك العظيم أو الشجاع القوى البأس .

ثانيًا : عظمة شأن النبى صلى الله عليه وسلم إذ لم يجسر عليه واحد أو اثنان فقط .

وثالثها : اطلاعه على الأمر ★المغيَّب الذى قصده الكفار خفية (ب١٨ظ) وذلك من جملة المعجزات .

فلذلك يجب أن يكون خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة – شرفها الله تعالى – على وجه يجتمع[4] عدة من الكفار ليقتلوه خفية ، فيخرج هو بإطلاع الله له على كيدهم .

وإذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة فلا بد وأن يعود إليها ، وأن[5] يملكها لأنه – كما تعلَمُه بعد – لا بد وأن يوجب الحج إليها

(١) (ب) : يحبط .
(٢) (ب) : منزلة .
(٣) (ب) : أن .
(٤) (ب) : مجتمع .
(٥) أن : – (ب) .

فيكون حجها واجبا عليه أيضاولا يمكن دخوله فيها وهى[1] فى أيدى الكفار وإلا كان دخوله فيها[1] على وجه يكون كأنه فى ذمتهم[2] وذلك مما لا يليق بمنصبه فلذلك لابد وأن يدخل[3] إليها وهى ملكه وأيضا ★ لو لم (أ٣٦و) يملكها لكان لأصحابه إذا أوجب الحج إليها أن يقولوا و كيف يجب علينا التوجه إلى موضع لعله لا يؤذن لنا فى الدخول فيه ؟ فلذلك يجب أن يعود النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد خروجه منها ، وأن يكون ذلك على وجه يكون هو ★ ملكها[4] . (ب٢٠و)

ثم بعد ذلك فكر كامل فى المدينة التى ينبغى أن يكون انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، فرأى أن الأوْلى أن تكون هذه المدينة مختصة بأمر لأجله يليق بهذا النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون قبره فيها ، وذلك كما إذا كانت هى المدينة التى مات فيها والده ليكون قبره إذا مات بالقرب من قبر والده ، وتلك المدينة هى يثرب ، ورأى أن الأولى أن يكون مقام هذا النبى فيها هو[5] على وجه يعظم فيها شأنه ، وذلك بأن يكون ملكها ونحو ذلك .

---

(١) وهى ... فيها : – (ب) .

(٢) فى العام السابع للهجرة ، وبعد أن حال الحول على صلح الحديبية دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة ومن معه من المسلمين معتمرين ، وقد غادر زعماء المشركين أم القرى قبل دخول النبى وظلوا بعيدا عنها حتى غادرها الرسول الكريم ومن معه .

(٣) (ب) : يعود .

(٤) فى صباح الجمعة عشرين من رمضان سنة ٨ للهجرة دخل النبى والمسلمون مكة منتصرين ورافعين راية التوحيد ، وطافوا حول الكعبة المشرفة ، وحُطمت الأصنام .

(٥) – (ب) .

الفصـــــل الثالث

فى أنه كيف ينبغى أن تكون تربية هذا النبى الذى هو خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

ثم إن[1] المسمى بكامل فكر بعد ذلك فى أن هذا النبى كيف ينبغى أن يُرَبَّى[2] بعد مولده[1] فقال فى نفسه : إن هذا لما كان خاتم النبيين وفاضلهم وسيدهم وبه تكمُل[3] الشريعة ، وبعده ينقطع الوحى ، فلابد وأن يكون رسولا إلى الناس كلهم حتى لا تبقى طائفة يحتاجون ★ إلى بعثة (ب ٢٠ ظ) نبى آخر[4] فلا يكون ★ هذا النبى خاتم النبيين ، وإنما يكون هذا النبى (أ٣٦ ظ) صالحا لذلك إذا كان فى أخلاقه بغاية الاعتدال حتى يمكنه أن لا ينافر أحدا من الناس مع اختلاف أخلاقهم وأمزجتهم ، وإنما يكون[5] ذلك إذا كان هذا النبى بغاية الاعتدال فى المزاج ، فإن انحراف المزاج إلى أىّ جهة كان يلزمه انحراف الخلق إلى ما يناسب ذلك المزاج ، فلذلك يجب أن يكون هذا النبى صلى الله عليه وسلم بغاية الاعتدال فى المزاج والأخلاق[6] ، وإذا كان كذلك وجب أن يموت أبوه أولا ، ثم تموت أمه ، وأن يرضعه غير أمه ، وأن تكون رضاعته فى غير مكة شرفها الله تعالى ، وأن يربيه بعد ذلك وبعد موت أمه أقاربه المقارنون لمنزلة أبيه فى الحرمة[7] وهؤلاء

---

(١) إن ... مولده : – (ب) .
(٢) (أ) : يربا .
(٣) (ب) : يحمل (بلا إعجام) .
(٤) – : (أ) .
(٥) (ب) : يمكن .
(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ٤) .
(٧) (ب) : الحرفة .

كالجد(١) والأعمام ، وإنما قلنا ذلك لأن مزاج كل شخص قريب ★ من (ب٢١و)
مزاج أبويه فلابد وأن يكون مزاج هذا النبى صلى الله عليه وسلم فى أول
حدوثه كذلك ، فلا يكون بالاعتدال الذى ينبغى أن يكون له ، فلابد
من حدوث أمر آخر يقربه إلى الاعتدال ، ومن جملة ذلك الرضاع فإنه
يغير الطباع ، وينبغى أن تكون مرضعته من غير مكة(٢) لتكون مخالفة
لأمزجة(٣) المكّيات ، فيكون مزاجها شديد المخالفة ★ لمزاج أم النبى صلى (أ٣٧و)
الله عليه وسلم فيكون تعديلها لمزاجه أكثر ، وكذلك ينبغى أن تكون
تربيته أولا فى غير مكة(٤) لتكون فى هواء يخالف(٥) هواءها فيكون معدلا
لما يقتضيه هواء مكة ، فهذا هو السبب فى أن تكون مرضعته أولا غير
أمه ، ويجب أن تكون هذه المرضعة شديدة الشفقة عليه والمحبة له
ليكون(٦) ما يدر من لبنها(٦) عليه محموداً(٧) نافعاً له وإنما(٧) يكون ذلك
إذا ★ حصل لتلك المرضعة به انتفاع كثير ، فلذلك يجب(٨) أن تظهر (ب٢١ظ)
عندها(٨) البركة بعد أخذه .

وأما وجوب أن يربيه أولا غير أبيه فليعتدل بذلك خلقه ، فإن
الإنسان يستفيد(٨) الأخلاق من أخلاق معاشرة ومخالطه ؛ لأن نفس
الإنسان من شأنها المحاكاة ، فاستفادة الأخلاق من المربى أولى(٩) . ولو
عاش أبو النبى ﷺ لكان هو المربى له ، فكان يفيده الخلق بالأبوة

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : «أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» رواه البخارى عن حديث البراء بن عازب من عدة طرق برقم ٤٣١٥ / ٤٣١٦ / ٤٣١٧
(٢) (ب) : مكة شرفها الله .
(٣) (ب) : الأمزجة .
(٤) قال صلى الله عليه وسلم : «أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر ، فأنّى يأتينى اللحن ؟» السيوطى ، الجامع الكبير ٨٥٨٣ ، رواه الطبرانى عن أبى سعد الخدرى .
(٥) (ب) : مخالف .
(٦) (ب) : ليكون بأيديهن لبنها .
(٧) (ب) : محمودا فأفعاله وإنما .
(٨) (ب) : يجب أن تكون عنه . وأضيف بالهامش «يظهر» .
(٩) (أ) : أولا .

وبالتربية معا[1] فلذلك كان الأصلح للنبى ﷺ أن يموت أبوه لتعتدل أخلاقه بتعديل[2] أخلاق المربين[3] له ، ولا يكفى فى[4] ذلك واحد ، فإن الأخلاق كثيرة التغير[5] فيندر[6] أن يفى بتعديلها معدل واحد بخلاف المرضعة لأن تغير الأخلاق بالرضاعة شديد ، فيكفى فيه معدل واحـــد وفى مدة قصيرة ، ولا كذلك المربى ، فإن تغـــيير[7]★ (٣٧أو) المربى للأخلاق ضعيف ★ فلذلك إنما يفى بالتغيير إذا طال الزمان خاصة ، (ب٢٣و) وتكثُّر[8] المراضع يضر بالمرتضع ولا كذلك تكثر[9] المربى ، وإنما تأخر موت أم النبى ﷺ لأن بقاءها لا يغير الخلق[10] تغيرا[11] يزيد[12] على ما توجبه الأمومة زيادة كبيرة[13] ، وذلك لأن الرجال بالطبع ينفرون عن أخلاق النساء ، فهم لا يحاكون أخـلاق[14] أمهـاتهم كثيرا ، ولا كذلك[15] الأب فإن الابن يحاكى أخلاقه كثيراً .

---

(١) - : (ب) .
(٢) (ب) : بتبديل .
(٣) (ب) : المربيين .
(٤) - : (ب) .
(٥) (ب) : النفس .
(٦) (ب) : فيدر .
(٧) (ب) : تغير .
(٨) (ب) : وتكثير .
(٩) - : (ب) .
(١٠) (ب) : الأخلاق .
(١١) (ب) : تغييرا .
(١٢) (ب) : زائدا .
(١٣) (ب) و(جـ) : كثيرة .
(١٤) - : (ب) .
(١٥) (ب) : ولا كذلك ولا كذلك .

الفصــــل الرابع

فى حال هذا النبى ﷺ فى شهواته

ثم إن المسمى بكامل فكر فى الحال التى ينبغى أن يكون عليها خاتم النبيين ﷺ فى أمر الشهوات ، فقال فى نفسه : إن هذا لأجل اعتدال مزاجه ينبغى[1] أن تكون جميع أحواله باعتدال فكذلك ينبغى أن تكون شهواته ، فلذلك[1] ينبغى أن تكون شهواته بجملتها متوسطة لكن بعضها الأليق[2] بهذا النبى أن تكون خامدة وإلى ضعف كشهوة الأكل ، وذلك لأن قلة الأكل ★ من سنة الأولياء ، وكثرته من سنن أولى الشره ، وبعضها (ب ٢٣ ظ) الأليق به أن يكون قويا كشهوة الطّيب ، وشهوة العبادات ، وشهوة الباه ، أما شهوة الطيب فلأن زيادة الطيب مما ينتفع به الجلساء والمخالطون ويُستعظم صاحبه ،★ كما يُكره[3] الذى رائحته كريهة ويُستقل ، وأما (أ ٣٨ و) شهوة الباه فلأن زيادة هذه الشهوة فى الرجال محمودة لأنها تدل على قوة الرجولية ، وأما شهوة العبادات فلأن[4] هذا النبى ﷺ لابد وأن يكون اتصاله بالله تعالى شديدا[5] فإذا كان فى العبادة كان استغراقه فيها شديدا واتصالـــه بالله تعـــالى[5] حينئـــذ تامـــا ، وذلك موجب

---

(١) ينبغى أن ... فلذلك : - (ب) .
(٢) (ب) : لا يليق .
(٣) (ب) : يشكره .
(٤) (ب) : فإن .
(٥) شديداً ... تعالى : - (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

لزيادة اللذة بخلاف غير هذا النبى ﷺ ، وأوْلى العبادات بذلك الصلاة[1] لأن التوجه فيها إلى الله تعالى أشد . وإذ كانت شهوة[2] هذا النبى ﷺ للباه قوية – وهو منزه عن أن تكون شهوته هذه لغير النساء فإن ذلك ★ من سيرة المفسدين والرعاع – فلابد وأن تكون شهوته هذه (ب ٢٤ و) إنما هى للنساء فلذلك يجب أن تكون عنده نساء كالزوجات وأن تكون مباشرته لهن كثيرة .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أخرجه أحمد فى المسند ، والنسائى ، والحاكم ، والبيهقى من حديث أنس ورمز له السيوطى بالحسن .

(٢) (ب) : وإذ شهوة .

الفصـــــل الخامس

فى هيئة هذا النبى ﷺ

ثم إن المسمى بكامل فكر فى أن هذا النبى ﷺ كيف ينبغى أن يكون فى خلقته ، فقال فى نفسه : إن هذا لا يجوز ألبته أن يكون فى هيئة بدنه أمر مستنكر ، فلا يكون قصيرا جدا لأن من يكون كذلك يُستحقر فلا يكون ★ فى أنفُس الناس عظيما ، وكذلك لا يجوز ألبتة أن يكون (أ ٣٨ ظ) مفرط الطول فإن من يكون كذلك لا بد وأن ينسب إلى[1] نقص فى العقل ، ولا يجوز أيضا أن يكون فى بدنه عاهة ، لأن من يكون كذلك يستقل ويتطير[2] به ، وجميع ذلك ينافى الحال التى يجب أن يكون عليها هذا النبى ﷺ ؛ وكذلك لا يجوز البتة أن يكون فى ★ وجهه أو فى (ب ٢٤ ظ) أعضائه الأخرى[3] شين أو مرض آخر مما يستقل به أو ينفر عنه ، ولا يجوز أيضا أن تكون أعضاؤه غير متناسبة لأن ذلك إنما يكون بخروج الأعضاء عن الاعتدال ، فلذلك لا يجوز أن يكون بطنه مفرط العظم ، ولا رقبته شديدة الغلظ ، ولا أصابعه مفرطة القصر ، ولا أن يكون وجهه مفرط الطول ، ولا أن يكون فكاه كبيرين[4] بل يجب أن يكون متناسب الأعضاء متوسط الخصب[5] فلا يكون مفرط السمن ولا مفرط النحافة ، ويكون بساماً هشًّا بشًّا ، جيد الهضم والاستمراء قوى الحواس والذهن ، فصيح اللسان ، لأن هذه الصفات هى صفات المعتدلى الأمزجة .

---

(١) (ب) : إليه .
(٢) (ب) : يُطَيِّر .
(٣) (ب) : الأخرَ .
(٤) (أ) : كبيرتين .
(٥) (ب) : الخصب .

الفصـــــل السادس

فى حال هذا النبى ﷺ فى الأمراض ومقدار العمر

ثم إن الرجل المسمى بكامل فكر فى ★ أن هذا النبى[1] كيف ينبغى (أ٣٩و)
أن يكون حاله فى الأمراض ، فقال فى نفسه : إن من الأمراض ما★ (ب٢٦و)
لا يجوز حدوثها لهذا النبى ﷺ ؛ وذلك كالجنون والصرع ، فإن
صاحب ذلك يُستقل عن أن يُخاطب فضلا عن أن يؤخذ عنه خطاب الله
تعالى وشرعه ، وكالبرص فإن صاحبه يُنفر من مخالطته[2] ويُستقل ،
وكذلك الجذام والزمانة[3] والعور والعمى ، وأما الأمراض الحارة[4]
كالحميات وكذلك الأمراض الباردة التى لا غائلة[5] لها ولا تُستقبح
كالزكام والنزلة فكل ذلك قد يكثر حدوثه له ، ويجب أن يكون هذا النبى
ﷺ كثير الأمراض ، وتكون أمراضه قصيرة المدة غير شديدة جدًا ،
وذلك[6] لأن هذا النبى ﷺ لابد وأن يكون معتدل المزاج ، وذلك
يقضى أن تكون أمراضه كما قلناه[7] ، وذلك لأن المعتدل ليس فيه ما يقاوم
الواردات مقاومة[8] شديدة ، لأن شدة المقاومات إنما تكون لقوة القوة
على إحالة الواردات[8] إلى طبيعة البدن وإنما يكون ذلك إذا كان للبدن
كيفية غالبة وذلك مما لا يوجد مع الاعتدال ★ فلذلك لابد وأن يكون (ب٢٦ظ)

---

(١) (ب) : النبى ﷺ .
(٢) (ب) : مخاطبته .
(٣) الزمانة : مرض يدوم زمناً طويلاً .
(٤) (أ) : الحادة .
(٥) (ب) : غاية . والغائلة : الفساد والشر .
(٦) (ب) : وكذلك .
(٧) (ب) : قلنا .
(٨) مقاومة ... الواردات : - (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

البدن[1] المعتدل ضعيف المقاومة للواردات ، وجميع[2] الواردات هى لا محالة خارجة عن الاعتدال ، فلذلك تكون قوتها على ★ إحالة البدن (أ٣٩ظ) المعتدل إلى طبيعتها شديدة ، ويلزم ذلك حصول المرض ، وأما أن هذه الأمراض يسهل برؤها وتفارق بسرعة ، فلأنه يكفى فى إزالة أمراض[3] المعتدل المزاج ما هو ضعيف القوة من الأدوية وذلك لأجل سهولة قبوله للانفعال لما قلناه .

وأما عمر هذا النبى ﷺ فيجب أن يبلغ فيه الحد الذى يكمل فيه العقل ليمكن حينئذ حدوث النبوة وذلك هوسن الكهولة ، ولا يجوز أن يبلغ إلى حد يظهر فيه الخرف ونقصان الرأى ، فإن ذلك مما يُستقل معه الإنسان ، فلذلك يجب أن يموت هذا النبى ﷺ بعد انقضاء سن الكهولة وقبل استحكام الشيخوخة ، وذلك يكون فى[4] ★ الأبدان المعتدلة (ب٢٧و) الأمزجة بعد الستين بسنتين أو ثلاث والله أعلم[5] .

---

(١) (ب) : البدل .

(٢) (ب) : جمع .

(٣) (ب) : مرض .

(٤) (ب) : افى .

(٥) والله أعلم : – (أ) .

الفصـــــل السابع (١)

فى أولاد هذا النبى ﷺ

ثم[٢] إن المسمى بكامل فكر فى أن هذا النبى[٢] هل ينبغى أن يكون له أولاد أو ليس ؟ فقال فى نفسه : إن هذا لما كان كثير الجماع فلو كان مع ذلك غير مولد لكان ذلك نقصا ، فلذلك لا بد وأن يكون مولدا ، ولما كان مزاجه شديد الاعتدال لم يمكن أن يكون أولاده إناثا فقط ، لأن ذلك إنما يكون لبرد المزاج * ولا أيضا يمكن أن يكون أولاده ذكورا فقط (أ٤٠و) لأن ذلك إنما[٣] يكون بحرارة[٤] المزاج ، ولما كان مزاج هذا النبى معتدلا فيجب[٥] أن يكون له بنون[٦] وبنات .

وبنوه[٧] يجب أن لا تطول أعمارهم ، لأن أعمارهم إذا طالت بلغوا إلى سن[٨] النبوة وحينئذ لا يخلوا إما[٩] أن يكونوا أنبياء أو لا يكونوا[١٠] كذلك ؛ لا جائز[١١] أن يكونوا[١٢] أنبياء وإلا لما كان هو

---

(١) (ب) : الرابع .
(٢) ثم ... النبى : - (ب) .
(٣) (ب) : أما .
(٤) (ب) : لحرارة .
(٥) (ب) : فظهر .
(٦) (أ) : بنين .
(٧) (أ) : وبنيه .
(٨) (ب) : شدة .
(٩) - : (ب) .
(١٠) (أ) : يكون .
(١١) الأصوب : لا يجوز .
(١٢) (ب) : يكون .

خاتم النبيين ، ولا يجوز أن يكونوا غير أنبياء ★ وإلا كان ذلك نقصا فى (ب٢٧ظ) حقه وانحطاطا عن درجة كثير من الأنبياء ، فإن كثيرا من الأنبياء كان أولاده[1] أيضا أنبياء[2] ، وأما بنات هذا النبى فيجوز أن تطول أعمارهن إذ النساء لسن[3] بأهل النبوة[4] .

---

(١) (ب) : أولادهم .
(٢) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ ﴾ الأحزاب - آية ٤٠ .
(٣) (أ) : ليسوا .
(٤) (ب) : للنبوة .

الفصـــــل الثـــامن

فى كيفية دعوة هذا النبى ﷺ للناس إلى اتّباعه

ثم إن المسمى بكامل فكر فى أن هذا النبى الذى هو خاتم النبيين كيف ينبغى أن تكون دعوته للناس[1] إلى الحق وإلى متابعته ، فقال فى نفسه : إن هذا قد ثبت أنه لابد وأن يكون عظيم القدر[2] جدا عام الرسالة ، وإذا كان كذلك لم يجز أن تكون رسالته إلى ملك كما أُرسل موسى عليه السلام[3] إلى فرعون ، إذ لو أرسل إلى ملك فلا يخلو إما أن يخاطبه بالخطاب الذى يليق بالملوك أو[4] لا يكون كذلك ، فإذا كان الأول ★ كان ذلك حطًّا لمنزلته ونقصا فى حقه ، وإذا كان الثانى عُدَّ سيِّئَ (أ ٤٠ ظ) الأدب واستُجهل ، فلذلك ★ جُعلت رسالته إلى الناس كلهم و[5] على (ب ٢٩ و) السواء[5] ، وينبغى أن تكون دعوته إياهم أولا بلين ورفق واحتمال لما يصدر منهم[6] من مكروه[7] ، وأما إذا كثر أصحابه وأحسَّ[8] من نفسه

---

(١) (ب) : الناس .

(٢) - : (ب) .

(٣) عليه السلام : - (ب) .

(٤) (ب) : و .

(٥) و : - (ب) .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ ٢٨) .

(٦) ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥) . ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل ١٢٧) .

(٧) (ب) : مكرة .

(٨) (ب) : وأحسن .

بالقوة على المقاتلة فيجب أن تكون دعوته للناس حينئذ بالقهر والسيف ، وذلك لأن دعوته لو كانت أولًا بالسيف لتعذر عليه ذلك لقلة عدده ، ولو استمرت دعوته على وجه اللين لكان[1] زمانه يضيق عن تعميم ذلك للناس كلهم ، فلذلك يجب أن تكون دعوته[2] ﷺ للناس[3] أولًا باللين وأخيرا بالسيف[4] .

---

(١) (ب) : لكأنه .

(٢) للناس : – (أ) .

(٣) (ب) : دعوته للناس ﷺ للناس .

(٤) ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦٠ – ٦١) .

الفصـــــل التاسع

فى اسم هذا النبى ﷺ

ولما[1] ثبت عند كامل وجوب عظمة هذا النبى ﷺ[1] عند الناس وجب أن لا يكون فى اسمه أو[2] اسم أبيه أو جده ما يحط[3] قدره وينقص منزلته ، فلذلك لا يجوز أن يكون[4] اسمه اسم شيء محتقر مثل زبلة أو كلب أو ثور و[5]نحو ذلك مما جرت عادة[6] العرب بالتسمية به ، بل ولا يجوز أن يكون اسمه اسما مصغرا ★ مثل حُميد أو سُليم أو عُبيد فإن ذلك (ب٢٩ظ) أيضا مما تستصغر معه المنزلة ، ولا يجوز أيضا أن يكون اسمه ★ مما فيه (أ٤١و) كبرياء[7] وزيادة تعاظم كشاهنشاه[8] ، وشاه ملك ، ونحو ذلك[9] .

---

(١) ولما ... وسلم : – (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

(٢) (ب) : و .

(٣) (ب) : يحبط .

(٤) : أن يكون : – (ب) .

(٥) (ب) : أو نحو .

(٦) (ب) : عادت .

(٧) (ب) : كبر .

(٨) (ب) : كشاه . وفى الهامش ومعناه سلطان .

(٩) قال صلى الله عليه وسلم : «إن لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى» مسند أحمد ٤ / ٨٠ ، وصحيح الترمذى ٢ / ١٣٧ ؛ وانظر «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى جـ ١ ص ٤٩٤ .

الفصـــــل العاشر

فى كِتاب هذا النبى ﷺ

. ثم إن المسمى بكامل فكر فى أن هذا النبى ﷺ[1] هل ينبغى أن يكون له كِتاب أو ليس ؟ وإذا كان له كتاب فكيف ينبغى أن يكون ذلك الكتاب ؟

فرأى[2] أنه ينبغى أن يكون له كتاب[3] ، لأن من يأتى من الأنبياء بغير كتاب فهو أصغر منزلة ممن له كتاب .

ولما كان هذا النبى خاتم النبيين وجب أن تكون الحاجة الى حفظ شريعته أكثر وذلك لأن النبوة بعده منقطعة ، فلو نُسى شرعه لفُقد الشرع أصلا لتعذر حدوث شرع جديد ، فلذلك لابد وأن تكون الحاجة الى حفظ شرع هذا النبى ﷺ أكثر من حفظ شرع غيره[4] ، وإنما يكون ذلك إذا كان كِتابَه مما تتوفر[5] الدواعى ★ على حفظه[6] ، وإنما يكون (ب ٣٠ و) ذلك إذا كان من الفصاحة والبلاغة على أفضل الوجوه فلذلك كان القرآن العزيز فى غاية الفصاحة[7] .

---

(١) صلى ... سلم : – (أ) .

(٢) (ب) : فى أى .

(٣) ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران ١٦٤) .

(٤) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر ٩) .

(٥) (ب) : توفر .

(٦) (أ) : حفظه ، وإنما يكون ذلك إذا كان تأليفه لذيذ جدًا .

(٧) ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ٨٨) .

الفن الثـــالث

فى بيان كيفية تعرف كامل لسنَّة النبى ﷺ

وكلامنا فى هذا الفن يشتمل على بابين :

الباب الأول : فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من التكاليف العلمية .

[(1)]**الباب الثانى** : فيما يأتى به هذا النبى* ﷺ من التكاليف (أ ٤١ ظ) العملية[(1)] .

أما[(2)] الباب الأول فإن كلامنا فيه يشتمل على فصلين :

[(3)][**الفصل الأول** : فيما يأتى به هذا النبى صلى الله عليه وسلم من صفات الله تعالى

الفصل الثانى : فيما يأتى به خاتم النبيين فى أمر المعاد][(3)] .

---

(1) الباب الثانى ... العملية : - (ب) .

(2) (ب) : وأما .

(3) ما بين المعقوفين إضافة لحسن تنسيق النص .



الفصـــــل الأول

فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من صفات الله تعالى

قال[1] فاضل بن ناطق : إن المسمى بكامل حين[2] بلغ فى العمر قرب[3] آخر الشبيبة فكر فيما ينبغى أن يأتى به خاتم النبيين ﷺ[4] من صفات الصانع تعالى ، فرأى أنه ينبغى أن يعرف الناس أن لهم صانعا ، وأن هذا الصانع من البهاء والجلالة إلى حد لا نهاية له ، وأنه يجب أن يطاع وأن يُعبد وأنه لا إله إلا هو ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ (ب ٣٠ ظ) الْبَصِيرُ ﴾[5] ونحو ذلك مما يليق بجلال الله تعالى من[6] القدرة التامة والقوة الكاملة[7] ، ومع ذلك فإن هذا النبى لا يُظهر أن وراء ذلك شيئا[8] أخفاه ، ولا يكلف الناس ما لا يسهل عليهم الوقوف عليه مما يعسر قبول الفهم[9] له كما لو[10] قال : إن الله تعالى ليس فى داخل العالم ولا هو فى خارجه ، وإنه ليس بجسم ولا بمحسوس ، ولا هو فى جهة ، ولا إليه إشارة حسية[11] فإن هذه الأشياء ونحوها لو صرح بها النبى ﷺ[12]

---

(١) (ب) : فان ، وصوبت بالهامش .

(٢) (ب) : حتى .

(٣) (ب) : قريب .

(٤) صلى .... سلم : ـــ (أ)

(٥) سورة الشورى الآية ١١ ، وفى المخطوطين : السميع العليم .

(٦) (ب) : و .

(٧) ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (طه ٨) . ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (الحشر ٢٤) .

(٨) فى (أ) و (ب) : شىء .

(٩) (أ) ، (ب) ، (جـ) : الوهم ، والصواب ما أثبتناه .

(١٠) لو : (أ) ، (ب) ، ناقصة من (جـ) .

(١١) (ب) : ختيه .

(١٢) صلى .... سلم : ـــ (أ) .

فإن لم يشتغل الناس بفهمها(١) كانت عندهم كالأشياء التى ليس لها(٢) معانى ، وإن اشتغلوا بفهمها تشوشوا وتحيروا واشتغلوا بذلك عن معايشهم وتدبير أحوالهم ،★ واختل عليهم نظام شملهم ، فكان ذلك (أ٤٢و) منافيا للمقصود الأوْلى من النبوة ، فلذلك ينبغى أن يكون ذكر النبى ﷺ لهذه الأشياء ذكرا مجملا من غير تفصيل ظاهر ومع(٣) ومع ذلك فلا يظهر أن★ هناك تفصيلاً(٤) و(٥) مع ذلك فلا يهمل من التفصيل(٥) أصلًا (ب٣٢و) بل يجعل فى كلامه من الرموز والاشارات ما يفهم الخواص منه تفصيل ذلك كُلِّه(٦) مع اقتصار(٦) العامة على ما يفهمونه من ظاهره .

---

(١) (ب) : بمفهومها .
(٢) - : (ب) .
(٣) (ب) : ظاهر مع .
(٤) (أ) : تفصيل .
(٥) ومع ... التفصيل : مكررة فى (ب) .
(٦) - : (ب) .

الفصـــل الثـانى

فيما يأتى به خاتم النبيين

فى أمر المعـاد

ثم شرع كامل فى أمر المعاد ففكر فى أن هذا النبى ﷺ هل يُخبرَ به أو ليس ؟ وإذا[1] أخبر به فهل يُخبر به على أنه روحانى أو على أنه بدنى أو على أنه من[2] مجموع الأمرين ؟ وكيف كان ، فهل يذكر أحكامه مفصلة أو ليس ؟ فرأى أنه لا بد لهذا النبى ﷺ[3] من ذكر المعاد ، ومن تفصيل الكلام فيه ، وذلك لأنه لو لم يفعل ذلك فلا يخلو إما أن يكون قد فعله نبى قبله أو[4] لا يكون كذلك فإن كان فعله نبى قبله فذلك النبى لابد وأن يكون قد كمَّل الكلام فى الشرع وفى صفات البارئ تعالى ، لأنا بينا أن الكلام فى المعاد إنما يكون بعد ذلك ، ★ ولو كان كذلك لما كان إلى هذا (ب ٣٢ ظ) النبى حاجة وإن لم يكن فعله نبى قبله★ فلابد من نبى يأتى بعد ذلك (أ ٤٢ ظ) ويفصل الكلام فى المعاد فلا يكون هذا النبى خاتم النبيين ، هذا خلف ، فإذا لابد لهذا النبى ﷺ من ذكر المعاد وتفصيل أحكامه .

ثم فكر كامل بعد ذلك فرأى أن هذا النبى لا يجوز أن يجعل المعاد روحانيا فإن أذهان أكثر الناس تقصر عن درك اللذات[5] والآلام

---

(١) (ب) : إذ .
(٢) - : (ب) .
(٣) صلى .... وسلم : - (أ) .
(٤) - : (ب) .
(٥) - : (ب) .

الروحانِيِّين ، فإنه لو قِيل للعامى إنك إذا فعلت العبادات على ما ينبغى وأعرضت[1] عن هذه[2] اللذات المحرمة ، وكانت معاملتك للناس على العدل ، فإن الله تعالى ينقلك إلى عالم لا تأكل فيه ولا تشرب ولا تنكح ولا تلبس ولا تنام بل تكون دائما فى تسبيح وتقديس ومع ذلك فلا تؤجر على ذلك ولا تنقل إلى حالة أخرى ، لكان ذلك العامى يرى أن فقدان هذه السعادة أوْلى ، ولا كذلك إذا قيل له إنك إذا فعلت ما قلناه فإنك تنتقل إلى مأكل شهى ★ ومنكَح بهى وإن[3] هناك من الخمر أنهاراً[4] (ب٣٣و) وكذلك من العسل ونحو ذلك ، و[5]لا يجوز أيضاً أن يجعل المعاد بدنيا فقط ، وذلك لأن البدن بدون النفس معلوم عند الناس أنه إنما يكون كالخشبة لا شعور له بشىء ، وإذا كان كذلك لم تكن له لذة ولا ألم فلا تكون له سعادة ولا شقاوة ، فلا يكون للمعاد جدوى ، فلذلك لا ★ بد (أ٤٣و) وأن يجعل هذا النبى ﷺ المعاد مركبا من البدن والنفس معا .

ثم فكر كامل فى حقيقة هذا المعاد وكيف هى ، فقال فى نفسه : لا شك أن الإنسان مركب من بدن ونفس ، فالبدن هو هذا الشىء المحسوس[6] وأما النفس فهى التى يشير الإنسان إليها بقوله أنا ، وهذا المشار إليه لا يجوز أن يكون هو البدن أو أجزاؤه ، فإن كل أحد — فإنه[7] — يعلم بالضرورة أنه هو ، من أول عمره إلى آخره ، والبدن وأجزاؤه كل منهما ليس كذلك : فإن بدن الإنسان وهو ★ طفل ليس هو (ب٣٣ظ)

---

(١) (ب) : أو أعرضت .
(٢) (أ) : هذا .
(٣) (ب) : فإن .
(٤) (أ) ، (ب) : أنهار . وهو خطأ نحوى .
(٥) (ب) : وذلك .
(٦) (ب) : المحسود .
(٧) - : (ب) .

بدنه وهو شيخ ، وكذلك أجزاء البدن ؛ فإن البدن وأجزاءه كل منهما كل وقت فى تحلل واغتذاء[١] فهما لا محالة متبدلان دائما ، ولا كذلك ما يشير الإنسان إليه بقوله أنا ، فإنه ثابت على حاله دائما ، وكذلك أيضا فإن الإنسان يغفل كثيراً عن بدنه وعن أجزائه كالقلب والدماغ ونحوهما ، ومحال أنه[٢] يغفل عن نفسه وهى[٣] التى يشير إليها بقوله أنا ، فلذلك لابد وأن تكون النفس شيئاً[٤] غير[٥] البدن ، والبدن لاشك أنه جسم محسوس[٦] ، ولا كذلك النفس ، فإنها جوهر مجرد إذ يستحيل أن تكون عرضا ، فإن البدن إنما يتقوم بنفسه ، والأعراض لا تكون مقومة للجواهر[٧] فلذلك لابد وأن تكون[٨] النفس جوهرا ، ولابد وأن تكون مجردة عن المادة الجسمانية ★ وإلا[٩] كانت جسما أو فى جسم ، ولو (أ٤٣ظ) كانت كذلك لكان ما يحل فيها له وضع وشكل وانقسام ، لأن كل ★ جسم أو قوة فى جسم فإن الحالّ فيه يعرض له ذلك ؛ ومما[١٠] يحل فى (ب٣٤و) نفس الإنسان الإدراكات والعلوم ، فلو كانت[١١] نفسه جسما أو جسمانية لكانت تلك العلوم لا بد وأن تنقسم بانقسامها[١٢] فلا يوجد علم مفرد البتة ، هذا محال ، فإذا لابد وأن تكون نفس الإنسان مجردة عن

---

(١) (ب) : أو اغتناء .
(٢) (ب) : أن .
(٣) (ب) : هو .
(٤) (أ) : شىء ؛ (ب) : شيأء .
(٥) (ب) : عن .
(٦) (ب) : جسيم مجوس .
(٧) (ب) : متقومة الجواهر .
(٨) — : (ب) .
(٩) (ب) : وإن .
(١٠) (ب) : وما .
(١١) (ب) : كان .
(١٢) (ب) : بأقسامها .

المواد الجسمانية وإذا[1] كانت كذلك فهى لا توجد قبل وجود المادة الممتزجة التى يكون منها بدن الإنسان ، لأنها لو وجدت قبل هذه المادة لم يمكن أن تكون واحدة[2] ولا كثيرة فلا يكون وجودها إذا ممكنا[3] ، أما إنها لا يمكن أن تكون حينئذ كثيرة فلأن جميع الأنواع إنما تتكثر أفرادها لأجل المادة التى تتعلق بها ، فلذلك تكون قبل حدوث[4] هذه المادة غير[5] متكثرة[6] ، وإما أنها لا[6] يمكن أن تكون واحدة فلأنها لو[7] كانت واحدة لكانت الأبدان[8] المتكثرة المتعلقة[8]★.بها مع تكثرها ذوات نفس (ب ٣٤ ظ) واحدة بالشخص ، فما يحصل لكل واحد من العلوم يحصل للكل ، هذا محال ، فإذا نفس الإنسان إنما يمكن وجودها بعد وجود المادة الممتزجة مزاجا إنسانيا[9] فوجود هذه المادة شرط فى وجود نفس الإنسان ، وهذه★ المادة تحدث من المنى ونحوه ، وإذا تعلقت بها النفس ثم أخذت فى (أ ٤٤ و) الاغتذاء وتخليق[10] الآلات حدث من ذلك البدن ، وهذه المادة تسمى « عَجْب الذنب »[11] ، ومحال أن تُفقَد مادامت النفس موجودة وإلا[12]

---

(١) (ب) : فإذا .
(٢) (ب) : قاصرة .
(٣) (أ) : ممكن .
(٤) (ب) : وجود .
(٥) (ب) : عن .
(٦) (ب) : متكثرة وإنما .
(٧) (ب) : أن .
(٨) (ب) : الأبدان متعلقة .
(٩) (ب) إنساناً .
(١٠) (ب) : أو تخلق .
(١١) الحديث الشريف « كل ابن آدم يبلى إلا العَجْب » وفى رواية « إلا عُجَبَ الذَّنَب » والعجْب بالسكون هو العظم الذى فى أسفل الصلب عند العجز انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير جـ ٣ ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٣ ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خُلق ومنه يركب » أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، من حديث أبى هريرة ، ورمز له السيوطى بالصحة .
(١٢) (ب) : وإنما .

كانت النفس مستغنية عنها[1] فى وجودها . فلا يكون وجود النفس[2] متوقفا عليها ، هذا خُلف ، فإذًا يستحيل فقدان هذه المادة مع وجود نفس الإنسان .

ونفس الإنسان غير قابلة للعدم لأن كل شيء[3] يقبل العدم فله مادة يكون فيها تارة موجودا وتارة معدوما ، وإذ[4] نفس الإنسان لا مادة لها فهى غير قابلة للعدم[5] ، فهذه* المادة التى هى «عجب الذنب» (ب٣٦و) لا يمكن عدمها ، فلذلك هى تبقى بعد موت البدن وبلاه وتكون النفس عند بقائها مدركة عالمة ، فيحدث لها حينئذ نعيم وألم وهما اللذان يكونان فى القبر ، فإذا جاء الوقت الذى يكون فيه المعاد نهضت النفس حينئذ وغذت هذه المادة بجذب المواد إليها وإحالتها إلى مشابهتها[6] فيحدث من ذلك للبدن[7] كرّةً[8] أخرى ويكون هذا البدن هو ذلك البدن[9] الأول بمعنى وحدة هذه المادة فيه مع وحدة[10] هذه النفس ، وبذلك يكون

---

(١) أى عن مادة عجب الذنّب .
(٢) (ب) : الإنسان .
(٣) (ب) : ما .
(٤) (ب) : وإذا .
(٥) (ب) : العدم .
(٦) (ب) : مشابهها .
(٧) (ب) : البدن .
(٨) (ب) : كثرة .
(٩) هو ذلك البدن : - (ب) .
(١٠) - : (ب) .

المعاد ، وتكون النفس بعد ذلك غير تاركة للاغتذاء[1] ألبتَّة ، فلذلك لا يُعدم البدن حينئذ ألبتة ، أما إذا كان ★ فى[2] نعيم فظاهر وأما إذا كان[2] (أ٤٤ظ) فى النار فلأن تلك النار كلما احترقت الأجزاء الحادثة التى فى ذلك البدن عادت تلك النفس وولَّدت من المواد التى تغذو بها تلك المادة[3] بدنا آخر ★ . وهذه الأبدان كالمحيطة بتلك المادة فلذلك تسمى جلودا (ب٣٦ظ) وتتبدل[4] هذه الجلود بدوام البقاء فى النار .

---

(١) (ب) : الاغتذا .

(٢) نعيم .... إذا كان : - (ب) ؛ لانتقال نظر الناسخ .

(٣) (ب) : المواد .

(٤) (ب) : تبدّل .

البــــاب الثــــانى

فيما يأتى به هذا النبى ﷺ من التكاليف العملية (١)

وكلامنا فى هذا الباب يشتمل على أربعة فصول

[**الفصل الأول** : فى العبادات التى يأتى بشرعها هذا النبى صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثانى : فى المعاملات التى يأتى بشرعها النبى صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثالث : فى الأشياء التى ينبغى أن يسنها النبى صلى الله عليه وسلم فى تدبير المنزل ونفقة الزوجات والعبيد الأقارب

الفصل الرابع : فى العقوبات] (٢) .

---

(١) (ب) : العملية .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة لحسن تنسيق النص .

الفصـــــل الأول

فى العبادات التى يأتى بشرعها هذا النبى صلى الله عليه وسلم

إن المسمى بكامل حين[1] كان قد بلغ سنه قرب[2] الأربعين سنة تفكر ، فقال فى نفسه ؟ إن هذا النبى صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ جلالته وشريعته أكثر ، إذ نسيان ذلك يُحْوج إلى حدوث شرع ، وهو متعذر بعد انقطاع النبوة ، فلذلك لابد وأن يدبر هذا النبى صلى الله عليه وسلم - لبقاء ذلك ودوامه مادامت السموات والأرض - وجها ينحفظ[3] به ذلك ، وإنما يمكن الحفظ بتكرار ★ الشيء الذى يرام حفظه فى الخيال[4] فلذلك[5] لابد لهذا (ب٣٧و) النبى من أن يُسَنَّ تكرار ذكره حتى ينحفظ[6] هو وعظمته★ وشريعته (أ٤٥و) بذلك ، وهذا الذكر قد يكون لازما لأمر آخر يسنه ، وقد يكون مقصودا بنفسه وإذا كان مقصودا بنفسه فقد يكون فى ضمن عبادة[7] وقد لا يكون كذلك .

أما الذكر اللازم لغيره[8] فكما يكون فى حال الصوم ، فإن الصوم وإن لم يكن فيه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فإنه يلزمه ذكره ، وذلك

(١) (ب) حتى .
(٢) (ب) : قريب .
(٣) (ب) : يحفظ .
(٤) فى (ب) : الحيال ، وفى (أ) الحيال (غير معجمة) وفى (ج) : الأجيال .
(٥) (ب) : ولذلك .
(٦) (ب) : يحفظ .
(٧) (ب) فى المتن : عبارة (بالراء المهملة) ثم صححت فى الهامش : لعله عبادة .
(٨) (ب) : أمره .

لأن الصائم إذا ترك الطعام والشراب وهما معتادان فلابد وأن يكون فى نفسه أن فعله لذلك ليس[1] لا لفائدة بل لفائدة ، وهى[1] التى وعده بها النبى صلى الله عليه وسلم من رضا[2] الله تعالى وثوابه ونحو ذلك ، فلذلك كان الصوم يلزمه ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم فلذلك هو سبب حفظهما .

وكذلك الزكاة فإن * المزكى لابد وأن يخطر بباله أن إخراجه المال (ب ٣٧ ظ) لغيره إنما هو ابتغاء لرضا الله تعالى كما وعده به رسوله[3] صلى[4] الله عليه وسلم .

وأما الذكر الذى هو فى ضمن عبادة فكما[5] يكون فى الصلاة والحج فإن هذين مع[6] اشتمالهما على حركات وأعمال فإنهما يشتملان على ذكر الله تعالى وذكر رسوله .

وأما الذكر المفرد وهو المقصود بنفسه وليس بلازم لأمر آخر ، ولا داخلا فى ضمن آخر ، فهو * ككلمة الشهادتين . فلذلك[7] لابد (أ ٤٥ ظ) وأن يكون شرع هذا النبى صلى الله عليه وسلم[8] مبنيا على خمسة أشياء : منها قول[9] مفرد كالشهادتين ، ومنها فعل[9] بدنى محض[10] وهو[11] كالصلاة ومنها ترك بدنى محض[10] وهو كالصوم ، ومنها مالىّ محض[12] وهو كالزكاة ، ومنها مجتمع[13] من[14] الأمرين أعنى أنه[15] بدنى

---

(١) ليس ... وهى : (أ) : وفى (ب) : ذلك إنما يكون لأجل الأمور .
(٢) (ب) : ربنا . وصححت بالهامش بخط مخالف.
(٣) (ب) : رسول .
(٤) – : (ب) .
(٥) (ب) : وكما .
(٦) – : (ب) .
(٧) (ب) : فكذلك .
(٨) صلى ... وسلم : – (أ) .
(٩) (ب) : ما إتيانه .
(١٠) (ب) : مختص .
(١١) وهو كالصلاة ... بدنى محظ : – (ب) .
(١٢) (ب) : مختص .
(١٣) (ب) : ما يجمع .
(١٤) (ب) : بين .
(١٥) (ب) : أعنى به أنه .

ومالى وهو كالحج ، وهذه الأشياء تختلف[1] فمنها ما إتيانه مُشِقٌ جِدًّا كالحج ، فينبغى أن لا يكلف الناس[2] تكرار فعله بل[2] يكفى إتيانه فى العمر مرة * ومنها ما إتيانه سهل جدا فيحتمل[3] الناس تكراره فى اليوم (ب ٣٩ و) مرارا كالصلاة ، فلذلك كانت الصلاة[4] أكثر تذكارا بالله تعالى وبرسوله فلذلك كانت تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومنها ما هو بين هذين فى المشقة كالصوم والزكاة فلذلك ينبغى أن يُجعلا فى العام مرة واحدة .

وأما الشهادتان فإن اعتقادهما هو الإيمان والإيمان لا ينبغى فقدانه طرفة واحدة ، فلذلك[5] اعتقادهما يجب[5] أن يكون مستمرا .

---

(١) (ب) : مختلفة .
(٢) الناس ... بل : فى (ب) : الناس تكرارها بل بل .
(٣) (ب) : فيحمل .
(٤) - : (ب) .
(٥) فلذلك ... يجب : فى (ب) : فذلك اعتقاده بحيث .

الفصـــــل الثانى

فى المعاملات(١) التى يأتى بشرعها(٣) النبى صلى الله عليه وسلم

ثم إن المسمى بكامل تفكر فيما(٢) ينبغى أن يسنه النبى صلى الله عليه وسلم(٣) من المعاملات فرأى أن اجتماع الناس وتعاشرهم(٤) إنما يتم بأن تكون معاملتهم على الوجه(٥) العدل ★ فلذلك يجب أن يَمنع النبى صلى (أ٤٦و) الله عليه وسلم من كل ضرر(٦) ولا يمكن ألبتة من حيف على ★ أحد (ب٢٩ظ) فلذلك يجب أن ينهى عن الظلم وأخذ مال(٧) بغير حق وبالباطل ، ويأمر بالمعروف وينهى(٨) عن المنكر ، و كل(٨) أمر يؤدى إلى الاستغناء عن نفع الناس والى القناعة بالبطالة ؛ فإنه يجب أن يكون اجتماع الناس على وجه يكون لكل أحد نفع ، فلا يكون فيهم من لا نفع له إلا أن يكون عاجزًا بمرض أو زمّانة(٩) ونحو ذلك ، فلذلك(١٠) جميع ما يغنى عن تكلف نفع

---

(١) (ب) : المعاملات التى يشرعها هذا .

(٢) (ب) : بما .

(٣) صلى ... سلم : – (أ) .

(٤) (ب) : معاملتهم .

(٥) (ب) : وجه .

(٦) فى (أ) : عرر (مهملة الأعجام) ، وفى (ب) : جور ومن كل غرر . وما أثبتناه به يستقيم المعنى .

(٧) (ب) : المال .

(٨) ينهى ... كل : فى (أ) : ينهى عن كل .

(٩) زَمِنَ الشخص مرض زمانا طويلا ، والقوم زَمْنى (المصباح المنير) .

(١٠) (ب) : فكذلك .

الناس يجب أن يكون ممنوعا ؛ كالربا فإن كسبه يغنى عن الاكتساب بإحداث ما ينتفع به الناس ، وكذلك القيادة[1] ونحو ذلك .

ويجب أن يسن لهم طريقة يتواطئون عليها لينقطع النزاع بينهم ، وهذه منها ما يكون فى نقل ما يُنتفع به من واحد إلى غيره ، سواء كان ذلك الانتقال اضطراريا كما فى الإرث أو غير اضطرارى وهو فى عَيْنٍ كما فى البيع ، أو فى منفعة كما فى الإجارة – ومنها ما يكون * فى استقرار ما يُنتفع (ب ٤٠ و) به كما فى الوقف ، ومنها ما يكون فى رفع الاستيلاء على ما يُنتفع به كما فى العتق ، ويجعل لكل واحد من هذه طريقة على الوجه[2] العدل ؛ وينبغى أن يجعل إرث الذكور أزيد من إرث الاناث ، وإن[3] كان الذكور أقدر على الاكتساب * من الإناث[3] وذلك لأن الإناث عند التزاوج[4] تكون (أ ٤٦ ظ) نفقتهن على أزواجهن ، وأما الذكور فإنهم عند التزاوج[4] ينفقون على أنفسهم وعلى زوجاتهم ، فلذلك حاجتهم إلى المال أكثر من الاناث .

---

(١) القَوَّاد : سمسار الفاحشة ، وهو لفظ مولَّد ، والقيادة فعل ذلك . (المعجم الوسيط) .

(٢) (ب) : وجه .

(٣) وإن ... الإناث : – (ب) . لانتقال نظر الناسخ .

(٤) (ب) : التزوج .

الفصـــــل الثالث

فى الأشياء التى ينبغى أن يسنها النبى صلى الله عليه وسلم فى تدبير المنزل ونفقة الزوجات والعبيد والأقارب

ثم إن هذا المسمى بكامل فكر فى أمر النكاح ، وقال فى نفسه إن هذا أمر لابد منه فى كثرة وجود الأشخاص للإنسانية[١] فإن وجود الإنسان ، بالتولد نادر جدًّا ، فإذًا الجماع أمر لابد منه فى كثرة أشخاص الناس ، فلذلك يجب أن يحث هذا النبى صلى الله عليه وسلم ★ على وقوعه (ب ٤٠ ظ) ولكن على وجه يكثر به[٢] النسل ، فلذلك يجب أن يحرم اللواط والمساحقة لأن ذلك يؤدى إلى الإستغناء عن الجماع للحبل[٣] ، ويجب أن يكون وقوع هذا الجماع المحبل على وجه يثبت به النسب ، فلذلك يجب أن ينهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الزنا ، وإن كان مكثرا للنسل[٤] ؛ لأنه يؤدى إلى فساد حال النسب وإلى أن يأخذ المال بالإرث غير مستحقة ويُحرمه المستحقون ، وينبغى أن يجعل عقد النكاح على وجه ظاهر ، فلذلك يمنع من وقوعه سُترة[٥] لأن[٦] ★ ذلك يؤدى[٦] إلى (أ ٤٧ و)

---

(١) (ب) الإنسانية .
(٢) (أ) : له .
(٣) (ب) : المحبّل .
(٤) (ب) : يكثر النسل .
(٥) (ب) : وقوع ستره .
(٦) (ب) : لأنْ ليلا يؤدى .

تعذر ثبوت النسب لأجل الإرث والنفقة ونحو ذلك ، فلذلك ينبغى الإعلان فى الزواج ، ولذلك ينبغى فيه الإشهاد .

ولما كان تكثير الأزواج يؤدى إلى فساد حال النسب ولا كذلك تكثير الزوجات ، فلذلك ينبغى للنبى أن يجوز * للرجال كثرة الزوجات ولا يجوز للنساء كثرة الأزواج .

ولما كان الزوجان قد يكون بينهما نفرة فلا تجود[1] عشرتهما وجب أن يجعل هذا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الفرقة سبيلا ، بل قد يكون الزوجان على مزاج لا يحدث من اجتماعهما ولد ، ولو تزوج كل واحد بغير الآخر يحدث الولد ، فلذلك يجب أن يشرّع إلى الفرقة سبيلا ، ويجب أن يجعل هذه الفرقة لأتمهما عقلا ولمن يلزمه فى الزواج كلفة وغرامة وذلك هو الرجل ، وليس تُمنع المرأة من ذلك بالتمام ؛ فقد[2] يكون الزوج معسرا عن النفقة ، فإذا لم تتمكن الزوجة من الفسخ تعذر عليها الاغتذاء .

ولما كان الرجال أقدر على كسب المال والنساء أقوم بتدبير المنزل وجب أن تكون النفقة على الزوج ، وعلى المرأة الإقامة بمنزل الزوج .

وأما العبيد * فلما كانوا فى حجر مواليهم وجب أن تكون نفقتهم (ب ٤١ ظ) على مواليهم ، ولمواليهم مطالبتهم بالخدمة بحسب * الإمكان . (أ ٤٧ ظ)

وأما الأقارب فمن كان منهم لا مال له فينبغى أن تكون نفقته على الموسر من أقاربه .

---

(١) (ب) : يجوز .

(٢) (ب) : وقد .

الفصـــــل الرابع

فيما يسنُّه النبى صلى الله عليه وسلم من العقـوبات

ثم إن المسمى بكامل تفكر بعد ذلك ، فقال فى نفسه : وإذا سن النبى صلى الله عليه وسلم[1] الشرع فهل يحتاج أن يجعل من جملة هذا الشرع أن يكون للناس ملك يحكم عليهم بذلك الشرع ويلزمهم اتباعه أم يكفى تفصيل أحكام المعاملات وغيرها والناس يرجعون إلى ذلك بأنفسهم ؟ فرأى أن من الناس من[2] تشتد محبته للظلم فلا يردعه عنه علمه بنهى الشرع عنه فقط ، بل إنما ينتهى عن ذلك بقاهر يقهره عليه ، وذلك القاهر إنما يتمكن من ذلك إذا كان مطاع الأمر عند* الناس وذلك (٤٢أ و) هو الملك ، ويجب أن يكون لكل مدينة ملك أو[3] قائمٌ مقامه وهو نائب الملك ، ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكثر فيهم الجور ، فلذلك يجعل ، أمرهم إلى واحد يحكم عليهم وذلك هو الخليفة .

ويجب أن ينهى عن كل أمر يؤدى إلى فساد حال النفس أو فساد حال المال أو فساد حال العقل ، فلذلك يحرم القتل والسرقة والغصب والسكر[4] ، ويجعل لكل واحد من ذلك ونحوه عقوبة تردع* الناس عن (٤٨أ و)

---

(١) صلى ... سلم : ـ (أ) .
(٢) (ب) : أن .
(٣) ـ : (ب) .
(٤) (ب) : المكر .

الإقدام عليه ؛ فيجعل على القتل القصاص وذلك إذا كان عمدا ، أما إذا وقع خطأ فإن القصاص عليه ظلم ، وتركه ولا شيء على الجانى إضاعة للدم ، فلذلك ينبغى أن يسن على ذلك مثل الدية ، وأما السرقة فيجعل فيها مثل قطع اليد فإنها هى التى تنسب إليها السرقة ، وكذلك يجعل على كل مفسدة ما يناسبها ؛ فيجعل على الزانى عقوبة تليق به ، وعلى شارب الخمر عقوبة تليق به ، فإن الخمر * يذهب العقل بإحداثه السكر وذلك (ب ٤٢ ظ) منشأ المفاسد ، فلذلك ينبغى أن ينهى عنه .

وينبغى أن ينوه بتعظيم دينه فيسن على مخالفيه[١] ما يدل على سوء معتقدهم[٢] فيجعل على بعضهم القتل وهم الشديدو المنافاة للشريعة ، وعلى بعضهم الجزية وهم الذين يقاربون الحق ، ويجعل لما يؤخذ من أموال الكفار ، ولما يؤخذ من المؤمنين ؛ زكاةً ونحوها مصارف[٣] لما ينتفع به الناس مثل رزق الأجناد الحافظين للبلاد[٤] وكذلك الأئمة والمؤذنين[٥] ونحوهم ، وكذلك الفقراء والمساكين وابن السبيل ونحو ذلك[٦] .

---

(١) (ب) : فليس على مخالفة .
(٢) (ب) : معتقده .
(٣) (ب) : مضافا .
(٤) (ب) : البلاد .
(٥) (ب) : والمؤذنون .
(٦) بعد هذه الفقرة تنتهى مخطوطة دار الكتب المصرية التى رمزنا لها برمز (أ) ، ويختتم ناسخها الكتاب بقوله : «ومن هنا فلنختم هذا الكتاب مستعنين بالله وحده» .

الفن الـرابع

فى [كيفية وصول « كامل » إلى معرفة الحوادث التى تكون بعد

وفاة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين

كلامنا فى هذا][1] **الفن يشتمل على عشرة فصول :**

[(١) **الفصل الأول** : كيفية وصول « كامل » إلى معرفة الحوادث التى تكون بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

(٢) **الفصل الثانى** : فى تعرف « كامل » لما يقع بعد موت هذا النبى صلى الله عليه وسلم من تنازع .

(٣) **الفصل الثالث** : فى كيفية تعرف « كامل » المعاصى التى لا بد وأن تقع لملّة هذا النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) **الفصل الرابع** : فى كيفية تعرف « كامل » لما يحدث لملّة هذا النبى لأجل عصيانهم من العقوبة][2] .

---

(١) ما بين المعقوفتين إضافة ليستقيم النص .

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة لحسن تنسيق النص .

[(٥) **الفصل الخامس** : فى كيفية تعرف « كامل » بحال الكفار الذين يكون لهم عقوبة هذه الملّة .

(٦) **الفصل السادس** : فى كيفية تعرف « كامل » بحال البلاد التى لا يتمكن هؤلاء الكفار من الاستيلاء عليها .

(٧) **الفصل السابع** : **فى كيفية تعرف « كامل » بحال سلطان البلاد التى تبقى لهذه الملة مجاورة لما ينتهى إليه ملك أولئك الكفار .**

(٨) **الفصل الثامن** : فى كيفية تعرف « كامل » بأحوال حفدة الملك المتاخم للكفار وهو الذى تقدم ذكره وأحوال أعوانه وجيرانه من ملوك ملّة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٩) **الفصل التاسع** : فى كيفية تعرف « كامل » لما يحدث فى العالم العلوى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

(١٠) **الفصل العاشر** : فى كيفية تعرف « كامل » لما يحدث فى العالم السفلى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين](١) .

---

(١) ما بين المعقوفتين ، إضافة لحسن تنسيق النص .

الفصـــــل الأول

فى كيفية تعرف كامل لما يقع بين أصحاب هذا النبى صلى الله عليه وسلم من المنازعة على الخلافة بعد وفاته

قال « فاضل بن ناطق » : ولما تحقق « كامل » ما يحدث لخاتم النبيين من السيرة ، وما يسنه من الشريعة ، أراد أن يعرف ما * يحدث لأصحابه (ب ٤٤ و) بعد وفاته فقال فى نفسه : لما كان هذا النبى صلى الله عليه وسلم إنما يتنبأ بعد أن يمضى من عمره أربعون سنة ، وأنه يموت بعد أن يمضى من عمره ما يزيد على ستين سنه زيادة يسيرة ، فلابد وأن تكون مدة نبوته قصيرة ، فلا محالة أنه ليس يتمكن فى هذه المدة من تبليغ شريعته إلى جميع الناس ، فلابد وأن يكون بعده من يدعو الناس إلى دينه ويلزمهم اتباعه ، وإلا بقى كثير من الناس بلا شرع واحتاجوا إلى حدوث نبى آخر ، وذلك بعد هذا النبى الذى هو خاتم النبيين محال ؛ فلذلك لابد وأن يكون بعد هذا النبى صلى الله عليه وسلم من يدعو إلى دينه ، فذلك هو خليفته ، وينبغى أن يكون ذلك فى كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما ، إذ لا يمكن بعده حدوث نبى آخر ، فلذلك لابد وأن يكون كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس * جدا ، وأولى الناس بأن يعظم بعد هذا النبى صلى الله (ب ٤٤ ظ) عليه وسلم من يدعو إلى دينه فلذلك هو خليفته ، وينبغى أن يكون ذلك فى كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما إذ لا يمكن بعده حدوث نبى آخر ، فلذلك لابد وأن يكون بعد كل خليفة خليفة آخر ، ولابد وأن يكون

كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس جدا ، وأولى الناس بأن يعظم بعد هذا النبى من كان من أقاربه ، وذلك لأن هذا النبى لما وجب أن يكون عند الناس بغاية العظمة ، فأقاربه وأصحابه لابد وأن يكونوا عظماء عند الناس ، والخلفاء الذين يكونون من عقيب موته أو بعد ذلك بزمان لطيف لابد وأن يكونوا ممن صحب[1] هذا النبى صلى الله عليه وسلم وعظَّمة جدا ، لأن من يكون كذلك فإنه عند الناس لا محالة أعظم من غيره فيكون أولى بالخلافة .

ولما كانت دعوة هذا النبى صلى الله عليه وسلم* للناس أولا باللين (ب٤٥و) وذلك إنما يمكن بأن يمدح من أطاعه ومن آمن به قبل تمكنه من الدعوة بالسيف ، وهذا المدح مما يعظم به جَدُّ[2] الممدوح ويعدّه للقيام بالخلافة بعده ، وليس يمكنه أن يجعل ذلك[3] فى كل واحد منهم بتعيينه له ، وإلا كان إيلاما وتنفيرا للباقين ، وأنه لو عين واحدا لكان ما يصدر من ذلك الواحد من الخطأ منسوبا إلى هذا النبى صلى الله عليه وسلم ...[4] فلذلك وجب أن لا يعين أحدا منهم لذلك .

وفى طبع الناس حب الرياسة فلابد وأن يقع بين الصحابة السابقين بالإيمان من التنازع والمخالفة إلى أن يقع بينهم مقاتلة على الخلافة ، وذلك

---

(١) فى الأصل : صحبه . والأصوب ما أثبتناه .
(٢) الجَدُّ : الحظ والبخت فى الدنيا (لسان العرب) .
(٣) فى الأصل : كذلك .
(٤) فى الأصل عبارة : « مهيئين للخلافة بعده وليس يمكنه أن يجعل » وهى غير متسقة مع سياق النص ، فلذلك أثبتناها بالهامش .

لا يمكن أن يكون عقيب وفاته ، وإلا كان ذلك مؤديا إلى استيلاء الكفار على أتباعه[1] لأجل قلتهم حينئذ وذلك يؤدى إلى بطلان شريعته وذلك يحوج إلى قيام شرع آخر * وذلك بعد هذا النبى وهو خاتم النبيين محال ، (ب ٤٥ ظ) فلذلك لابد وأن تكون هذه المقاتلة[2] بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بمدة يكثر فيها أتباعه[3] والمؤمنون به وقبل موت المرتجين للخلافة وهم السابقون بالإيمان بهذا النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى الأصل : تباعه ، والأصوب ما أثبتناه .

(٢) فى الأصل : المقابلة .

(٣) فى الأصل : تباعه .

الفصل الثانى

فى تعرف كامل لما يقع بعد موت هذا النبى صلى الله عليه وسلم [من (١)] تنازع ومقاتلة

فلابد وأن ينحاز كل مدع الخلافة(٢) منهم بطائفة تتعصب له وتنازع مخالفيه ، فلذلك لابد وأن تكثر الأهواء والانتصارات فى ملّة هذا النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته ، ولأن(٣) هذا النبى لا نبى بعده فلذلك لابد وأن يوجد بعده شيء يحفظ شريعته ويمنع من نسيانها(٤) فلذلك [لابد(٥)] وأن يقوم بذلك علماء أمته ، وهؤلاء ليسوا يتلقون العلم بالوحى كما فى الأنبياء(٦) بل بالفكر والرأى .

وطباع ★ الناس كثيرة الاختلاف فلذلك لابد وأن تكثر الآراء فى (ب٤٦و) دين هذا النبى صلى الله عليه وسلم وتفنن الأقوال والمذاهب ، وكل واحد(٧) لابد وأن يحرص على نصرة رأيه ويدعو الناس إليه ، ويرغّبهم فى الميل إلى قوله لأجل محبة الرياسة والاختراع(٨) ، فلذلك لابد وأن تنقسم ملة هذا النبى عليه الصلاة والسلام إلى طوائف مختلفى الآراء فى أصول دينه وفروعه ، فلذلك يتعادون ويتنازعون ، فلذلك لابد وأن ينتصر لكل

---

(١) إضافة ليستقيم المعنى

(٢) (جـ) : للخلافة .

(٣) فى الأصل : وأن .

(٤) فى الأصل : نسائها .

(٥) إضافة ليستقيم النص .

(٦) كما فى الأنبياء : مكررة من الناسخ .

(٧) فى الأصل : وكل واحد .

(٨) اخترع الشيء : أنشأه وابتدأه .

إمام طائفة ممن يرغِّب الناس فى موافقة ذلك الإمام ، فلذلك لابد وأن تكثر الكتب المصنفة فى آراء هذه المِلَّة ولابد وأن تُبنى مدارس ومواضع توقف للمشتغلين بآراء أولئك الأئمة ، ولابد وأن يجعل لكل مشتغل برأى إمامٍ ما يرغِّبه فى ملازمة رأى ذلك الامام وتعظيم قوله* ونحو ذلك ؛ فلذلك (ب ٤٦ ظ) لابد وأن يوقف لسكان المدارس والمشتغلين بها مواضع يُتحصَّل منها ما يصرف إليهم من المال ، وكل ذلك لأجل اختلاف أهل المِلَّة فى الآراء ونصرة مبتدعيها[1] وفى التعصب لكل من المتنازعين فى الخلافة ونحو ذلك .

ولما كان هذا النبى خاتم النبيين فلابد وأن تكون شريعته محفوظة دائما ، وإنما يمكن ذلك بحفظ أقواله وأفعاله ، وبحفظ كتابه ومعرفة معانيه ومعانى كلام هذا النبى ، فلذلك احتيج إلى تعرُّف علم الحديث وعلم التفسير ونحو ذلك من العلوم الشرعية ، فلذلك لابد وأن تكثر الكتب والتصانيف فى ملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم وذلك بعد وفاته بمدة طويلة .

---

(١) فى الأصل : مبتدعها .

الفصـل الثالث

فى كيفية تعرف كامل المعاصى التى لابد وأن تقع لملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم[1]

ثم إن المسمى★ «بكامل» تفكر ، فقال : وإذ قد ثبت أن هذا (ب٤٧و) النبى لابد وأن يحرم شرب الخمر لأنه يذهب صحة العقل كما بيناه أولا[2] ؛ ولابد أيضا وأن يحرِّم ظهور النّساء وتكشفهن للأجانب ، وذلك لأنّ هذا النبى صلى الله عليه وسلم لابد وأن تكون أخلاقه فاضلة جدا محمودة كما بيناه أولا ، ومن جملة هذه الأخلاق أن يكون غيورا فلابد وأن يمنع النساء من التمسك[3] والانكشاف للأجانب وإنما يمكن ذلك بسترهن ومنعهن من زيادة البروز ويلزم [عن][4] ذلك أمران :

أحدهما : أن يكثر من ملة هذا النبى مخالفته فى تجنب الخمر ، وذلك لأجل شدة ميل النفوس إليها مع أنها مما لا يستغنى عنها فى حفظ الصحة وفى دفع كثير جدا من الأمراض[5] .

---

(١) فى الأصل : عليه السلام .

(٢) إشارة المؤلف هنا إلى ما سبق ذكره فى نهاية الفصل الرابع من الثالث مما يؤكد نسبة هذا الفن الرابع إلى المؤلف .

(٣) هكذا فى الأصل ، ولعلها : التبرج .

(٤) إضافة ليستقيم النص .

(٥) شرب الخمر منكر يزينه الشيطان ، ويذهب العقل مما يؤدى إلى ارتكاب كثير من المعاصى والجرائم ، وانظر تعليقنا على هذا الفصل ففيه الشرح الكافى .

وثانيهما : أن يكثر فى ملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم اللواط ، وذلك لأنه لما أمر بخبى[1] النساء وعَسُر الزواج على كثير من الناس[2] ، وعَسُر على من له زوجة أن * يستصحبها معه فى الأسفار والغزوات[3] (ب٤٧ظ) ونحو ذلك فلذلك يحتاج كثير من أهل هذه الملة إلى معاملة من يشبه النساء من الرجال كما يعامل النساء ، وذلك لأجل شدة الشبق وقوة شهوة الجماع على الناس وتعذر مخالطة النساء على كثير من أهل هذه الملة ، فلذلك كثر فى هذه الملة اللواط ومخالفة النبى صلى الله عليه وسلم فى اجتناب الخمر .

---

(١) خبى يخبى من خبأ يخبئ ، وقد ترك الهمزة للتخفيف ؛ والله سبحانه وتعالى بين ذلك فى قوله : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ (النور ٣١) وقال تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (الأحزاب ٥٩)

(٢) حض الله سبحانه على تزويج الفقراء من المؤمنين ، ووعد أن يغنيهم من فضله ، كما أمر الذين لا يجدون نكاحا أن يستعففوا ويصبروا حتى يغنيهم الله فيزوجهم ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (النور ٣٢ - ٣٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» مسلم ٤ / ١٢٨ ، كتاب النكاح ، طبعة التحرير .

(٣) كان النبى صلى الله عليه وسلم يستصحب إحدى زوجاته فى بعض الغزوات ، وقد اصطحب معه «أم المؤمنين أم سلمة» فى موقعة الحديبية . وكان النساء يشتركن مع جيش المسلمين فى الغزوات مع النبى ، وانظر شرح ذلك فى التعليق على هذا الفصل .

الفصل الرابع

فى كيفية تعرف كامل لما يحدث لملة هذا النبى لأجل عصيانهم من العقوبة

ثم إن المسمى «بكامل» تفكر فقال : وإذا عصت هذه الملة النبى صلى الله عليه وسلم فهل يحدث لها بذلك فى الدنيا عقوبة أو لا يحدث لها ذلك ؟ .

فرأى أنها لابد وأن تعاقب على هذا العصيان ـــ وذلك لأن هذه الملة لو لم تعاقب على ذلك وقع عند الناس أن معصية[1] هذا النبى غير ضارة فى★ الدنيا ، وذلك مما [لا][2] يشتد معه الحرص على التوبة وعلى (ب٤٨و) ترك هذه المعصية فلذلك تكثر لا محالة ، ويلزم ذلك شدة الفساد وكثرة المعاصى وقلة المبالاة بمخالفة أمر هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك تصغير لقدره وتطريق إلى قلة المبالاة بمخالفة أوامره ، وذلك مما يبطل فائدة بعثته صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لابد وأن يعرض لهذه الملة عند كثرة عصيانهم عقوبة [على فعل][3] .. ذلك ، وهذه العقوبة ليس يجوز أن تكون الخسف أو الطوفان ونحو ذلك مما يدل على شدة غضب الله تعالى فإن ذلك ينافى زيادة عظمة هذا النبى صلى الله عليه وسلم إذ يجوز أن

---

(١) فى الأصل : معصيت . وهو خطأ كتابى نتيجة أن الناسخ أعجمى ، والفرس والترك يكتبون تاء التأنيث المربوطة مفتوحة .

(٢) إضافة ليستقيم النص .

(٤) إضافة ليستقيم النص ، ومكانها بياض فى الأصل .

تكون أمته مبجلين عند الله تعالى فلذلك لابد وأن تكون هذه العقوبة بسفك الدماء ونحو ذلك مما لا يحط من المنزلة [كثيرا بنبيه][1] .. وهذا القتل إنما يكون من الكفار وبالقتال[2] ... الكفار ، فلأن هذه العقوبة لما يكون ★ إذا عم العصيان فى هذه الملة ، إذ لو كان فى طائفة منهم قليلة لم (ب٤٨ظ) يكن ذلك مفضيا إلى منقصه شأن هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن ذلك مما يلزم معه حدوث العقاب [إلا][3] إذا كان العصيان عاما وإذا كان كذلك لم يكن مما يحدث بين الملّة من القتال لأجل ذلك العصيان وذلك لأجل اشتراكهم فيه ، بل يكون ذلك لأجل المنازعة فى الممالك ونحو ذلك ، ولا يكون مما يوجب عند الناس التوبة والرجوع عن المعصية فلابد وأن يكون هذا القتل من غير هذه الملة ، وغيرها كافل لا محالة ، لأن شرع هذا النبى صلى الله عليه وسلم قد تبين أنه عام فإذا لابد وأن يكون وقوع القتل فى هذه الملة من الكفار ، وإنما يمكن ذلك بالقتال فإن القتل الذى يكون خفية ونحو ذلك لا يكاد أن يعم الناس حتى يظهر البلية المحوجة إلى[4] .... فلذلك لابد وأن تكون عقوبة هذه الملة[5] ... ★ هذا (ب٥٠و) العصيان العام بقتل الكفار لهم ، وهذا القتال ــ لاشك أن لهذه الملة غَزاة ــ والمقتول فيه مثاب فلذلك كان هذا القتل والقتال لا يقل بأن يكونا عقوبة لهذه الشريعة[8] .

---

(١) إضافة ليستقيم النص ، ومكانها بياض .

(٢) بياض فى الأصل ، بمقدار ثلاث كلمات .

(٣) إضافة حتى يستقيم المعنى .

(٤) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

(٥) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

(٦) إن هذا الفصل كله يوضح السبب فى انتشار عقدة الذنب بين كبار علماء المسلمين وبين المتصوفين ، فقد اعتقدوا أن انتصار الكفار على المسلمين ، وتخريبهم لكثير من البلاد الاسلامية ، وقتل الكثيرين من المسلمين ، اعتقدوا أن ذلك كان عقابا من الله سبحانه بسبب عصيان المسلمين للشريعة المحمدية . وهذا هو ما ذكرناه فى المقدمة عند بيان أثر الحياة الاجتماعية فى تفكير ابن النفيس .

الفصل الخامس

فى كيفية تعرف كامل بحال الكفار الذين يكون(١) لهم عقوبة هذه الملة(٢)

إن هؤلاء الكفار يجب أن يكونوا غير ذى ملة ، إذ لو كانت لهم ملة لكانوا لا محالة يدعون الناس إلى الدخول فى دينهم وذلك مع الاستيلاء وسفك الدم مما يوجب للناس الرجوع إلى ما يدعون إليه وذلك موجب للخروج عن ملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك مناف للغرض من هذه العقوبة ، ومنقص جدا من ملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لابد وأن يكون هؤلاء الكفار ، [الذين (٣)] يقتلون أهل ملة النبى صلى الله عليه وسلم تطهيرا لهم عن عصيانهم ، ليسوا ذوى ملة ، وإنما يكون هؤلاء كذلك * إذا كانوا ممن لا تبلغهم بعد الدعوة بلوغا تاما ، (ب.د وإنما يكون كذلك إذا كانوا من أطراف الأرض ونائيين عن العمارة التى فى البلاد المعتدلة ، ولا يمكن أن يكونوا من سكان الأطراف الجنوبية ، لأن هؤلاء لأجل شدة حرارة أرضهم هم ضعفاء القلوب ، فلذلك لا يقوون على سفك دماء هذه الأمة مع شجاعة أصحابها ، فلذلك لابد وأن يكونوا من الأطراف الشمالية لأن هذه الأطراف لأجل شدة بردها يكون أهلها شجعانا أقوياء القلوب قساة ، ولا يمكن أن يكونوا من غربى الشمال فإن الناس هناك قليلون جدا ، ومع قلتهم فإنهم فى جزائر فلذلك

---

(١) فى الأصل : يكونون .

(٢) نسخة ب ، وهى الأصل ، بها كثير من الطمس فى هذا الفصل .

(٣) إضافة ليستقيم المعنى .

يكونون متفرقين فلا يجتمع منهم كثرة تقوى على قهر أصحاب هذه الملة ، وسبب ذلك أن البحار فى شمالى الغرب كثيرة جدا بخلاف شمالى الشرق .

(ب٥١و) * ولابد وأن يكونوا ـــ هؤلاء الكفار ـــ من أهل البرّ لأن أهل المدن أقل شجاعة ، ولابد وأن يكونوا عظام الصدور والرؤوس ، دقاق الأسافل ، ضيقى العيون ، كبيرى الأعجاز ؛ أما كبر أعاليهم فلأجل توفر الحرارة على بواطنهم لأجل شدة برد هوائهم ، ولذلك تدق أسافلهم قليلا ، ولأن هذه الصفات هى صفات الشجعان ، ولذلك كان الأسد خلقته كذلك ، وأما ضيق أعينهم فلأجل كثرة رطوبة أدمغتهم لأجل قلة التحلل منها بقوة البرد ، ولذلك تكون أنوفهم إلى الفطوسة ؛ وأما كبر أعجازهم فلأجل كثرة ركوبهم الخيل من الصغر ، وذلك لأن الخيل فى هذه المواضع كثيرة مع أنهم لأجل أنهم سكان البرارى ينتقلون كثيرا ، وانتقالهم إنما يكون على الخيل .

(ب٥١ظ) هؤلاء الكفار ليسوا * يملكون بلاد الإسلام جميعها ، وإلا لكان ذلك يؤدى إلى انقراض هذا الدين ، وذلك مما يحوج إلى نبى آخر وهو بعد ذلك النبى محال ؛ فلذلك لابد وأن يكون مُلْكهم لبعض بلاد أهل هذه الملة ، ومُلك هذه البلاد التى كثرت هذه المعاصى فيها جدا وهى البلاد القريبة من هؤلاء ، فإن استيلاء هؤلاء على البلاد البعيدة عنهم دون القريبة كأنه متعذر ، فلذلك إنما يكون مُلك هؤلاء الكفار للبلاد الشمالية ، وإذا ملكوها فهم لا يغيرون ملّة هذا النبى ولا يأمرون الناس بتغيير دينهم إذ لا دين لهم يحوج إلى ذلك ، فلذلك يبقى أهل هذه الملة فى بلادهم كما كانوا وإنما يزول عنهم الملك فقط ، فلذلك يكون فى هؤلاء

الكفار نفع لأهل ملة هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن هؤلاء لم يكن لهم دين ينافى دين هذه* الملة ، ومخالطتهم لهذه الملة مما يدعو[1] إلى (ب ٥٢ و) دخولهم فيها ، فلذلك يُعدّون[2] آخر الأمر من أهلها[3] ، وينضاف ما كان لهؤلاء من البلاد ما يفتحه هؤلاء من بلاد الكفار الأخر ، فذلك فى آخر[3] الأمر تتسع بلاد هذه الملة ، وإن لم يوجد لها من ينتصر لها ويأخذ البلاد من هؤلاء ؛ فكيف إذا وجد ذلك ؟

---

(١) فى الأصل : يدعون .
(٢) فى الأصل : يعودون .
(٣) فى الأصل : فى الآخر الأمر .

الفصل السادس

فى كيفية تعرف كامل بحال البلاد التى لا يتمكن هؤلاء الكفار من الاستيلاء عليها

فقال فى نفسه أما ما يكون من هذه البلاد بعيدا جدا عن البلاد التى[1] ينتهى إليها استيلاء هؤلاء الكفار فإنها تكون كالمجاورة لهم ، فلذلك يحتاج أهلها إلى مقاومتهم[2] ومدافعتهم ، وإنما يتمكنـون من ذلك إذا حصل لهم أمران : وهما كثرة الجيوش وسلطان منهم شجاع إذ بدون ذلك لا يتمكنون من مقاومة هؤلاء الكفار مع عموم إستيلائهم على ★ (ب ٥٢ ظ) كثير جدا من البلاد وكثرة رجالهم وجيوشهم ، فلذلك أهل هذه البلاد إنما يتم لهم ذلك بهذين الأمرين ، وهم قبل ذلك لم يكونوا محتاجين إلى كثرة الجيش جدا ، فلابد وأن يصير جيش هذه البلاد المجاورة لما انتهى إليه ملك أولئك الكفار أزيد مما كان أولا بكثير ، وإنما يمكن ذلك بأن تكون النفقة على الأجناد أزيد مما كانت بكثير ، فلذلك يحتاج ملك هذه البلاد أن يصرف إلى الأجناد أزيد مما كان أولا ، ولا يمكن أن يكون له ذلك من مغلّ[3] هذه البلاد ، فإن هذا المغل لا يمكن أن يكون أزيد مما كان أولا مغل تلك البلاد ، فإذا زادت هذه العساكر بقدر كثير اضطر لا محالة إلى نفقة تزيد على مَغَلّ تلك البلاد ، فلابد وأن يكون ذلك الزائد من أموال

---

(٢) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : معا ومنهم (غير معجمة) .

(٣) المصباح المنير : أَغَلّت الضيعة صارت ذات غلة ، والمقصود هنا ما تغله هذه البلاد من محاصيل .

أهلها ، وليس يسمح بذلك أحد اختيارا ، فلذلك لابد وأن يؤخذ من أموال أهل هذه البلاد ما[1] يزيد كثيرا على ما كان يؤخذ منهم قبل★ (ب٥٣و) مجاورة هؤلاء الكفار لهم بقدر كثير ، وهذا الأخذ لما كان لابد وأن يكون على سبيل القهر لأنه خلاف ما يؤثره المأخوذ منه فإنما[2] يمكن ذلك بأن يكون الآخذ له مطاعا مستوليا ، وذلك هو السلطان حينئذ ، وهذا الأخذ مع أنه نافع فى حفظ هذه البلاد فإنه كالمطهّر لأهلها إذ[3] لم تكن معصيتهم بقدر يستحقون به القتل بل بقدر يستحقون به أخذ شيء من أموالهم ونحو ذلك ، وإذ أهل هذه البلاد يؤخذ من أموالهم أكثر مما كانوا [عليه[4]] أولا ، فلابد وأن تقل الأموال فى هذه البلاد ويكثر فيها الفقراء ونقصان المعيشة وقلة الأرزاق ونحو ذلك مما يلزم قلة الأموال ؛ ويلزم ذلك كثرة السرقات ورداءة المعاملات ونحو ذلك .

(١) فى الأصل : مما .

(٢) فى الأصل : وإنما .

(٣) فى الأصل : إذا .

(٤) إضافة فى (جـ) وهى تساعد على جلاء المعنى .

الفصل السابع

فى كيفية تعرف كامل بحال سلطان البلاد التى[1] تبقى[2] لهذه الملة مجاورة[3] لما ينتهى إليه ملك أولئك الكفار

إن المسمى ★ بكامل تفكر[4] بعد ذلك فى حال سلطان البلاد (ب٥٣ظ) التى[5] تبقى لهذه الملة[6] — المتاخمة لبلاد هؤلاء الكفار فقال : إن هذا السلطان لا شك أن يكون فى بلاده وأجناده وأمواله دون ما لهؤلاء الكفار بكثير ، وكيف لا وأكثر بلاد ملة هذا النبى عليه السلام يكون أولئك الكفار قد استولوا عليها ، ومع ذلك فلهم لا محالة بلاد أُخَر من بلاد غير هذه الملة ، وهذا السلطان إنما معه بعض الباقى من بلاد هذه الملة وهى البلاد المتاخمة لهؤلاء الكفار ، فلذلك لو لم يكن هذا السلطان شديد البأس جدا حتى يكون وحده فى مقابلة جيش كثير لم يتمكن من مقاومةِ هؤلاء الكفار ومنعِهم من الاستيلاء على بلاده ، فلذلك لابد وأن يكون هذا السلطان شديد البأس جدا ، ولا يكفى أن يكون كذلك فى نفسه فقط بل لابد وأن يكون عند الناس بهذه الصفة ، وإنما يكون ذلك إذا كان ★ قد (ب٥٤و) اشتهر عنه أنه جرىء مقدام شجاع سَمِىّ[7] الأخلاق ، وإنما يكون ذلك

---

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : تبقى (بلا إعجام) ، وفى (جـ) : يتقى .

(٣) فى (جـ) : المجاورة .

(٤) فى الأصل : تكفر .

(٥) فى الأصل : الذى .

(٦) التى ... الملة : — (جـ) .

(٧) فى الأصل : سمعى .

إذا عُرفت منه جراءة[1] شديدة جدا كالجرأة على الملوك[2] والإقدام على قتل أكابرهم، ويلزم ذلك أن يكون قوى القلب جدا، فلذلك لابد وأن يكون قاسيا، فلذلك تقل رحمته، فلذلك يكثر منه صدور العقوبات وقطع الأطراف والصلب والتسمير ونحو ذلك مما إنما[3] يكثر مع القساوة، فلذلك لابد وأن يكثر فى بلاده[4] هذه الأمور كلها خاصة. وقد بيَّنا أنه لابد وأن تكثر فى البلاد السرقة ونحو ذلك مما يوجب هذه العقوبات، فلذلك لابد وأن يكون هذا السلطان قد صدرت عنه هذه الأمور، فلذلك هذا السلطان لايجوز أن يكون من أهل المدن فإن أهل المدن بعيدون عن هذه الأخلاق، فلابد وأن يكون من أهل البرِّ، ولابد وأن يكون من أهل برٍّ هم أقوياء القلوب * شجعان، فلذلك لابد وأن (ب ٥٤ ظ) يكون شماليا كما قلناه، ولابد وأن يكون أيضا من شمالى المشرق لأن شمالى المغرب كما تقدم إنما يوجد فيه قوم جَزَريُّون[5] فتكون أمزجتهم غير ملائمة للأخلاق المذكورة، فلذلك لابد وأن يكون هذا السلطان إما من أرض أولئك الكفار، أو من أرض تقرب منهم. فلذلك لابد وأن يكون ضيق العينين، واسع الصدر، عظيم الهامة. عريض الأكتاف، دقيق الساقين، ليس بشديد سواد العينين، ولا أنفه شديد الحدَّة، ولابدنه[6] بعظيم[6]

---

(١) هكذا فى الأصل وهى صحيحة، ولكن المستشرقين وضعا جرأة بدلا منها، وقد جاء فى المعجم الوسيط: جرُؤ على الشىء - جرأة، وجراءة: أقدم عليه

(٢) يشير هنا إلى مقتل «قطز» على يد «الظاهر بيبرس». (انظر ما أثبتناه فى المقدمة عند بحث الحياة السياسية والاجتماعية فى زمن «ابن النفيس».

(٣) إنما زائدة هنا زائدة وقد وردت هكذا فى الأصل.

(٤) فى الأصل: بلاد.

(٥) فى الأصل «حريرون» وفى (جـ): خائرون. والأقرب إلى الصواب ما أثبتناه، حيث تقدم أنهم فى شمالى الغرب يسكنون الجزر، والنسبة إلى الجزيرة جَزرى وجزيرىّ.

(٦) الناسخ هنا مضطرب وإعجامه ليس دقيقا ولذلك وضع النقاط تحت الحروف وفوقها خطأ فقد كتب بدنه (بد به) وعظيم كتبها (بعظم)

جدا ، فتكون أرواحه(١) شديدة الانبساط والتثبت ، فإن ذلك ينافى شدة حرارة القلب وحرارة الخلق ، ولا أيضا بصغير جدا فيكون قليل التثبت غير عميق الفكرة وإلا لم يصلح لتدبير المملكة فلا يكون صالحا لمقاومة هؤلاء الكفار ، ولابد أن يكون ★ مزاجه إلى حرارة وإلا لم يكن شديد (ب ٥٥ و) الجراءة ، فلابد وأن يكون لونه أحمر إلى الغُمرة(٢) ، وشعره ليس بقليل جدا بل يكثر شعره ولا يحدث له صلع ، إلا(٣) أن يتدبر تدبيرا(٣) مخففا و(٤) لأنه من أرض باردة جدا فلابد وأن يكون بدنه متكاثفا مستحصفا(٥) فلذلك يقل تحلل ما يحدث فى بدنه من الأبخرة الدخانية لأجل حرارة مزاجه ، فلذلك لابد وأن يكون حاد الأخلاق إلى زعورة(٦) . ونزاقة(٧) ؛ ولابد وأن يكون كثير الحركة سريعا يكره(٨) السكون ويحب الحركة خاصة فى الشمس ، ويؤثر التعرق(٩) ، ويكره البرد ، ويميل إلى كثرة الدثار مع إيثاره استنشاق الهواء البارد ، ويؤثر الأطعمة الباردة

---

(١) قال ابن النفيس فى « الموجز فى الطب » : الأرواح ، ولا نعنى بها النفس كما يُراد بها فى الكتب الإلهية ، بل نعنى بها جسما لطيفا بخاريا يتكون من لطافة الأخلاط ، كتكون الأعضاء عن كثافتها . والأرواح هى الحاملة للقوى ، فلذلك أصنافها وأصنافها . انظر الموجز فى الطب . ص ٣٥ .

(٢) الكلمة فى الأصل غير معجمة ، وفى (جـ) : السمرة . والأقرب للصواب ولرسم الكلمة ما أثبتناه ، فالغُمرة : طلاء يتخذ من الزعفران أو الكركم يطلى به النساء وجوههن ليصفوا لونها ، والغُمْر أيضا الزعفران . (المعجم الوسيط) .

(٣) هكذا فى الأصل ولعلها : إلا أن يتدثر تدثيرا مخففا ، أى يخفف دثارة عند النوم ، وهنا يتحول مزاجه من حرارة إلى برودة ، وفى هذه الحالة قد يحدث له الصلع – هذا فى رأى المؤلف .

(٤) هكذا فى الأصل وهى صحيحة ، وحذف واو العطف – كما فعل المستشرقان لا داعى له .

(٥) حصف الرجل أو حصف جلد الرجل : أصابه الحصف ، وهو الجرب اليابس ، وبثر صغار يقيح ولا يعظم ، وربما خرج فى مُرّاق البطن أيام الحر . (المعجم الوسيط) .

(٦) الزَّعِرُ : سيء الخلق قليل الخير .

(٧) النَّزَق : الخفة والطيش .

(٨) فى الأصل « بكثرة » وهو تصحيف من الناسخ لا يتفق مع المعنى المطلوب .

(٩) فى الأصل « ونور التعرف » بدون اعجام .

والغليظة ، ويكره تناول الأطعمة الشديدة السخونة ، وينتفع بالشتاء والنوم فى موضع بارد مع أنه يؤثر كثرة الدثار ،ويكشف رجليه للهواء البارد ، وتتأخر حركة أجفانه ، ولا * يوجد على ظهره شعر بل ربما وجد (ب ٥٥ ظ) ذلك على صدره وبطنه وإن كان قليلا جدا ، ونومه ليس بشديد الاستغراق ولا بِكَثْرٍ ويثب فى نومه كثيرا ، ويرى أحلاما هائلة فى كثير من الأيام ، وشهوته للأكل ليست بقوية جدا ، ولاجماعهُ بكثير جدا ، وأكثر أولاده البنون[1] وأكثر شهوته الأطعمة الحامضة ، ويؤثر الحلاوات فى أوقات ، ولا يشتد ميله الى الأطعمة التفهة[2] ، ويحب الفواكه ، ويحدث له الغثى كثيرا ، ويسهل إسهاله[3] .

---

(١) فى الأصل : البنين .

(٢) الأطعمة التفهة : التى لا طعم لها .

(٣) تدل جميع الأوصاف البدنية المذكورة فى هذا الفصل على أن ابن النفيس كان متصلا أشد الاتصال بالسلطان بيبرس وكذلك بالسلطان قلاوون مما يجعلنا نعتقد أنه كان طبيبهما الخاص . كما يشير ابن النفيس بذلك إلى أن المماليك الذين كانوا يحكمون مصر والشام فى ذلك العصر هم أصلا من بلاد متاخمة لبلاد المغول وأنهم من جنسهم .

الفصل الثامن

فى كيفية تعرف «كامل» بأحوال حفدة الملك المتاخم للكفار وهو الذى تقدم ذكره وأحوال أعوانه وجيرانه من ملوك ملة النبى ﷺ

ثم إن المسمى بكامل تفكر فى أحوال هؤلاء المذكورين فقال فى نفسه : إن الملك لما تبين أنه لابد وأن يكون عند الناس مشهورا بالشهامة والسطوة والقدرة فلابد وأن يكون عند جميع* الناس مهيبا مخوفا[1] ، (ب٥٦و) فلذلك لابد وأن يكون جميع هؤلاء حسنى الطاعة له والانقياد لأوامره[2] خائفين من سطوته ، فلذلك لابد وأن تكون معاملتهم فى الظاهر على أجود الوجوه وأتمها .

وهذا الملك يخالف غيره من الملوك فإن هذا مشغول بمقاومته[3] هؤلاء الكفارَ ومهتم بأمرهم ، فلذلك يحتاج فى كثير من الأوقات إلى الحركة إلى جهة أولئك ليظهر لهم القدرة على المقاومة ، ومع ذلك فإنه يقاتل[4] جميع من يتمكن من قتاله[5] ممن يقرب منه [من[6]] الكفار ليظهر لأولئك ما فيه من الشهامة والقدرة ، فلذلك يحتاج كثيرا أن يفارق

---

(١) المعجم الوسيط : خاف خوفا .... والمفعول مَخُوفا وهى هكذا فى الأصل ، ولكن وضع المستشرقان الشدة على الواو فأصبحت مخوّفا ، ولا داعى لذلك .

(٢) فى الأصل : لاوامراغة .

(٣) فى (جـ) ، اختار المحققان : بمقاومة ، والمثبت صحيح أيضا .

(٤) فى الأصل : يقابل .

(٥) فى الأصل : قتاله ، والتاء غير معجمة .

(٦) إضافة يقتضيها السياق .

محل مملكته والبعد[1] عنها إلى جهات الكفار ليرهبهم[2] فيزيد فى خوفهم ، فلذلك يحتاج أن يكون له من يخلفه فى محل المملكة ليقوم فيها مقامه ، وانما يمكن ذلك إذا كان هذا الذى * يستخلفه شديد البأس[3] أيضا شهما[4] (ب ٥٦ ظ) جيد التدبير أيضا ، لأن هذا الوزير يحتاج كثيرا أن يستقل بتدبير المملكة لأجل كثرة غيبة هذا السلطان عن البلاد ، وكذلك أيضا يحتاج إلى [أن[5]] يكون مهيبا مطاعا إذ لولا ذلك لاختل أمر المملكة بسبب كثرة غيبة السلطان ، ويحتاج أيضا أن يكون شديد التمسك بأحكام الشرع ، وإنما يمكن ذلك إذا كان عالما بتلك الأحكام ، وإنما وجب ذلك ليكون تصرفه على الوجه المرضىّ شرعا فلا يكثر الفساد فى هذه البلاد فيصير أهلها مستحقين للقتل كالذين كانوا بجوارهم ، فيكون ذلك سببا لتسليط أولئك الكفار على تلك البلاد – ولذلك أيضا يجب أن يكون حاكم هذه البلاد وواليها ونحو ذلك من المتصرفين فيها – ويحتاج هذا الوزير أن يكون عنده من الفكر[6] اللطيف وحسن التأنى مما يتمكن بهما من جودة أخذ الأموال[7] (*) التى بيّنا أنها لابد وأن تؤخذ من الرعية لتصرف فى الجيش (ب ٥٧ و) حتى يكون أخذه لها على وجه يحلّه الشرع ، وعلى وجه يقل معه تضرر أهل هذه البلاد ، فلذلك يحتاج أن يكون متوسط الأخلاق حتى ما يكون عنده من الرقة والرحمة يعادل ما عنده من السطوة والقوة ، وبالجملة فإنه

---

(١) هكذا فى الأصل وهى صحيحة ، ولكن وضع المستشرقان بدلا عنها «ويبعد» .
(٢) فى الأصل : ليرهبهم .
(٣) فى الأصل : الناس .
(٤) فى الأصل : مهتما . وما أثبتناه أقرب الصواب ، ليتفق مع أوصاف ابن النفيس السابقة .
(٥) إضافة حتى يستقيم المعنى .
(٦) فى الأصل «الكفر» .
(٧) فى الأصل : المال ، والتصحيح ليستقيم الأسلوب .

يحتاج أن يكون متمكنا من رضى هذا السلطان ، ورضى الله تعالى ، ورضى الرعية والأجناد وغير ذلك ، إذ لو كان على وجه يُسخط الله عز وجل لجعل البلاد مستحقة لقتل أهلها واستيلاء أولئك الكفار عليها كما فى البلاد المجاورة ، فكان مؤديا إلى زيادة استيلاء الكفار لا إلى دفعهم[1] ومقاومتهم ، ولو كان على وجه يسخط السلطان لم يسَع السلطان[2] الاعتماد عليه ولا استخلافه ، ولو كان على وجه يُسخط الأجناد وحفدة[3] السلطان ورعيته لكان ذلك يدعو هؤلاء إلى الخروج (*) عن (ب ٥٧ ظ) حسن طاعة السلطان ، فكان فى ذلك فساد المملكة ، فلذلك لابد وأن يكون هذا الوزير على الوجه الذى قلناه .

---

(١) فى الأصل : رفعهم بالراء المعجمة ، وما أثبتناه أقرب إلى الصواب .

(٢) هكذا فى الأصل وهو صحيح ، وعند المستشرقين «للسلطان» .

(٣) الحافد : العَون ، والخادم ، والجمع حفدة ، وحفد فلانا : أعانه وخف إلى خدمته : (المعجم الوسيط) .

الفصل التاسع

فى كيفية تعرف كامل لما يحدث فى العالم العلوى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

ولما كان «كامل» دائم التصفح(١) والتفكر فى أحوال الموجودات تأمل حركة(٢) الشمس فوجدها فى الصيف تدنو من الشمال ، وفى الشتاء تبعد كثيرا من الجنوب ، ومع ذلك فإنها تدور كل يوم دورة موازية للدائرة(٣) العظيمة التى بُعدها عن ميل الشمس الشمالى والجنوبى بُعدٌ واحدٌ(٤) ، وكذلك الكواكب المسيرة جميعها تميل إلى هاتين الجهتين مع الدورة اليومية ، فعَلِم لذلك أن جميع هذه الكواكب لها بدورانها دورات تصير بها تارة شمالية وتارة جنوبية مع أن جملة السموات تدور فى كل يوم دورة مشرقية أى تأخذ ★ من المشرق إلى المغرب ، وانما يمكن ذلك بفلك (ب٥٨و) له هذه الحركة السريعة [و](٥) تكون الدائرة المتوسطة بين المنزلة الشمالية والجنوبية هى منطقته ، ويكون له إدارة جميع أفلاك الكواكب كلها بهذه الدورة ، وإنما يكون ذلك بأن تكون هذه الكواكب يثبت بطنا(٦) كل سافل منها بنقطتين من العالى أشياء قطبية فيلزم من دوران

---

(١) المعجم الوسيط : «تصفح الشيء» : نظر فيه ... وتصفح القوم نظر فيهم ليتعرف أمورهم .

(٢) فى الأصل : الحركة .

(٣) فى الأصل : الدائرة ، والأصوب هو ما اعتمدناه .

(٤) فى الأصل : بعدا واحدا .

(٥) و : إضافة ليستقيم النص .

(٦) فى (جـ) : قطبا .

ذلك العالى[١] دوران السافل ، فلذلك إذا دار الفلك العالى هذه الدورة السريعة دار ما يماسه من تحته ، ولذلك كل فلك يدوِّر ما تحته حتى يدور الكل بهذه الدورة ، وهذا انما يمكن إذا كانت أقطاب الأفلاك مختلفة ، فإن قطبى العالى إذا حاذيا قطبى السافل لم يتحول السافل بحركة العالى .

ثم إن المسمى «بكامل» وجد مقدار بُعد الشمس فى الشمال والجنوب عن منطقة الفلك الأعلى يتناقص فعلم أنه لابد وأن تبطل حتى يصير مدار الشمس فى منطقة الفلك العالى وإن كانت الشمس* فى غير (ب٥٨ظ) العقدتين ، ويلزم ذلك أمور :

أحدها : أن يصير بعد القمر عن الشمس أزيد مما هو الآن بكثير ، أعنى بعده منها شمالا وجنوبا ، وذلك لأن ميل القمر الذى هو غرضه لا يتغير ، فلذلك تكون الأهلة لا محالة أعظم كثيراً[٢] مما هى الآن ، أعنى مما هى حين [كان][٣] ميل الشمس كثيرا ، ولذلك إذا نقص ميل[٤] الشمس فلابد وأن تعظم الأهلة بقدر دون ذلك .

وثانيها : أن الفلك الذى دون العالى تصير قطباه حينئذ محاذية لقطبى العالى فيبطل لذلك استصحاب[٤] العالى له فى الدورة اليومية ، فتبطل هذه الدورة عن الأفلاك السافلة كلها ، وتظهر حركتها من المغرب إلى المشرق ، وهى حركتها الخاصة التى بها يكون الميل المذكور ، فلذلك تطلع الشمس وسائر الكواكب من المغرب ، إلا أن غير الشمس والقمر

---

(١) فى الأصل : المعالى .
(٢) فى الأصل : كثيرنا .
(٣) إضافة ليستقيم المعنى .
(٤) فى الأصل : مثل .
(٥) فى الأصل : استحصاب .

لا يظهر ذلك فيها لجمهور الناس لأجل زيادة بطء[1] حركتها فلذلك تطلع الشمس فى يوم من* المغرب اللهم إلا أن يمنع من ذلك فلك[2] آخر . (ب ٥٩ و)

وثالثها[3] : أن دوران الشمس يصير حينئذ دائما فى خط الاستواء فلذلك يستوى النهار والليالى فى جميع البلاد ، وإنما يحدث حينئذ طول فى الليل فى ليلة واحدة وهى الليلة التى يتبعها طلوع الشمس من المغرب .

ورابعها : أن الفصول حينئذ تبطل ، وتكون المواضع الزائدة البعد عن خط الاستواء شديدة البرد دائما ، وخط الاستواء وما يقرب منه شديد الحر دائما ، وفى ذلك الزمان وقبله بسنين يكون لا محالة طبيعة الهواء غير ملائمة لمزاج الإنسان ، فلذلك يكون الناس حينئذ خارجين عن الاعتدال جدا ، فلذلك تسوء أخلاقهم وتكثر الشرور والفتن ونحو ذلك .

---

(١) فى الأصل : بطو . وهى ظاهرة خطية إملائية .
(٢) فى الأصل : فلذلك .
(٣) فى الأصل : ومثالها .

الفصـــــل العاشر

فى كيفية تعرف كامل لما يحدث فى العالم السفلى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

ثم إن المسمى*«بكامل» تفكر بعد ذلك فى الحوادث التى تحدث فى (ب٥٩ظ) ظاهر الأرض بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين فقال :

وإذ ثبت أن ميل الشمس إلى الشمال والجنوب يتناقص دائما ، فإذا بطل هذا الميل أو قرب من البطلان صارت الشمس دائمة المسامتة لخط الاستواء وما يقرب منه جدا ، فلذلك يحدث فى تلك البقعة حرارة شديدة جدا ، ويحدث فى تلك البقاع التى لها عرض يُعتدّ به برد مفرط جدا ، ويلزم ذلك أن تكون أكثر المواضع خارجة جدا عن الاعتدال ، فلذلك تكون أمزجة الناس فى أكثر البلاد رديئة فاسدة ، فلذلك تضعف قلوبهم ويكثر فيهم[1] الموت الفجاءة[2] ، وتكون أخلاقهم ومعاملتهم [رديئة فاسدة[3]] فلذلك تكثر حينئذ الشرور والمخاصمات ، خاصة وأمزجة الناس تكون حينئذ شديدة الاختلاف[4] ، وذلك لشدة اختلاف[5] طبائع أهوية البلاد ، فلذلك يحدث بين الناس اختلاف[6]* (ب٦٠و)

---

(١) فى الأصل : منهم .

(٢) الموت الفجاءة والفجأة : ما يأخذ الإنسان بغتة ، وهو موت السكتة . (المعجم الوسيط) .

(٣) إضافة من عندنا إذ الظاهر أنها سقطت من الناسخ وقد أضفنا التعبير الذى استعمله المؤلف سابقا .

(٤) فى الأصل : الاخلاف .

(٥) فى الأصل : اهلاف .

(٦) فى الأصل اخلاف .

شديد جدا ، وتكثر الحروب والفتن وسفك الدماء ونحو ذلك ، ولذلك يتقدم الأشرار ، ويتأخر أهل الخير .

ولأن سوء المزاج يلزمه فساد الذهن ، فلذلك تفسد أذهان الناس حينئذ وتصير بحال رديئة وذلك ما ينافى[1] قبولها للعلوم والحكمة ، فلذلك ترتفع العلوم كلها وتقل جدا فى الناس ، ثم إذا بطل ميل الشمس ألبتة اشتد الحر جدا فى البقاع القريبة من خط الاستواء ، وكثرت النيران واللهب خاصة فى البلاد الغورية[1] والكبريتية[2] الأرض ، فلذلك يحدث حينئذ نار بأرض اليمن ، وتمتدّ حتى تعمّ الأراضى التى عند خط الاستواء وما يقرب منه ، وتكثر حينئذ الأدخنة ، ويتولد من ذلك رياح رديئة وصواعق وبروق هائلة ، وتكثر العلامات الهائلة فى الجو ، وذلك قبل بطلان ميل الشمس وذلك إذا تناقص ميلها جدا .

ولأجل كثرة الأدخنة حينئذ يظلم الجو ويكدر ويلزم ما يرتفع★ (ب ٦٠ ظ) من الأجزاء الأرضية والمائية اللتين[3] فى خط الاستواء وما يقرب منه ، فلذلك يقل جرم الأرض هناك جدا ، فيصير ما تحت القطبين وما يقرب من ذلك ثقيلا جدا بالنسبة إلى وسط الأرض ، فلذلك لابد وأن يسقط كثير من ظاهر الأرض هناك ، ويلزم ذلك سقوط الجبال واندكاكها ، ويقل الماء جدا لأجل ميلانه إلى قرب خط الاستواء بسبب انخساف ذلك الموضع ثم تبخره بقوة الحرارة التى تكون هناك ، فلذلك يجف كثير

---

(١) فى الأصل : فى . الغور . والاغوار : كل منخفض من الأرض . (المعجم الوسيط) .

(٢) فى الأصل : الكبرتية .

(٣) هكذا فى الأصل وهو صواب ، ولكن فى (جـ) اللتان .

من الأشجار وكذلك تقل الأرض جدا لكثرة ما يتصعد منها متدخنا ، فلذلك تظهر الكنوز وما يكون فى باطن الأرض .

وإذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط[1] الخروج عن الاعتدال ، حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية وكان من ذلك القيامة .

وقبل ذلك لابد وأن تكثر الزلازل والخسوف وذلك لأجل كثرة ما يحدث حينئذ فى باطن الأرض من الرياح والأدخنة ، وذلك أما فى المواضع الحارة جدا فلأجل شدة تحريك هذه* الحرارة للأجزاء الأرضية (٦١ و) إلى فوق ، وأما فى المواضع الشديدة [البرد][2] فلأجل تكاثف وجه الأرض حينئذ بكثرة الجمد فلذلك تحتبس الرياح والأبخرة ونحوهما فى باطن الأرض ويلزم ذلك حدوث ما قلناه[3] .

ولأجل شدة اختلاف الأمزجة حينئذ تختلف صور الناس أيضا ، ويسمج[4] خلقهم ، فلذلك ربما وجد إنسان يخاطب الناس ويكلمهم كما فى غيره من الناس ومع ذلك فإنه يكون فى صورة مخالفة لصورة الإنسان حتى يكون على صورة تشبه صور الدواب .

ولأجل كثرة الحروب حينئذ يكثر القتل ، وذلك إنما يكون فى الرجال ، فلذلك تكثر النساء جدا بالنسبة إلى من يبقى من الرجال ،

---

(١) فى الأصل : إفراط .

(٢) إضافة حتى يستقيم المعنى .

(٣) يقصد حدوث القيامة .

(٤) المعجم الوسيط : سمج : قبح .

ويلزم ذلك كثرة شهوتهن وإفراط شبقهن إذ لا يجدن من يقوم بما يحتجن إليه من الرجال ، ويلزم ذلك كثرة المساحقة .

وتقل الثمار والزروع جدا ، وذلك أما فى البقاع الشديدة الحرارة فلأجل نقصان المادة جدا * فى باطن الأرض لأجل فقدان البرد الحابس لها (ب ٦١ ظ) فى الباطن لتنضج ، وأما فى البقاع الشديدة البرد فلأجل فقدان الحرارة الجاذبة للمادة والمنضجة لها ، ويقل حينئذ ما يوجد من البقاع المعتدلة الهواء ، فلذلك يقلّ جدا تكون الثمار والزروع ، فلذلك تقل الأرزاق جدا وتغلو(١) الأسعار ، ويلزم ذلك أن تكثر السرقة والنهب وقطع الطريق ونحو ذلك مما يحدث فى أوقات القحط والجدب(٢)

وإذ ميل الشمس إذا قل جدا أو بطل ، لزم ذلك شدة إفراط الحر فى الإقليم(٣) الأول وما يقرب منه ، وشدة إفراط البرد فى الإقليم السابع وما يقرب منه ، وكلا هذين يمنع من الحياة والصحة ، فلذلك يضطر سكان هذين الاقليمين ومايقرب منهما إلى الانتقال [فيحتاج أهل ، الإقليم الأول ومايقرب منه وهم السودان](٤) إلى الانتقال إلى ماهو عندهم شمالى ، ويحتاج أهل الاقليم السابع وما يقرب منه وهم الترك والتتار والروس ، ويأجوج ومأجوج إلى الانتقال * إلى ما هو عندهم جنوبى ، (ب ٦٢ و) وذلك بأن ينتقل كل واحد من سكان هذين الاقليمين مع ملوكهم وعساكرهم ومواشيهم ونحو ذلك إلى البلاد التى بينهما ، وذلك مما يلزم

---

(١) فى الأصل : تغلوا . .وهى ظاهرة خطية عند الناسخ .
(٢) فى الأصل : الجذب .
(٣) فى الأصل : الأقاليم الأول .
(٤) إضافة ليستقيم المعنى ، وهى فى (ج) .

منه وقوع المقاتلة والمدافعة من سكان تلك البلاد ، فلذلك لابد وأن يحدث لسكان الأقاليم القريبة من الاعتدال قبل القيامة قتال مع السودان وقتال مع الترك والتتار ويأجوج ومأجوج ، ولابد لسكان هذين الاقليمين من الاستيلاء على بعض هذه الاقاليم القريبة من الاعتدال ، فلابد وأن يحدث فيها غلاء فى سائر الأسعار ونقصان من الأموال ونحو ذلك مما يحدث عند ازدحام الناس وكثرتهم .

ثم بعد بطلان ميل الشمس لابد وأن يحدث لها ميل آخر ، وذلك لأجل استمرار حركة تلك الثوابت الحركة البطيئة جدا وهى التى من الشمال إلى الجنوب ، وإذا كثر★ الميل عادت الأرض إلى الأرض[1] (ب ٦٢ ظ) الأول ، وصلح الهواء لأن يعيش فيه الحيوان ، فإذا حدثت فى الشتاء أمطار كثيرة ، وامتلأت الأرض حتى امتزج التراب بالماء ، وحدثت له من حرارة الشمس العفونة ، صار ذلك صالحا [لأن يتكون منه[2]] بدن الإنسان وغيره من الحيوان ، فلذلك تتمكن حينئذ النفس الإنسانية من تغذية الجسم[3] الصغير جدا وهو المسمى بعجب الذنب الذى ذكرناه أولا وبينا أن النفس الإنسانية تكون متعلقة به ، فلذلك يحدث من

---

(١) هكذا فى الأصل ويقترح فى (جـ) استبدالها فتصبح عادت الأرض إلى العرض ، وهنا لا يؤدى إلى معنى وواضح أن المقصود هو أن الأرض عادت إلى حالها الأول الذى كانت عليه قبل القيامة ، فأينعت وأصبحت صالحة للحياة الانسانية .

(٢) إضافة يقتضيها السياق .

(٣) فى الأصل : الاسم .

ذلك الطين ما يغتذى به مدة لطيفة ، غذاء كثيرا جدا ، وحينئذ تكمل من ذلك أبدان الناس ، ويبعثون كما كانوا أولا ، وذلك هو البعث ، سبحان الله القدير العليم .

ومن هاهنا فلنختم الكتاب مستعينين بالله
وحده ومصلين على خير أنبيائه محمد وآله
وصحبه وأصفيائه

تمت الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الفهـــرس

التحقيق

الفن الثالث



رقم الإيداع ١٩٨٧/٣٤٥٨

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية